دراسات حول المدينة المنورة

(١)

شعر الحرب في الجاهلية عند الأوس والخزرج

الدكتور محمد العيد الخطراوي

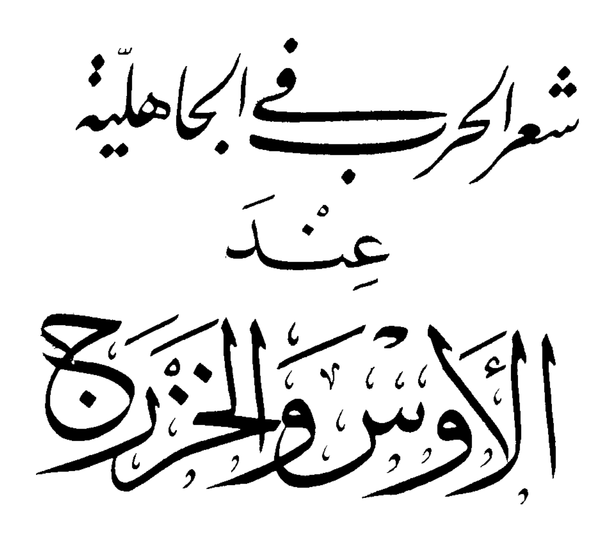


مؤسسة علوم القرآن
دمشق - بيروت

دار القلم
دمشق - بيروت

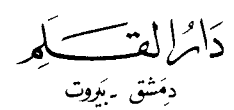
دراسات حول المدينة المنورة

(١)

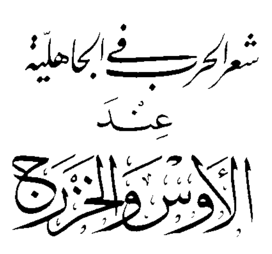


الدكتور محمد العيد الخطراوي

مؤسسة علوم القرآن
دمشق - بيروت



بسم الله الرحمن الرحيم


شعر الحرب في الجاهلية
عند
الأوس والخزرج

الطبعة الأولى
١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

ملتزم الطبع : الوكالة العامة للتوزيع دمشق ص . ب . ٤٦٢٠

فاتحة البحث

إن لاختيار موضوع هذا الكتاب (شعر الحرب في الجاهلية عند الأوس والخزرج) قصة عميقة الأغوار في نفسي، شديدة الالتصاق بحياتي، فلي في ذلك الأسباب الخاصة والدواعي المتعددة، علاوة على ما في جبلة النفس البشرية من ميل لسماع الكلمة المتحمسة ودويّ السلاح، وما في طبائعها من ارتياح لحمحمات الخيل وصرخات الأبطال، فالناس مطبوعون على حب البطولة، يتحسسونها في ذواتهم، ويتلمسونها في ماضيهم وحاضرهم، عند غيرهم، في شتى صورها ومختلف مجاليها ومظاهرها، ويُحلون الأبطال من نفوسهم محل التقدير والتجلة والإعظام، وقد نصب أناس في القديم والحديث للأبطال التماثيل المجسدة في الساحات، رمزاً يشاهد، ونموذجاً يحتذى.

والأوس والخزرج ـ دون منازع ـ كانوا من البطولة في الذؤابة ومن الشجاعة في أعلى الذرى، تشهد لهم بذلك أيامهم الشهيرة في الجاهلية والاسلام. فأما في الاسلام فقد اختارهم الله حماة لرسوله، دعاة لدينه، فاشتركوا في كل غزاة عقد لواءها الرسول ﷺ، وافتدوا الاسلام بالمال والأهل، وضحوا من أجله بالوالد والولد، وكتبوا بدمائهم الزكية أروع صفحات الجهاد والفداء، وضربوا أعلى المثل في التضحية والإيثار، وتركوا في ذلك ما تضيق به المجلدات، بلْهَ الكتب والصفحات. وأما في الجاهلية، فقد كانت لهم أيامهم المتعاقبة، التي لم تخل من مواقف بطولية رائعة بمعانيها المختلفة، صوّروها بقصائدهم، وخلدوها في

أشعارهم، وهي من صميم مواضيعنا في هذا البحث.

ومنشأ إعجابي بالأوس والخزرج بدأ بمواقفهم الاسلامية الخالدة ثم امتد الى الاهتمام بكل ما يتصل بهم من شؤون، بداية من حياتهم الجاهلية حتى تَفرُّقهم في الأقطار والأمصار وقيام دولة بني نصر بالأندلس، ثم إسهامهم في الفتوحات ومجالات المعرفة المختلفة، ومن ذلك ما كان من اهتمامي بأشعارهم بصفة خاصة، تلك الأشعار التي يذكر لنا الرواة: أنها استطاعت أن تغري حمّاداً الراوية وتنقله من حياة الصعلكة والتشطّر واللصوصية الى صدور مجالس العلم والشعر والأدب، حيث انقلبت حياته ظهراً على عقب. تقول الروايات[1]: إنه نقّب ذات ليلة من ليالي صعلكته على رجل، فأخذ ماله، وكان فيه جزء من شعر الأنصار، فقرأه، فأعجب به واستحلاه وتحفّظه، ودفعه ما فيه الى أن يترك ما كان عليه من التشطّر والتلصص، وأن ينقطع الى طلب الأدب والشعر وأيام الناس ولغات العرب، حتى بلغ من العلم ما بلغ. وإن شعراً يفعل ذلك بقارئيه لجدير منا بالبحث والدراسة والتنقيب.

ومن سوء حظ العربية أن ضاع أكثر هذه الأشعار، فلم يبق منها ما بقي لغيرهم من القبائل والأقوام، ولا عرفنا ـ على حد علمي ـ أنه حواها بعد ذلك كتاب موحد حملها إلينا، كما تهيأ ذلك لأشعار الهذليين ـ مثلاً ـ وإنما بقيت أبياتاً متفرقة تروَى، ومِزَقاً من القصائد والمقطعات، ترد خلال الكتب في مجال الاستشهاد ومضرب الأمثال، إلا ما عرف عن ديوان الشاعر قيس بن الخطيم، الذي قام بتحقيقه أخيراً والتعليق عليه وشرح أبياته الدكتور ناصرالدين الأسد.

ثم قام الدكتور حسن محمد باجودة بجمع أشعار عبدالله بن رواحة ثم أشعار أبي قيس بن الأسلت، وتحقيقها، ووضع دراسة عليها.

---

(١) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ٦: ٨٧، طبعة دار الثقافة ٦: ٨٣. ومصادر الشعر الجاهلي للدكتور ناصرالدين الأسد ص ١٥٧.

كما قام الدكتور سامي العاني بجمع وتحقيق أشعار كعب بن مالك. وكذلك فعل الدكتور عبدالله عبدالرحيم عِـسـيــلان.

أما ديوان حسان فقد نشر من أكثر من جهة، محققاً مرة، ومغفلاً من أي جهد أو تحقيق مرات.

وما ذكرت، هو حافز من حوافزي، وسبب من الأسباب التي دعتني للكتابة عن هذا الموضوع المتصل بحياة الأوس والخزرج (شعر الحرب في الجاهلية عند الأوس والخزرج). وسبب آخر: هو ارتباطي الروحي والوجداني بالمدينة المنورة، كموطن للنبوة، ومركز للإشعاع الروحي، ومباءة للاسلام، قبل أن تكون داراً لسكني وموئلاً لأبنائي وأحفادي من بعدي إن شاء الله.

فمن واجبها علي أن أهتم بتاريخها وأشيد بذكرها، وألهج بآداب بنيها على مرّ العصور. ومن حقها علي أن أعتني بتراثها، وأتغنّ بأمجادها وأعطيها حقها من التجلة والإعزاز والتقدير، ولا أظنني قادراً على ذلك، مهما فعلت ومهما قدمت، ولكن حسبي أنني حاولت، وعلى الله الاتكال، ومنه الأجر والتوفيق وصلاح النية.

وقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى سبعة فصول، حاولت أن أرتبها ترتيباً منطقياً، بحيث تَبين ضرورةُ تاليها خلال قراءة سابقها، وتتضح أهمية السابق منها بقراءة اللاحق، فهي فصول مترابطة البناء متصلة الحلقات، وحتى ما يبدو لأول نظرة ضعيف الصلة بموضوع البحث، تنجلي بقليل من التأمل ضرورتُه، وتتأكد أهميته.

وخصصت الفصل الأول بالحديث عن نسب الأوس والخزرج ونزولهم يثرب. والنسب كما نعلم جميعاً عنصر مهم في حياة العرب،ولا يزال.

وجعلت الفصل الثاني للكلام عن يثرب ومنازل الأوس والخزرج فيها، وذلك شرح للبيئة ومسرح الأحداث.

أما الفصل الثالث فكان خاصاً باليهود في يثرب، وهم وإن كانوا يمثلون

العنصر الغريب الطارىء على المدينة فإن لهم أهمية في الحياة اليثربية لا يمكن إغفالها بحال، ولا يصح تجاهلها.

وفي الفصل الرابع أعطيت لمحة عن آطام يثرب، لما لتلك الآطام من أثر فعال في حرب الأوس والخزرج، وقد كان حديثنا عنها مختصراً، حتى لا يخرج بنا الاستطراد عن موضوعنا الأساسي.

وأما الفصل الخامس فقد حاولنا فيه إعطاء نبذة شبه جامعة عن المجتمع اليثربي؛ ليمكننا تصور تحركاته بعد ذلك في حروبه التي نشبت ووقائعه التي قامت.

وفي الفصل السادس تحدثنا عن أيام الأوس- الخزرج، وأوردت ما قيل حولها من أشعار على قدر ما وصلنا منها مع التعقيب عليها بتعليقات يسيرة لم أقصد فيها الى الاستقصاء والاستفاضة؛ ومع ذلك فقد احتل هذا الفصل مكان الصدارة في البحث، وهو الذي كان ينبغي أن يكون. وفي الفصل السابع والأخير استعرضت الخصائص العامة لشعر الحرب عندهم، موازناً باختصار بينه وبين الشعر الحربي عند غيرهم، ثم وضعت للبحث خاتمة قصيرة لكي أودعك فيها قارئي الكريم كما استقبلتك في المقدمة، معتذراً عن التقصير، حامداً لك مرافقتي في المسير.

وبعـــد: فكل ما أقوله هو أنني أقدم عملاً أحسب أنه استغرق مني جهداً ليس بالهين ولا اليسير، وأخذ مني وقتاً ليس بالنزر ولا القصير، ولا أدعي له الكمال ولا أستقلّه، وإنما أقول كما قال الراغب الأصفهاني: إنني رأيت أنه لا يكتب إنســان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غُيِّر هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدّم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.

والله من وراء القصد.

المدينة المنورة
١/ ٧/ ١٤٠٠ هـ

المؤلف
الدكتور محمد العيد الخطراوي

الفصل الأول

نسب الأوس والخزرج ونزولهم يثرب

أ- نسب الأوس والخزرج

الأوس والخزرج قبيلتان محظوظتان دون شك، نزح أجدادهما من جنوب الجزيرة العربية. . . من اليمن الى يثرب، ليكون لهما بعد ذلك شأن. كأنما كانتا على موعد مع الدعوة الاسلامية الخالدة وصاحبها محمد بن عبدالله ﷺ، فنصر الله بهما الاسلام وتداركهما به بعد ما تفانيا ودقا بينهما عطر منشم، وذلك في يوم بعاث الذي كان أحد حروب ثلاثة لم تعرف العرب[1] أعظم منهن: حرب بعاث هذه التي كانت بين الأوس والخزرج، وحرب البسوس التي كانت بين بكر وتغلب، وحرب داحس والغبراء التي كانت بين ابني بغيض: عبس وذبيان، والتي استعرنا من شعر زهير بن أبي سلمى فيها: «دق عطر منشم» من قوله - يخاطب الحارث بن عوف وهرم بن سنان-:

تداركتما عبساً وذبيان بعد ما   تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

وجاء في لسان العرب في مادة أوس: الأوس: العطية، والعوض، ومن أسماء الذئب. وأوس: قبيلة من اليمن، واشتقاقه من آس يؤُوسُ أوْسا، والاسم الإياس، وهو من العوض، وهو أوس بن قيلة أخو الخزرج، منهما الأنصار، كان يقال لأبيهم: الأوس، فكأنك إذا قلت الأوس وأنت تعني تلك القبيلة إنما تريد الأوسيين، وأوس اللات: رجل منهم وحوّل فقيل أوس الله.

---

(١) مجلة العربي الكويتية العدد ١٩٣: ١٩ ديسمبر ١٩٧٤ م.

وفي مادة خزرج قال لسان العرب أيضاً: الخزرج من نعت الريح. ابن سيده: الخزرج: الريح الجنوب، وقيل: الريح الباردة، قال أبو ذؤيب:

غدوْن عُجَالى وانتحتْهنَّ خزرج مقفِّيـةٌ آثـارَهن هَـدُوجُ[1]

وقيل: هي الشديدة. قال الفراء: خزرج هي الجنوبُ غيرُ مُجْرَاةٍ،[2] والخزرج: اسم رجل، والخزرج: قبيلة الأنصار، غيره: قبيلة الأنصار هي الأوس والخزرج ابنا قيلة، وهي امهما نسبا اليها، وهما ابنا حارثة بن ثعلبة من اليمن.

قال ابن الأعرابي: الخزرج ريح الجنوب، وبه سميت قبيلة الخزرج.

اولنا على ما جاء في اللسان ملاحظتان:

١ ـ أنه قال في حديثه عن الخزرج: قبيلة الأنصار، وفي حديثه عن الأوس: وهو أوس بن قيلة أخو الخزرج، منهما الأنصار. ومعنى هذا أن كلمة أنصار تعني عنده الأوس والخزرج، فهما على هذا اسمان لمسمى واحد، وليس الأمر كذلك، فإن كلمة أنصار ليست نسباً لأحد، وإنما هي لقب مشعر بالمدح سمى الله به كل من ناصر الرسول ﷺ من أهل المدينة، سواء كان من الأوس والخزرج أم من غيرهم.

أما أنه تسمية من الله فقد ذكر ابن عبد البر[3]: أخبرنا عبدالوارث بن سفيان قال: أخبرنا قاسم بن إصبغ أخبرنا أحمد بن زهير قال: أخبرنا عفان وموسى بن إسماعيل، قالا: حدثنا مهدي بن ميمون، قال: سمعت غيلان بن جرير قال: قلت لأنس بن مالك: يا أبا حمزة أرأيت اسم الأنصار؟ اسم سماكم به الله أم أنتم كنتم تسمون به؟ قال: «بل اسم سمانا الله به».

---

(١) هدوج: سريعة.

(٢) غير مجراة: أي غير مصروفة.

(٣) الاستيعاب لابن عبد البر، بهامش الإصابة ١: ٧.

وأما أن لفظ أنصار وإن غلب على الأوس والخزرج يطلق عليهم وعلى غيرهم ممن ناصر الرسول ﷺ من أهل المدينة- فإن بعض بني جفنة بن عمرو مزيقيا كانوا ـ مثلاً ـ بالمدينة في عداد الأنصار، وكذلك بعض أحياء من بلّي [1]، وقد قتل الحارث بن سويد في الاسلام المجذّر بن زياد البلوي [2] بالمدينة لقتله أباه في بعض حروب الأوس والخزرج. وكذلك بنو معاوية بن الحارث بن بهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان.

كما أن بعض الأوس والخزرج لم يكونوا من الأنصار، لأنهم لم يكونوا بالمدينة ـ وذلك مثل بني عامر بن عمرو بن مالك بن الأوس الذين سكنوا عمان. وكذلك أبناء السائب بن قطن بن عوف من الخزرج فقد سكنوا بعمان أيضاً. كما أن بعضاً من الأوس والخزرج عاش منافقاً ومات منافقاً لم يؤمن بالاسلام ولم يناصره، بل حاربه ودسَّ عليه إلى أن مات. ولو أردنا أن نقيس الأمر بالنسبة للإسراع الى مناصرة الرسول ﷺ فإننا نجد أنه لم يكن للأوس [3] نصيب يذكر في اللقاء الأول مع الرسول ﷺ أو في المفاوضات الأولى التي جرت بينه وبين أهل يثرب في مكة. وإن اشتركوا بعد ذلك في بيعة العقبة أو إمضاء المعاهدة النهائية التي نصت على مناصرة المبايعين (الأوس والخزرج) للرسول ﷺ وحمايته والدفاع عنه، بعد انتقاله مع أصحابه اليهم في يثرب. وأيام هجرته ﷺ إلى المدينة لم يكن عددهم كبيراً كما هو الحال بالنسبة للخزرج، لأن بعضهم كان قد هاجر تحت ضغط حروبهم مع الخزرج إلى خارج يثرب، وظل الكثير منهم زماناً طويلاً بمعزل عن الاسلام. وبهذا يتضح أنه ليس كل أوسي أو خزرجي أنصارياً ولا كل أنصاري أوسياً أو خزرجياً، بل قد يكون ولا يكون.

ولا أريد أن أخطىء صاحب اللسان فذلك مرتقى صعب لا أدعيه لنفسي،

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ١: ١٢٩.

(٢) سيرة ابن هشام ٢: ٨٩، العصبية القبلية ص ١٨٤، والمرجع السابق.

(٣) دائرة المعارف الاسلامية ٣: ١٥٠.

وإنما قصدت أن أنبه إلى أنّ غلبة اسم الأنصار على الأوس والخزرج وكونهما العنصر الغالب في ذلك جعلته يغفل هذه التفرقة الدقيقة ولا يلقي لها بالاً، كما فعل كثيرون غيره، كالسمهودي في وفاء الوفا، وابن الأثير في تاريخه، من القدماء، والدكتور إحسان النص في العصبية القبلية، من المحدثين، بل إن ابن الأثير في كتابه الكامل يرتكب تجاوزاً آخر، وهو تسميتهم باسم الأنصار أثناء حديثه عن حروبهم في الجاهلية، وذلك ما لم يقل به أحد، وإنما هو ضرب من التجاوز او باعتبار ما سيكون، على حد قول البلاغيين.

٢ ـ والملاحظة الثانية هي ما جاء في اللسان من قوله: إن الأوس والخزرج قبيلتان من اليمن. وهو محط رحالنا في الحديث عن نسب الأوس والخزرج.

وقد اعتاد النسابون أن يقسموا العرب الى: عرب بائدة كعاد وثمود وطسم وجديس والعماليق (سكان يثرب الأوائل) وجُرْهُمْ (سكان مكة الأوائل)، وقد باد بعضهم بالمحن والعقوبات السّماوية المختلفة، التي أخبر القرآن عن بعضها كعاد وثمود. وباد البعض الآخر بذوبانه في غيره من الوافدين والمهاجرين كجرهم والعماليق. وعرب عاربة أو متعربة، وهم القحطانيون باليمن. والعرب المستعربة وهم أبناء إسماعيل أو العدنانيون.

وحول هذا التقسيم خلاف كبير ونقاشٌ طويل، لا يمكن حصره ولا الإحاطة بجوانبه في مثل هذا البحث. أما القرآن الكريم فقد ورد فيه ما يدل على أن العرب الباقية كانوا ينظرون إلى أنفسهم أنهم ينحدرون من جد أعلى واحد هو إبراهيم عليه السلام (وجاهِدوا في الله حقَّ جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج، ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين).

وإذا كان الأمر كذلك كانت عروبة ولد إسماعيل مستمدة من عروبة العرب البائدة (جرهم)، ثم تفرق العرب من ذريته بعد ذلك إلى شعبتين: قحطانية وعدنانية، خضعت كل منهما إلى عوامل مختلفة، طبعتها بطابع خاص امتد إلى

كثير من جوانب حياتها، حتى تباعدت لغة الفرعين تباعداً ملموساً جعل المثل العربي يقول: من دخل ظفار حمّر.

وجعل بعضهم كأبي عمرو بن العلاء يقول عن عربية اليمن إنها ليست بعربيتنا، لكن ذلك الاختلاف لم يتعمق ويتكرس بحيث ينعدم التفاهم بين الطرفين، فكان من السهل عودة أحد الطرفين إلى لغة الآخر، وهذا ما حصل بالنسبة للقحطانيين المهاجرين إلى بلاد العدنانيين، كالأوس والخزرج والغساسنة واللخميين وكندة وخزاعة وغيرهم، بالاضافة إلى أن اللغة الغالبة ـ فيما يبدو ـ كانت هي العدنانية.

ويعلن[1] الشاعر الخزرجي المنذر بن حرام جد حسان بن ثابت تأكيده للنسب الإسماعيلي، أي أن القحطانيين والعدنانيين يرجعون إلى جد واحد هو إسماعيل عليه السلام، فيقول:

ورثنا من البهلول عمرو بن عامر وحارثة الغطريف مجداً مؤثَّلا
مآثرُ من آل ابن نبْت بن مالك ونبت بن إسماعيل ما إن تحوَّلا

وكذا روي عن الرسول ﷺ أنه قال للأوس والخزرج ذات يوم: «ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً».

فالأوس والخزرج على هذا النحو إسماعيليون من ذرية قحطان، فهما في الأصل أخَوان من أب واحد، هو حارثة بن ثعلبة[2] العنقاء (لطول عنقه) بن عمرو مَزيقياء (لأنه كان يمزق عنه كل يوم حلة لئلا يلبسها أحد بعده) بن عامر ماء السماء (لسماحته وبذله، كأنه ناب مناب المطر، وقيل لشرفه) ابن حارثة الغطريف

---

(١) الوفاء ١: ١٧٣.

(٢) الكامل لابن الأثير ١: ٤٠٠، وفي الوفاء ١: ١٧٣ مع اختلاف قليل والأسد لغة في الأزد. والعقد الفريد ٣: ٢٩٢، والمختصر في تاريخ البشر للملك المؤيد ١: ١٠١

(لشجاعته) بن امرىء القيس البطريق (لأنه أول من استعان به بنو إسرائيل من العرب بعد بلقيس، فبطْرقه رحبعم بن سليمان بن داود عليهما السلام، وأصح منه أنه تسمية رومانية) بن ثعلبة بن مازن بن الأسد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد ابن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وقد نقل عن ابن عباس أن الرسول ﷺ يقول[1]: إذا وصل النسب إلى عدنان: من هنا كذب النسّابون. وقالوا: إن الإمام مالكاً رضي الله عنه سئل عن الرجل يرفع نسبه إلى آدم فكره ذلك وقال: من أين يعلم ذلك؟ فقيل له: فإلى إسماعيل؟ فأنكر ذلك أيضاً وقال: من يخبر به؟ ويقول ابن خلدون: إن كثيراً من علماء السلف ذهبوا هذا المذهب، وقال حسان بن ثابت ذاكراً بعض أجداده ممن هم دون قحطان[2]:

فإن تك عنا معشر الأَسْد سائلاً	فنحن بنو الغوث بن زيد بن مالك
لزيد بن كهلان الذي نال عزُّه	قديما دراريَّ النجوم الشوابك
إذا القوم عدُّوا مجدهم وفعالهم	وأيامهم عند الْتقاء المناسك
وجدت لنا فضلا يُقر لنا به	إذا ما فخرنا كلُّ باق وهالك

وسواء كان نسب القحطانيين الذي يتصل به نسب الأوس والخزرج ينتهي بإسماعيل الذي ينتسب إليه العدنانيون، أم كان نسباً مستقلاً كما هو الشائع عند أكثر النسابين القدامى، فإن الذي لا شك فيه أن العرب الجنوبيين القحطانيين بصفة عامة كانوا أكثر تقدماً وتحضراً، فقد قامت لهم دول كثيرة في بلادهم، ولهذا نجدهم بعد هجرتهم إلى المناطق الشمالية من الجزيرة (بلاد العدنانيين) يستولون فيها على مقاليد الحكم، كالغساسنة واللخميين وكندة. والذي لا شك فيه أيضاً أن التفاخر بين العدنانيين واليمانيين كان قائماً على أشده، وكان في الوقت نفسه قائماً

---

(١) العصبية القبلية ١٧.

(٢) الديوان ص ١٧٤.

بين فروع الجذمين المذكورين بالضراوة نفسها، مما يفقده القدرة على إعطاء أية دلالة مفيدة في تحديد العلاقة النسبية.

وإذا كان أقوام قد شكوا حتى في القدر الذي حددناه من الأنساب العربية بقحطان وعدنان فإن عالماً مستشرقاً مثل دوزي يؤمن به ويؤيده، وكذلك فعل جورجي زيدان من المؤرخين في العصر الحديث.

وإذا كان الأوس والخزرج كما عرفنا في نسبهم من العرب القحطانيين ومن أهل اليمن، فما قصة انتقالهم منها ونزولهم يثرب؟ ذلك ما سنجيب عنه في الفقرة التالية.

ب - نزولهم يثرب

يرى المستشرق الشهير[1] عبدالله فلبي أن الأقسام الجنوبية من جزيرة العرب هي الموطن الأصلي للساميين عموماً، ففيها ترعرعت الشعوب السامية جميعها، وكانت تلك الأراضي غاية في الخصب وتوافر المياه، حتى أن بعضهم يشبه الجزيرة العربية في تلك العصور بأوروبا في العصر الحاضر، ولما ابتدأت فيها عصور الجفاف اضطرت تلك الشعوب إلى الهجرة في موجات متعاقبة إلى المناطق التي استقرت فيها، ومن هنا شبه بعضهم الجزيرة العربية في تلك العهود بخزان بشري، يفيض بين الفينة والأخرى بما فيه فيسيل ماؤه إلى أطرافه. وكثير من الباحثين يكاد يجزم بأن هذه الهجرات كانت تتخذ خط سيرها من الجنوب إلى الشمال.

فاليمن في رأي فلبي وجماعة آخرين من المستشرقين هي مهد العرب ومهد الساميين[2]. وبالنسبة للعرب نستطيع أن نسميها (مصنع العرب) وذلك لأنها

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ١: ٢٢٢.

(٢) المرجع السابق ١: ٢٣٢.

أمدت الجزيرة العربية بعدد كبير من القبائل. والذي يهمنا بالطبع هو الهجرات العربية القحطانية من اليمن إلى شمال الجزيرة ووسطها كيف تمت؟ وما أسبابها؟ وكيف نزل الأوس والخزرج ـ وهم أصلاً من اليمن ـ يثرب؟

مرت اليمن أو البلاد السعيدة كما كان يسميها المؤرخون القدماء من عرب وغيرهم، بمرحلة حضارية عالية، بدأت منذ شاء الله لها أن تبدأ، وقامت فيها دول كان لها شأن في الداخل والخارج وتركت آثاراً تدل عليها، ولكنها في العصر[1] الجاهلي الأخير تعرضت للانحطاط ثم الانقراض، لعوامل اقتصادية، كتضاؤل تجارة القوافل البرية والجفاف الذي أشرنا إليه سابقاً، بالإضافة إلى بعض العوامل السياسية من الداخل أو من الخارج؛ فهاجرت قبائل كثيرة منها انتشرت في بقاع مختلفة في الجزيرة، وقد كان العرب عموماً يعرفون لتلك البلاد ماضيها الحضاري الشامخ، ولذا اتخذ القرآن منها سبيلاً للموعظة والتذكير فقال تعالى: ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية: جنتان عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم، واشكروا له، بلدة طيبة ورب غفور﴾[2].

وممن أيد حدوث هذه الهجرات المستشرق[3] كيتاني والمستشرق بلاشير، وبهذا عللا الطابع اليماني الذي تركته تلك الهجرات على بعض الأعلام السورية، وعللا به وجود فروع عديدة لبعض القبائل اليمانية في مناطق مختلفة من الجزيرة، مثل قبيلة كندة وقبيلة الأزد التي منها الأوس والخزرج.

فبعد التغيرات الاقتصادية والسياسية التي منيت بها الدولة اليمنية تفككت الدول التي كانت قائمة بها وسقطت، وكثرت الفتن والحروب الأهلية، وتوالت غارات القبائل على بعضها، لعدم وجود قوات نظامية وحكومة ترد اعتداءات

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي ص ١٢.
(٢) سورة سبأ آية (١٥)
(٣) العصبية القبلية ص ٢٢.

الأعراب، وتفشت بعد ذلك الجهالات وتناقصت العلوم، حتى عجزوا عن صيانة السدود العظيمة التي بناها أسلافهم فانهارت الواحد بعد الآخر، وفقدوا بذلك حياتهم الزراعية المستقرة وجنائنهم الغناء التي تحدث عنها القاصي والداني، وكانت أعظم كارثة هي انهيار سد مأرب الذي كان أضخم سدود اليمن جميعاً. . كانت تقف من ورائه مياه هادرة للسقي والزراعة، فلما تآكل وتساقط انفلتت تلك المياه العارمة كالمارد الجبار، تكتسح كل شيء أمامها من بشر وحيوان ونبات، ولهذا أسموه سيل العرم. وتفرقت القبائل القحطانية من جرائه أيدي سبأ كما يقول المثل. فقد ارتحل عمرو[1] بن عامر في ولده وأحفاده. وقالت بقية الأزد: لا نختلف عنه، فباعوا أموالهم وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد عـك يرتادون البلدان، فحاربتهم عـك ولم تقبل نزولهم ببلادها، فارتحلوا عنها وتفرقوا بعدها في البلدان. فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام، فملوك الشام منهم ونزلت خزاعة مَرّ الظهران، وهو من أحواز مكة، ولذا قال حسان بن ثابت[2]:

ولما هبطنا بطن مَرٍّ تخزّعتْ خزاعةُ عنا في حلول كراكـر

ونزلت أزد[3] السَّراة: السراة، ونزلت أزد عُمان: عُمان، ومنهم آل الجلندى ملوك عمان، ونزلت الأوس والخزرج يثرب[4]، وكان اليهود قد سبقوهم إليها وسكنوا فيها بجوار أهلها الأصليين من العرب، وأهم قبائلهم: النضير، وقريظة، وبنو قينقاع، وكانوا في بحبوحة من العيش وعلى قدر كبير من المنعة الحربية، ولكن إحساسهم بأنهم طارئون دخلاء، قد وفدوا إلى يثرب من أورشليم في ظروف مختلفة- حال بينهم وبين القدرة على منع الأوس والخزرج من مجاورتهم، فاكتفوا ببسط نفوذهم الاقتصادي والاجتماعي، وقبل المهاجرون

---

(١) سيرة ابن هشام تحقيق السقا وزملائه ١: ٣ والمفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٤٣٤ وما بعده.
(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٤: ٤٣٩. وكراكر: جمع كُركور، وهو الوادي البعيد القعر.
(٣) وكانت العرب تلقب الأزد وعبد القيس: الكَرشان كما ذكر ابن السكّيت في إصلاح المنطق ص ٤٠٥.
(٤) الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار ص ٥ مقدمة.

ذلك على مضض، ولما ثبتت أقدامهم وتمكنوا في الأرض رفضوا صلف اليهود وكبرياءهم،وأنفوا من المذلة،وراموا التخلص من تلك الحال المهينة[1] وبخاصة بعد ما أحسوه من تعمد الفطْيون ـ أمير اليهود ـ إهانتهم والنيل من كرامتهم. فاستعانوا عليهم بأبناء عمومتهم ملوك الشام من آل جفنة، وبذلك كسروا شوكة اليهود وعاشوا أسياداً في بلادهم، فلجأ اليهود إلى وسيلة جديدة هي الدس والخديعة، ففرقوا بين أبناء العمومة، وأفسدوا ما بين القبيلتين، وزرعوا الشر بينهما وأججوا نار القتال، ابتداء من حرب سُمير حتى حرب بُعاث قبل ظهور الدعوة الاسلامية بقليل، وكان من مكرهم أنهم قسموا أنفسهم حلفاء للفريقين، تمكيناً للبغضاء والحرب، وإذكاء لنار العداوة بين القبيلتين، وبقيت الأمور تسير على تلك الحال حتى تدارك الله العرب بلطفه حين بعث محمداً ﷺ بنور الاسلام.

***

(١) الكامل لابن الأثير ١: ٤٠٢. والوفاء ١: ١٧٧.

الفصل الثاني
يثرب ومنازل الأوس والخزرج فيها

يثرب

كانت ليثرب مكانة مهمةِ عند[1] ظهور الاسلام، وهي من المواضع التي يرجع تاريخها الى ما قبل الميلاد، وقد ذكرت في كثير من الكتابات القديمة مثل الكتابات المعينية ، وأقدم الكتابات جميعاً التي أشارت اليها هو نص الملك (نبونيد) ملك بابل الذي سكن (تيماء)[2] حقبة من الزمن، وقد جاء في النص المشار اليه أن نبونيد وصل إليها.

ووردت أيضاً في جغرافية بطليموس باسم (يثربة) وعند اصطفيان البيزنطي باسم (مدينة يثرب) ثم اختصرت فقيل لها (مدينتا) أي (المدينة).

وإطلاق اسم يثرب على المدينة فيه كراهية معروفة للعلماء سأشير اليها بعد قليل، كما فيه خلاف بين المؤرخين، فبينما يراه ابن عباس رضي الله عنه اسماً للمدينة نفسها، نجد أبا عبيدة يؤكد أنه اسم للناحية التي منها مدينة رسول الله ﷺ، أي أن لفظ يثرب أعم من لفظ المدينة، ويذكر العلامة السمهودي[3] أن محمد بن الحسن بن زبالة يقطع بأن يثرب أو أثرب اسم لموضع مخصوص من أرض المدينة لأنه كان ينتشر فوق أرض المدينة عديد من القرى العامرة المأهولة، غير

---

(١) المفصل ٤ : ١٢٨.

(٢) المرجع السابق ص ١٣٠.

(٣) وفاء الوفاء ١ : ٨ ـ ١٠ وأخبار المدينة. المعروف بالدرة الثمينة للحافظ محمد بن محمود بن النجار ص ١٢ تحقيق صالح محمد جمال.

أن يثرب هي أم قراها جميعاً.

وسميت المدينة المنورة، مدينة، من قولهم مدن بالمكان: إذا أقام، أو من، دان، إذا أطاع، والميم على هذا التفسير زائدة، لأن السلطان يسكن المدن، فتقام له طاعة فيها، أو لأن الله تعالى يطاع فيها، غير أن هذه التسمية إسلامية فالاسم الذي كانت معروفة به قبل هجرة الرسول ﷺ إليها إنما هو يثرب، وهي مكان مخصوص منها كما أوضحنا وأطلق عليها من باب إطلاق الجزء على الكل، وهو الاسم الذي تعوّد أن يطلقه عليها بعض المؤرخين وكثير من الشعراء، خصوصاً عندما تتحكم فيهم القوافي. أما العلماء فقد كرهوا تسمية المدينة به، لنهيه ﷺ عن ذلك، فقد روى أحمد وأبو يعلى حديثاً رجاله ثقات: «من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله، وهي طابة» لما في كلمة يثرب من معنى الثَّرَب، وهو الفساد، والتثريب: وهو المؤاخذة بالذنب (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم). وأما ما ورد في القرآن من تسميتها به في قوله تعالى: (وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا) متحدثاً عن بني حارثة (بطن ضخم من الأوس) فليس هو إقراراً منه بهذا الاسم، بل هو حكاية عن قول المنافقين. ونحن اذا استعملنا هذه التسمية في غضون بحثنا فليس لتجرؤ على مخالفة ما نهي عنه، نعوذ بالله من ذلك ونتوب اليه، وإنما هو من باب المطابقة الكلامية لمقتضى الحال، لأننا نبحث فترة جاهلية تعارفت على هذا الاسم ودرجت عليه.

وسنكون ملزمين باستعمال لفظ المدينة المنورة في بحوثنا الاسلامية حول هذا البلد المقدس في ظروف قادمة إن شاء الله، وتحققت الآمال.

ونقل[1] ياقوت الحموي عن أبي القاسم الزجاجي أن من أسماء المدينة يثرب، وقال: إنها سميت بذلك، لأن أول من سكنها هو يثرب بن قانية بن مهلائيل

---

(١) معجم البلدان ٥: ٤٣. وعمدة الأخبار ص ٣٣. والأعقار: جمع عُقر، وهو مؤخر الحوض أو مقام الشارب منه. والازاء: مقدّم الحوض. ونزوع: البئر القريبة الماء.

ابن إرم بن عبيل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، كما ذكر أن الرسول ﷺ كره تسميتها بذلك وسماها طيبة وطابة. والى يثرب كانت تنسب السهام اليثربية، قال كثيِّر:

وماء كان اليثربية أنصَلَتْ ... بأعقاره دفع الازاء نَزُوع

هذا وقد عرف للمدينة أسماء كثيرة في العصر الاسلامي ذكرها السمهودي في وفاء الوفاء فبلغت العشرات.

ويثرب هذه التي هي جزء من المدينة يشير بعضهم الى أنها[1] واقعة في الجزء الشمالي من المدينة ابتداء من شمال جبل سلع الى منتهى زغابة ومنطقة العيون، على أن البعض يحدها جنوبا بزبالة، وزبالة هي المنطقة التي تقع فيها بئر رومة وبستان الأزهري، ويقع شرقيها المجرى القديم لوادي مهزور، وعلى غربها مجرى وادي العقيق.

وحددها ابن[2] النجار بأنها الجزء الواقع ما بين طرف قناة إلى طرف الجرف، وما بين المال الذي يقال له البرناوي الى زبالة.

أما[3] المدينة نفسها فقد جعل لها الرسول ﷺ حرماً محدوداً جنوباً بجبل عَيْر (مرادف للحمار) وبعضهم يسميه عاير، وهو جبل كبير مشهور بقرب ذي الحليفة ميقات المدينة وشمالاً بجبل ثَوْر (فحل البقر)، وهو جبل صغير مدوّر شمالي أُحد وهو الى الحمرة أقرب، على شمال المتجه إلى العاقول من الطريق المسفلت اليوم بين المدينة والمطار إذا ما وصل عند المكان المعروف بمقعد بني مطير وقيل: هو الجبيل الذي شقه الطريق المسفلت إلى المطار، والمعروف الآن بمقعد بني مطير.

---

(١) المدينة بين الماضي والحاضر للشريف إبراهيم العياشي ص ٢٤ .

(٢) أخبار المدينة ص ١٢.

(٣) الوفاء ١: ٩٢.

والذي أوردناه الى الآن يوحي بأن أول من نزلها هو يثرب، وهو من بني عبيل إخوة عاد، ثم سكنها بعدهم العماليق، وهم بنو عملاق بن أرفخشد بن سام بن نوح، ومنهم بنو هفان وبنو مطرويل، وكان لهم ملك عظيم يدعى الأرقم بن أبي الأرقم، عرف بالقوة وشدة البطش والسلطان. ويرى بعض الباحثين[1] أن كلمة عماليق مؤلفة من مقطعين هما: (عم) بمعنى شعب أو أمة في اللسان العبراني، و(ماليق) وهو اسم قبيلة عربية كانت مواطنها الأولى بجهات العقبة وشماليها على وجه الخصوص، ورد اسمها في كتابات البابليين، ونطق العرب الاسم بعد ذلك بطريقتين: عماليق وعمالقة. وقد كان العمالقة قوماً طوال الأجسام طوال الأعمار، يبلغ عمر الواحد منهم مئات السنين، وهو أمر قد لا يؤمن به أولئك الذين يفصلون بين التاريخ والنبوات، ولا يستطيعون أن يتصوروا إنساناً يعيش مثل هذا العمر أو حتى قريباً منه مهما كانت الظروف والأحوال. أما أنا فإنه لا شيء يمنعني من تصديقه بعد أن أقرأ قوله تعالى عن نوح عليه السلام وقومه: (فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً)، وأقول: كذب المؤرخون وصدق الله ورسوله، ولا يهمني بعد ذلك ما عسى أن يصفني به البعض من الغفلة والمسارعة إلى التصديق.

وأجلى هؤلاء العماليقُ بني عبيل عن المدينة فقصدوا أرض الجحفة، فجاءهم سيل أجحفهم فيها، فهي لهذا سميت جحفة، ورثاهم رجل منهم فقال: [2]

عينُ جودي على عبيلَ وهل يرجع من فات بيضها بالسِّحام
عمروا يثربا وليس بها شفْـرٌ ولا صارخٌ ولا ذو سنام
غرسوا لِينَها بمجرى مَعينٍ ثم حفُّوا النخيل بالآجام

---

(١) العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان ص ٥١.

(٢) معجم ما استعجم للبكري ٢: ٣٦٨ والوفاء ١: ١٥٦ والسّحام: شجر. وشفر: أحد. والآجام: الأطام.

ويرى العياشي[1] أن العماليق كانوا أسبق إلى المدينة من بني عبيل، وعليهم نزل اليهود كما سنشير إلى ذلك عند الحديث عن يهود المدينة إن شاء الله. وكان العماليق فيما يبدو طبقتين: طبقة سابقة هي التي عناها العياشي، ومنها الملوك الطغاة[2] الذين منهم الأرقم بن أبي الأرقم، وطبقة لاحقة لها صلة بنسب الأولى، ومنها قبيلتا صعْل وفالج، وهي التي أجْلت بني عبيل عن المدينة، وبهذا يمكن نظرياً الجمع بين الروايات المختلفة في هذا الباب، وإن كان الأمر من وجهة النظر العلمية لا يزال محتاجاً إلى التدعيم بالوثائق والإثبات بالأدلة المقنعة، وذلك ما لا سبيل إليه في تقديرنا في ضوء المعلومات المتوفرة الآن.

ولقائل أن يقول: ما علاقة ما ذكرت في هذا الفصل والذي قبله بعنوان البحث؟ وما أهميته؟ ولا يعدم أي متأمل الإجابة عن هذا السؤال لأن الحديث عن الأنساب في الفصل السابق ذو علاقة وثيقة بالحروب التي كان نتاجها هذا الشعر الذي نريد دراسته والتعرض له. وما ذكرناه هنا من تحديد موقع (يثرب) وبيان أول من نزل بها يعيّن لنا مسرح الأحداث التي جرت في تلك الحروب، من كرّ وفرّ ومنازلة ومصاولة، وهو بهذا يحدد مكان البحث، كما أن الحديث عن أول من نزلها ومن تلاهم بعد ذلك، يسهم في إلقاء الضوء على مكونات سكان مكان البحث، وذلك ربما ساعد على تفسير بعض الظواهر التي قد تعترضنا عند تناولنا لصلب الموضوع، إذ أنه حتى على افتراض انقراض العماليق وبني عبيل ـ مثلاً ـ وانتهائهم من المدينة بالكلية فليس من المعقول أن تمحي آثار وجودهم بسهولة، بل العكس هو المعقول تماماً، فلا بد من بقاء بعض بصمات حياتهم وعيشهم فوق هذه الأرض، حملها من خلفوهم عليها من اليهود أو الأوس والخزرج. وذلك يظهر أهمية إيراد هذه المقدمات والفصول التي قد تبدو ولأول وهلة جانبية صرفة أو

---

(١) المدينة بين الماضي والحاضر ص ٢١.

(٢) معجم البلدان ٥: ٤٤٢.

ضعيفة الصلة بموضوع البحث. وهذا الأمر نفسه ينطبق على بعض الفصول التالية.

منازل الأوس والخزرج فيها

تعاقب على سكنى المدينة كما رأينا العمالقة وبنو عبيل واليهود، ثم قدم الأوس والخزرج من اليمن ونزلوا فيها مع اليهود أو عليهم، فلم يحسن اليهود جوارهم، ولم يختلطوا بهم إلا في حدود ضيقة وبدافع الاستغلال، رغم أن الأوس والخزرج اتخذوا منازلهم في عالية المدينة وسافلتها حسب الفروع والأفخاذ، ورغم تنازلهم لليهود عن كثير من الحقوق لأنهم كانوا أول الأمر في تخوف منهم، لما لليهود من وفرة في العدد والعدة وامتلاك للثروة والحصون، ولهذا نراهم عندما[1] أحسوا بشيء من القدرة والقوة يبادرون إلى مطالبة اليهود بتوقيع معاهدة حلف وحسن جوار، تضمن للجانبين الحقوق وتحدد المسؤوليات، ويكونون بها قوة على من سواهم، ونشأ عن هذا الموقف الجديد شيء من التكافؤ ضمن للعرب كثيراً من حقوقهم الضائعة، وصحبه أيضاً كثير من الرخاء والازدهار الاقتصادي بالمدينة في الزراعة والتجارة وغيرهما.

ونما الحيان من الأوس والخزرج وتكاثرت أعدادهم وأموالهم، بعد أن كانوا في قلة في الأنفس وضيق في اليد. فلم يكن للخزرج غير خمسة أولاد هم:[2] عمرو وعوف وجشم والحارث وكعب، أما أخوه الأوس بن حارثة فقد عاش دهراً طويلاً وليس له وُلد إلا مالك، ولما حضرته الوفاة اجتمع اليه قومه وقالوا؛ قد كنا نأمرك بالتزوج في شبابك فلم تتزوج حتى حضرك الموت، فقال الأوس: لم يهلك هالك ترك مثل مالك، وإن كان الخزرج ذا عدد، وليس لمالك ولد، فلعل الذي استخرج[3] العَذْق من الجريمة[4]، والنار من الوثيمة[5]، أن يجعل لمالك نَسْلاً،

---

(١) الوفاء ١: ١٧٧.

(٢) الأمالي لأبي علي القالي ١: ١٠٢.

(٣) العَذق: النخلة نفسها بلغة أهل الحجاز، والعذق بالكسر الكباسة.

(٤) الجريمة: النواة.

(٥) الوثيمة: هي الموثومة المربوطة، يريد به قدح حوافر الخيل النار من الحجارة، والعرب تقسم بهذا الكلام، فتقول: لا والذي أخرج العذق من الجريمة، والنار من الوثيمة، لا فعلت كذا.

ورجالاً بُسْلاً. «يا مالك.. المنيةَ ولا الدنية، والعتابَ قبل العقاب، والتجلّد لا التبلّد، واعلم أن القبر خير من الفقر، وشرَّ شاربٍ المُشْتَفّ[1]، وأقبحَ طاعمٍ المُقْتَفّ[2]، وذهاب البصر، خيرٌ من كثير من النظر، ومن كرم الكريم الدفاع عن الحريم، ومن قلّ ذل، ومن أمر فلّ[3]، وخير الغنى القناعة، وشر الفقر الضراعة، والدهر يومان، فيوم لك ويوم عليك، فاذا كان لك فلا تبطر، واذا كان عليك فاصبر، فكلاهما سينحسر، وإنما تَعُزُّ[4] من ترى، ويعزُّك من لا ترى، ولو كان الموت يُشترى لسلم منه أهل الدنيا، لكن الناس فيه مستوون، الشريف الأبلج، واللئيم المعَلْهَجْ[5]، والموت المقيت، خير من أن يقال لك: هَبيت[6]، وكيف بالسلامة، لمن ليست له إقامة، وشرٌّ من المصيبة سوء الخَلَف، وكل مجموع الى تلف، حيّاك إلهك». ثم مات، فنشر الله من ابنه مالك بعدد بني الخزرج أو نحوهم، ولكن مع ذلك بقي اسم الخزرج يطلق على الحيين معاً، [7] فنرى قريشاً ـ مثلاً ـ تقبل على الأوس والخزرج الذين بايعوا الرسول ﷺ في العقبة بمنى يقولون لهم: يا معشر الخزرج.. إنا قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا، تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حيّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم.. الخ. وقال لهم العباس حين [8]

---

(١) المشتفّ: المستقصي، يقال: استشف ما في إنائه، واشتف: إذا شرب الشفافة، وهي البقية تبقى في الإناء.

(٢) المقتف: الآخذ بعجلة، ومنه سمي القفّاف (أي الصيرفي) لأنه يقفّ الدراهم، أي يسرقها بين أصابعه.

(٣) أمر: كثر عدده، يقال: أمِر القوم يَأمَرُون إذا كثر عددهم، قال لبيد:

نعلوهمُ كلما يَنْمِيَ لهم سلَفٌ   بالمَشْرفيِّ، ولولا ذاك قد أمِروا

وفلّ: هزم غيره.

(٤) تعُز: تغلب. ومنه قوله تعالى: ﴿وعزّني في الخطاب﴾.

(٥) المعلهج: الأحمق الدعي.

(٦) الهبيت: الجبان الذاهب العقل.

(٧) الطبري ٢: ٣٦٥.

(٨) الطبري ٢: ٣٦٢، المختصر في تاريخ البشر ١: ١٢٢.

أراد أن يتوثق منهم لابن أخيه رغم بقائه على الشرك آنذاك: يا معشر الخزرج. . إن محمداً منا حيث علمتم، وقد منعناه من قومنا. . الخ.

ويقول عبد العزى بن وديعة المزني:

إني حلفت يمينَ صدق بَرَّةٍ   بمناة عند محل آل الخزرج[1]

فقد قصد أيضا بآل الخزرج الحيين معاً.

ومن ذلك شعر ابن الزبعرى في يوم أحد:

ليت أشياخي ببدر شهدوا   جزَع الخزرج من وقع الأسَلْ

فسل المهراس: من ساكنه؟   بعد أبدان وهام كالحَجَل[2]

ويبدو أن هذه الغلبة في الاسم تابعة للغلبة في أعداد الخزرج وفروعهم من جهة، والى غلبهم الحربي من جهة أخرى، ذلك الغلب الذي اضطر بعض عشائر الأوس الى الهجرة، ودفع بالبعض الآخر الى طلب الحلف في قريش تارة، وفي اليهود من بني قريظة والنضير تارة أخرى، ولم يسترجعوا هيبتهم ومكانتهم إلا في يوم بعاث.

ونعود لبيان منازل الحيين بعد انتصارهم على اليهود بقيادة مالك بن العجلان ومساعدة أبي جبيلة الغساني، وقد كانت على النحو التالي:

آ: منازل الأوس[3]

١- بنو أمية بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس: وكانت منازلهم

---

(١) الأصنام ص ١٤.

(٢) معجم ما استعجم ٤: ١٢٧٤ والحَجَل: مفرده حَجَلة، وهي القبة تزيّن بالثياب والستور.

(٣) الوفاء ١: ١٣٤ - ١٥٢.

في عوالي المدينة، ولهم أطم يسمى العذق، ومن آثارهم الاسلامية مسجد معروف باسمهم.

٢ - **بنوجَحْجَبَى**: هوجحجبى بن كلفة بن عوف بن عمرو بن عوف. كانوا أول أمرهم يسكنون قباء مع بني عمومتهم بني عمرو بن عوف، ولكنهم لم يعطوا الجوار حقه، وقتلوا رجلين منهم، فأخرجوهم من ديارهم، فسكنوا العصبة.

٣ - **بنو حارثة** بن الحارث بن الخزرج الأصغر بن عمرو بن مالك بن الأوس ابن حارثة، نزلوا دار بني عبد الأشهل شمالي منازل بني ظفر على ما رجحه السمهودي، الى الحرة المعروفة باسم حرة دشم وما حولها شرقي المدينة، وكان لهم أطم يسمى المسيَّر، ثم قامت حرب بينهم وبين بني عبد الأشهل، وقف فيها ضدهم أيضاً بنو ظفر وانضموا الى بني عبد الأشهل، ولكن بني حارثة استطاعوا أن يهزموهم وقتل مسعود أبو محيصة الحارثي: سماك بن رافع وكان رجلاً باغياً، يتطاول في صلف وكبرياء، فيقول: لو شئت لم يبق بيثرب بيت الا أدخلته رجلا، فأنف من ذلك مسعود وقتله، فاستعان بنو عبد الاشهل ببني سُليم، وهم قوم من غير الأوس والخزرج، ومن غير سكان يثرب، وحاصروا بني حارثة في أطمهم (المسيّر) فلم ترض بذلك بنو عمرو بن عوف وبنو خطمة من الأوس وقالوا لهم: إما أن تخلوا سبيلهم وإما أن تأخذوا عقل صاحبكم، وإما أن تصالحوهم، فاختاروا أن يجلوهم، فخرج بنو حارثة الى خيبر، ثم جرى الصلح بينهم فرجعوا ولكن الى منازل جديدة.

٤ - **بنو خطمة**: وخطمة هذا هو عبد الله بن جُشم بن مالك بن الاوس، ولهم أطمان، أحدهما كان بالعوالي في بستان الماجشونية المعروفة اليوم بالمدشونية.

٥ - **بنو زيد بن مالك بن عوف**: كانت لهم آطام كثيرة تدعى الصياصي، أحدها بالمسكبة شرقي مسجد قباء.

٦ - **بنو السمِّيعة**: وهم بنو لوذان بن عمرو بن عوف، وكان اسمهم في

الجاهلية بنو الصّماء ولكن الرسول ﷺ سماهم بني السمِّيعة وكانوا بجهة قباء.

٧ - **بنو ظفر**: وهو كعب بن الخزرج الاصغر بن عمرو بن مالك بن الأوس، ودارهم شرقي البقيع عند المسجد المعروف باسم مسجد البغلة،وهوفي الواقع مسجدهم، بجوار بني عبد الأشهل.

٨ - **بنو عبد الأشهل** بن جشم بن الحارث بن الخزرج الأصغر. وقد سبقت الإشارة الى منازلهم في معرض الحديث عن بني حارثة.

٩ - **بنو عطيّة** بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس: نزلوا بَصفْنة - سميت بذلك لارتفاعها عن السيول، فلم تشرب بشيء منها- وكان لهم أطم يسمى شاس، وهو قبلة رحبة مسجد قباء.

١٠ - **بنو عمرو** بن عوف بن مالك بن الأوس: وكانوا نازلين بقباء وابتنوا أطمًا يسمى الشُّنَيْف، وهو الذي عناه كعب بن مالك في قوله:

فلا تتهدَّدْ بالوعيد سفاهةً   وأوعد شُنَيْفا إن عصيتَ وواقما

١١ - **بنو معاوية** بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف: وهم وراء بقيع الغرقد،عند مسجد الإجابة، وهو مسجدهم، ومنهم حاطب بن قيس الذي كانت فيه حرب حاطب.

١٢ - **بنو وائل** بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس: وكانوا نازلين بجوار أبناء عمومتهم بني أمية وبني عطية.

١٣ - **بنو واقف وبنو السَّلَم**: ابنا امرىء القيس بن مالك بن الأوس، وابتنى بنو واقف أطماً اسمه الزيدان. قال قيس بن رفاعة:

وكيف أرجو لذيذالعيش بعدهمُ   وبعد من قد مضى من أهل زيدان

وكانت منازلهم عموماً بجوار مسجد الفضيخ المعروف الآن.

ب ـ منازل الخزرج

١ ـ بنو الحارث بن الخزرج الأكبر بن حارثة : ويسمون أيضاً بلْحارث، نزلوا بالعوالي شرقي وادي بُطحان، وتربة صُعَيْب.

٢ ـ بنو جُشم، وبنو زيد: ابنا الحارث بن الخزرج الأكبر:

خرجا من منازل قومهم الى السُّنْح بالعوالي. على ميل من مسجد الرسول ﷺ وابتنوا به أطماً سموه السُّنح، وبه سميت المنطقة.

٣ ـ بنو عتبة : وهو عتبة بن عمر بن خديج بن عامر بن جشم بن الحارث بن الخزرج الاكبر، وخرجوا الى الشَّوْط (جهة ملعب التعليم الآن او ما يسمّى بحارة النصر) ثم رجعوا الى السُّنْح.

٤ ـ بنو خُدْرَة بن عوف بن الحارث بن الخزرج الأكبر، وابتنوا أطماً يسمى الأجرد، به بئر تسمى (بئر البُصَّة) ومنهم الصحابي الجليل أبو سعيد الخُدْري رضي الله عنه.

٥ ـ بنو سالم بن عوف، وبنو غنم بن عوف:

وأبوهم عوف هو ابن عمرو بن عوف بن الخزرج الأكبر، وكانوا جميعاً يسكنون بطرف الحرة الغربية، غربي الوادي الذي به مسجد الجمعة ببطن رانونا، ومنهم مالك بن العجلان السالمي، ومن آطامهم المزدلف والشمَّاخ.

٦ـ بنو الحبلى : وهو مالك بن سالم بن غنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج الأكبر، وكانت منازلهم بين قباء ومنازل بني الحارث بن الخزرج الأكبر التي هي شرقي وادي بطحان وصُعَيب.

٧ ـ بنو سلمة بن سعد بن علي بن أسد بن شارده بن تزيد بن جشم بن الخزرج الأكبر: وتقع منازلهم ما بين مسجد القبلتين الى المذاد. وكانت منازلهم تسمى : خُرْبَى فسمّاها الرسول ﷺ صُلْحة او صالحة.

٨ ـ بنو سواد بن غنم بن كعب بن سلمة:

ومنازلهم كانت بجوار مسجد القبلتين وهو مسجدهم ومن آطامهم الأغلب.

٩ ـ بنو عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة، ومنازلهم عند جبل الدويخل، ومن آطامهم الأشنق، والأطول.

١٠ ـ بنو حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة: وكانوا بين مقبرة بني سلمة الى المذاد، وفي المذاد يقول كعب بن مالك رضي الله عنه:

فليأت مأسدة تسنُّ سيوفَها بين المذاد وبين جزْعِ الخندق

وهذه العشائر الأربع ترجع عند الضرورة الى عشيرة أكبر هي بنو سلمة، وكانت كلمتهم واحدة على من عداهم، ومن مظاهر ذلك الاتفاق أنهم ملّكوا عليهم رجلاً من بني حرام يدعى أَمَّة بن حرام، فمكث فيهم زماناً مطاع الأمر مسموع الكلمة، لا يعارضه أحد منهم، حتى هلك رجل من بني عبيد لم يعقب سوى ولد واحد اسمه صخر، فنظر أَمّة في مال أبيه فاذا هو مال كثير، يزيد عن حاجة الولد وثرائه، وليس بضاره في شيء لو أخذ منه جزءاً يرده على بعض الفقراء، لذلك اعتزم أن ينزع طائفة من تلك الأموال فيقسمها في بني سلمة، فعظم ذلك على صخر، واستنصر بقومه من بني عبيد وبني سواد، وأرغى وأزبد، وقال لئن فعل أَمَّة ذلك لأضربنه بالسيف. وطلب منهم أن يساندوه ويحموه من بني حرام إن هو جزّ رأس أمة بالسيف، دفاعاً عن أمواله التي ورثها من أبيه، فوعدوه بذلك، لكن أمة نفذ ما اعتزم عليه، فأسرع اليه صخر وضربه بالسيف فقطع حبل عاتقه، وقامت دونه بنو عبيد وبنو سواد تحميه وتمنعه، فنذر أمة أن لا يؤويه ظل بيت ما عاش، حتى يقتل بنو سلمة صخراً، أو يأتوه به فيرى فيه رأيه، وجلس أمة عند الضِّرب الذي فوق مسجد الفتح، مما يلي الجرف في الشمس، فمرت به وليدة حطابة فقالت: مالك يا سيدي هنا في الشمس؟ فقال:

إن قومي أجمعوا لي أمرَهُمْ ثم نادوْا ليَ صخراً فضـرَبْ

إنـني آلـيـتُ لا يـسـتُـرنـي سقفُ بيت من قَـرور ولهب
أبــداً مـا دام صخــرٌ آمِنــا بينهم يمشي ولا يخشى العطب

فذهبت الجارية وأخبرتهم، فربطوا صخرا ثم أتوه به، فعفا عنه، وأخذ الذي كان يريد أن يأخذ من أمواله. ولعل هذا نوع من التكافل الاجتماعي أراد ان يطبقه أمّة في قومه، هدته اليه سليقته العربية الصافية، وفِطرتُه التي حنكتها التجارب وصقلتها الأيام، وهو ما تهدف اليه كثير من الأنظمة الاجتماعية الحديثة وتعالجه بمختلف الوسائل والأساليب. ولكن قومه لم يفهموه ولم يستسيغوه إلا بمنطق القوة، وذلك لتمكن الأنا من نفوسهم، وتعوُّدِهم على طابع حياتيّ خاص راسخ فيهم وفيمن حولهم.

١١ ـ بنو بياضة، وبنو زُرَيْق: وهما ابنا عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك ابن غضب بن جُشَم بن الخزرج الأكبر، وكانت منازلهم ممتدة في الحرة الغربية شمالي دار بني سالم بن عوف، وقبلي دار بني مازن، ومن آطامهم: اللواء.

١٢ ـ بنو حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب.

١٣ ـ بنو عذارة، وهم بنو كعب بن مالك بن غضب.

١٤ ـ بنو اللين: وهم بنو عامر بن مالك بن غضب.

١٥ ـ بنو أجدع: وهم بنو معاوية بن مالك بن غضب.

وجميعهم كان نازلاً بدار بني بياضة، ولكنه دبّ خلاف بين بني زريق وبني حبيب، فاضطر بنو زريق للانتقال الى مكان آخر يقع قبلي مسجد المصلى (مسجد الغمامة اليوم) ويمتد الى ذروان وما والاه، كما تعرض جميعهم الى مناقلات كثيرة لأسباب أكثر تعقيداً، ثم تفانوا في يوم الحديقة، ذلك أنه كان بينهم ميراث في الجاهلية، فاشتجروا فيه طويلاً، ولم يصلوا إلى حل يرضي جميع الأطراف، وينتزع الشحناء من قلوب الإخوة وأبناء العمومة عادة الجاهليين، فحكموا السيف

فيما بينهم بطريقة جهنمية انتحارية. إذ تداعوا إلى أن يدخلوا حديقة كانت في بني بياضة، فيقتتلوا فيها، فدخلوا جميعاً ثم أغلقوها، فاقتتلوا حتى لم يبق منهم أحد، فسميت تلك الحديقة (حديقة الموت)وهو بحق نمط فريد من نوعه في القتال ما أظن له مثيلا، إن شئت اعتبرته نموذجاً للحمق وسوء التفكير، وإن شئت عددته ضرباً من النصف والصبر والمجالدة، والسير الى الموت في شموخ وإباء.

وقد عبر أحد رؤ ساء بني بياضة عن هذه المأساة بأبيات مشجية حزينة مبكية فقال: [1]

خلتِ الديار فسدتُّ غير مُسوَّدِ	ومن العَناء تفرُّدي بالسؤدد
أين الذين عهدتهم في غبطة	بين العقيق، الى بقيع الغرقد
كانت لهم أنهابُ كلِّ قبيلةٍ	وسلاحُ كلِّ مدرّبٍ مستنجَد
نفسي الفداء لفتية من عامرٍ	شربوا المنية في مقام أنكد
قوم هم سفكوا دماءَ سَراتهم	بعضاً ببعض، فعْلَ من لم يَرشُد
يا للرجالِ لعثرةٍ من دهرهمْ	تركت منازلَهمْ كأنْ لم تُعْهَدِ

١٦ ـ بنو ساعدة بن كعب بن الخزرج: وهم مجموعة من الخزرج لها فروع عديدة منها:

أ ـ بنو عمرو.

ب ـ بنو ثعلبة: ابنا الخزرج بن ساعدة وكانا ينزلان معاً عند بئر بضاعة، ومن آطامهم مُعرض، وله يقول شاعرهم:

ونحن حمينا عن بضاعة كلِّها	ونحن بنينا مُعْرضا فهو مُشرِف
فأصبح معموراً طويلاً فدىً لهمْ	وتخرُبُ آطامٌ بها وتُصَفْصَف

---

(١) المغانم المطابة ص ٦١.

حـ ـ بنو قشبة عامر بن الخزرج بن ساعدة: وكانوا قرب بني حديلة بين بئر حاء وبئر بضاعة وشرقي بني ضمرة.

د ـ بنو أبي خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة: وهم رهط سعد بن عبادة، ونزلوا المكان المعروف اليوم بدرب السويقة مما يواجه باب السلام بالحرم النبوي الشريف، ويرجح السمهودي أن سقيفة بني ساعدة كانت بها، لا حول بضاعة كما ذكر المطري[1].

هـ ـ: بنو وقش، وبنو عنان: وهما ابنا ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة: وكانت منازلهم بين الحماضة التي كانت مشهورة بين الناس الى عهد قريب بالحماطة، ومكانها في آخر مظلات الحرم النبوي غرباً في التوسعة الجديدة الآن، وبين جرار سعد (بين مستشفى الملك اليوم والداودية).

١٧ ـ بنو مالك بن النجار: وهم على فروع أكثر من فروع بني ساعدة:

آـ بنو غنم بن مالك بن النجار، ومن آطامهم: فويرع.

ب ـ بنو مغالة: وهم بنو عدي بن عمرو بن مالك بن النجار، ومن آطامهم فارع، وله يقول حسان بن ثابت:

أرقت لِتَوْمَاضِ البروق اللوامع ونحن نشاوَى بين سَلْع وفارع

وفارع هذا هو الأطم الذي كانت فيه صفية عمة الرسول ﷺ مع حسان يوم الخندق، وقد دخل في بيت عاتكة الذي دخل بدوره في باب الرحمة الحالي.

(١) المدينة بين الماضي والحاضر ص ٨٦.

حـ ـ بنو حديلة: وهو معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار وهم أصحاب البيرحاء.

د ـ بنو مبذول: واسمه عامر بن مالك بن النجار، وكانوا شرقي الدور التي تلي قبة المسجد النبوي الى بني زريق والى بني غنم.

هـ ـ بنو عدي بن النجار: كانوا غربي المسجد النبوي، ومن آطامهم الزاهرية.

و ـ بنو مازن: وكانوا قبلي بئر البصة.

ز ـ بنو دينار بن النجار: وكانوا خلف بطحان ومن آطامهم: المنيف.

ويذكر المؤرخون أن دور بني النجار كانت عموماً منتشرة بين البيرحاء الى مسجد الإجابة. واسم النجار الحقيقي: تيم الله بن ثعلبة، والنجار لقبه، لأنه ضرب رجلاً فنجره .

تلك هي خلاصة الحديث عن منازل الأوس والخزرج، اقتبست أكثرها من السمهودي ثم من العياشي، لم أقصد منها الى الاستفاضة أو التدقيق، بل هدفت من ذكرها مجملة الى شيء آخر، هو أني حسبتها تسهم في إلقاء الضوء على تحليل نفسياتهم واستعداداتهم، ثم تعين على تصور تحركاتهم الحربية في أيامهم الشهيرة، فمن أول وهلة تستطيع أن تعرف أن منازلهم توحي بشيء من المتافرة وعدم حرية الالتحام والمخالطة وأنها موزعة على أساس الصلة النسبية والعصبية القبلية الضيقة بين فروع الحيين.

مع ملاحظة أن الخزرج عموماً كانوا بالسافلة، والأوس عموماً كانوا بالعالية وإذا كان الأمر كذلك فأين منازل مواليهم من اليهود؟ وما علاقتهم بهم؟ وكيف وصلوا الى يثرب ثم انقرضوا منها؟ ذلك هو موضوع حديثنا في الفصل التالي.

الفصل الثالث

اليهود في يثرب

اقترن اسم اليهود بيثرب في الجاهلية بدرجة لا تقل عن اقترانه بأختيها خيبر وتيماء مع اختلاف يسير هنا، لأن الأوس والخزرج استطاعوا في أغلب الأحيان أن يضعفوا هذه الصلة ويوهنوا وشائجها إلى أن تم قطعها نهائياً، بمقدم الرسول ﷺ وانتصار دينه، وإجلاء اليهود عن المدينة المنورة وتطهيرها من رجسهم بعد ما أظهروا من التآمر ومظاهرةالأعداء،ثمواصل عمر مسيرة التطهير،فتم جلاؤ هم عن الأختين الشقيقتين (خيبر وتيماء) فلا يجتمع دينان في جزيرة العرب، وبهذا رجع الحق إلى نصابه، وعادت الواحات الثلاث إلى مكانها من القلب في كيان الجزيرة العربية ، وتولت واحة يثرب (المدينة المنورة) مركز القيادة الرئيسي، لا في الجزيرة وحدها بل في العالم الإسلامي كله في تلك الأيام، ولم تترك تلك المهمة عن طواعية منها، ولم تسلم الراية على اختيار، بل أجبرت على ذلك إجباراً، منذ نقل معاوية رضي الله عنه قاعدة الخلافة إلى دمشق لمآرب في نفسه ولمشيئة أرادها الله، ولله في خلقه شؤون. ولم يكن جميع يهود يثرب من الاسرائيليين، بل كان بعضهم من العرب الأقحاح، فاليهودية دين لا جنس، وقد اعتنقه غير الاسرائيليين بما فيهم بعض القبائل العربية كما هو معروف في نجران واليمن، أما في يثرب فإننا نجد حيين من قبيلة بلي العربية يهوديين ، وهما بنو أنيف وبنو مريد، كما نجد يهودياً من أعاظم رجال اليهود في يثرب هو كعب بن الأشرف الذي كان من قبيلة طيء، تزوج أبوه من بني النضير فعاش بين أخواله. وكان شاعراً فارساً معقودة له السيادة في أخواله،وكان موقفه من الاسلام في غاية السوء، واستعمل شعره سلاحاً

يحارب به الرسول ﷺ، ويشبب بنسائه ونساء المسلمين، ولذلك أمر الرسول بقتله، فقتله محمد بن مسلمة ورهط معه من الأنصار ومن شعره[1]:

رُبّ خال لي لو أبصرتَه	سبطِ المشية أبّاءٍ أنِفْ
ليِّن الجانب في أقرَبه	وعلى الأعداء سم كالذُّعُف
ولنا بئر رواء عذبة	من يردها بإناء يغترف
ونخيلٌ من تلاع جمة	تُخرج التمرَ كأمثال الأكف

وهؤلاء العرب اليهود، رغم تعاطفهم العقائدي مع إخوانهم في الدين من اليهود غير العرب، لا يمكن أن ينظر إليهم نظرة الغرباء، ومن حقهم أن ينزلوا في أي مكان شاؤوا من أرض الجزيرة العربية الواسعة، إن لم تتصادم مشيئتهم مع مشيئة قبيلة عربية أخرى سبقتهم إلى ذلك المكان. ولكن المستغرب بحق هو وجود هؤلاء الإسرائيليين في يثرب، كبني النضير وبني قريظة وبني قينقاع، فكيف وصل هؤلاء إلى هذه الأرجاء ومكنوا لأنفسهم فيها؟ تختلف الروايات في كيفية وصولهم إلى يثرب:

أ ـ فبعضها ترى أن موسى عليه السلام حج بقومه[2] إلى الكعبة وفي رجوعه تخلف بعض اليهود فسكنوا يثرب، فسكناهم فيها عن طريق المصادفة أو عن طريق الاختيار.

ب ـ بينما نرى روايات أخرى تؤكد أنهم جاؤوا من فلسطين قاصدين سكنى هذه المنطقة، لأن التوراة بشرت بظهور نبي من العُرب يهاجر إلى أرض ذات نخل وماء تقع بين حرتين، وكانت هذه الصفة تنطبق على أربعة أماكن تقريباً مروا بها، هي تيماء وخيبر وفدك (الحائط والحويط اليوم)، ولذلك نزلت في كل مكان منها

(١) معجم الشعراء ص ٢٣١، والذعف: جمع ذعف، وهو السم، أو الموت السريع.
(٢) المدينة بين الماضي والحاضر ص ٢٧ والمختصر في تاريخ البشر ١: ٩٨.

طائفة منهم، وانتهى من بقي من النازحين وهم :هدل، وبني النضير، وبني قريظة إلى يثرب، فوجدوا بني عمومتهم من بني قينقاع قد سبقوهم إلى سكناها بجانب أهلها من العرب، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين.

جـ ـ ورواية أخرى تقول: إن موسى عليه السلام بعث جنوده إلى الجبابرة[١] من أهل القرى يغزونهم، وكان العمالقة الذين يسكنون (يثرب) منهم، وأهم قبائلهم بنو هف وبنو سعيد وبنو الأزرق وبنو مطرويل أو مطروق، وكان ملكهم الأرقم من الجبابرة المعدودين، ويمتد ملكه إلى فدك ويشمل خيبر وتيماء، فأرسل إليهم موسى جيشاً جراراً، وأمرهم أن يقتلوا كل من يظفرون به منهم، وألّا يبقوا أحداً، فقدم الجيش الحجاز وانتصر على العماليق، وقتلوا كل من وقع في أيديهم، إلا ابناً للأرقم كان وسيماً جميلاً، فضنوا به على القتل، وقالوا: نذهب به إلى موسى بن عمران فيرى فيه رأيه، فأقبلوا وهو معهم وقبض الله موسى قبل قدومهم، فقالت لهم بنو اسرائيل: ما صنعتم؟ فقالوا: أظهرنا الله عليهم فقتلناهم، فلم يبق منهم أحد غير غلام كان شاباً جميلاً فنفسنا به على القتل، فقالوا لهم: هذه معصية، قد أُمِرتم ألّا تستبقوا منهم أحداً، والله لا تدخلوا علينا الشام أبداً. فلما مُنعوا ذلك قالوا: ما كان خيراً لنا من منازل القوم الذين قتلناهم بالحجاز، نرجع إليها فنقيم فيها، فرجعوا إلى حاميتهم في المدينة وأقاموا كلهم فيها، وانتشروا في كل نواحيها إلى العالية، واتخذوا بها الآطام والأموال[٢]، وتمكنوا فيها وعظمت قوتهم وتكاثرت أعدادهم.

د ـ ويرى آخرون أن اليهود وصلوا إلى يثرب فراراً من طغيان بختنصّر وما أوقعه فيهم من ذل وقتل وتشريد، وبحثاً عن ملجأ يدركون فيه الأمن والطمأنينة، وقد وجدوا ما أملوه حقاً، فعاشوا في استقرار بعيدين عن هجومات البابليين في

---

(١) الأغاني ٢٢: ٩٨ ثقافة. والعرب قبل الاسلام لجرجي زيدان ص ٢٨٠ ـ ٢٨٢.
(٢) تعني كلمة «مال» في تاريخ المدينة: المزرعة أو البستان من النخل.

أرض ذات أموال وربح وفير، وكان في يثرب إذّاك قوم من جرهم وبقية من العماليق قد اتخذوا النخل والزرع، فأقاموا معهم وخالطوهم، وأخذ العماليق وجرهم يقلون واليهود يكثرون، حتى غلبوهم عليها واستولوا على نخلها وزرعها ومراعيها حتى نزل عليهم الأوس والخزرج، فانزوى الدخلاء وعادوا إلى جحورهم.

ويرى العياشي[1] أن غزو بختنصر لفلسطين وواقعة سيل العرم باليمن كانا متلازمين في الزمن أو قريبين في الوقت. وبهذا استقبلت يثرب في أوقات متقاربة هجرتين: هجرة ثلاث بطون يهودية من الشمال (هدْل وقريظة والنضير) وهجرة يمنية قحطانية من الجنوب تتمثل في الأوس والخزرج. قال صاحب «الشعراء اليهود العرب» في مقدمته: ويغلب على الظن صحة ما قدره دوزي في كتابه «الاسرائيليون في مكة» من أن هناك علاقة بين هجرة هذه البطون واستقرارها في الحجاز وبين ما تقلّب على القبائل العربية البائدة من جرهم وغيرها من أحوال.

هـ ـ وبعض المؤرخين يقول: إنه لمّا تم انتصار الروم على بني اسرائيل بالشام، نكلوا بهم وسبوا نساءهم وأخذوا أموالهم، فخرج بنو هدل وبنو النضير وبنو قريظة هاربين منهم إلى من بالحجاز من يهود سبقوا إليها بأحد الدوافع السابقة كبني قينقـاع وبني محمّم وبني زَعُورا، فبعث ملك الروم في طلبهم فأعجزوه، وضل الروم في الصحراء ومات أكثر جندهم عطشاً في المفاوز الشاسعة، وارتد الآخرون خائبين، واستمر اليهود في سيرهم إلى أن نزلوا أرض المدينة (يثرب) وكان أول نزولهم بالغابة، ثم استوبأوها وكرهوها، وبعثوا خبيراً منهم يرتاد لهم أرضاً صالحة، فخرج حتى أتى العالية[2] فرجع إليهم فقال: قد وجدت لكم بلداً طيباً نزهاً، على حـرة، يصب فيها واديان (بطحان، ومهزور) علـى تلاع عَذبة ومَدَرَة طيبة في متأخّر الحرة، فنزل بنو النضير على بطحان، ونزلت قريظة وهدل على مهزور.

---

(١) المدينة بين الماضي والحاضر ص ٢٦.

(٢) الأغاني ٢٢-٩٩ ثقافة.

والخلاصة أن جميع الروايات السابقة التي تدور حول وصول الاسرائيليين إلى يثرب بصفة خاصة وإلى داخل الحجاز بصفة عامة تؤكد أنهم قوم طارئون معتدون، غصبوا أهل البلاد الحقيقيين حقهم واحتلوا بلادهم، حتى حقت كلمة الله بجلائهم بما أعلنوه من عداء حاقد على الاسلام.

وكانت قريظة والنضير يعرفان من جهة النسب بالكاهنين نسبة إلى جد لهم يسمى الكاهن، ثني تغليباً. قال كعب بن سعد القرظي:

بالكاهنين قررتُمْ فـي دياركمُ   جمًّا ثُواكمْ ومن أجلاكمُ جذُبا

وقال العباس بن مرداس السُّلمي يرد على خَوَّات بن جبير لما هجاهم:

هجوت صريحَ الكاهنيـن وفيكمُ   لهمْ نِعَمٌ كانت مدى الدهر تُرتُبا[1]

وبلغت اليهود عموماً نيّفاً وعشرين قبيلة، كان جمهورها نازلاً بمجتمع السيول مما يلي زغابة، في المكان الذي يسمى أساساً بيثرب، وهو المكان الذي سبق أن حددناه في الفصل الثاني، وذكرنا أن المدينة سميت به.

وأهم هذه القبائل هي:

١ ـ بنو أُنَيْف: سبق أن أشرنا إلى أنهم حيٌّ من بلي، كانوا يسكنون قباء، ولهم آطام عند بئر عذق قال شاعرهم فيها:

ولو نطقت يوماً قبـاء لخبرتْ   بأنّـا نـزلنـا قبـل عـاد وتبـع
وآطـامنـا عـاديـة مشمخـرّة   تلوح فتنكي من نعادي وتمنع

٢ ـ بنو القُصيْص: وكانوا بقباء مع بني أنيف.

٣ ـ بنو قريظة: وكانوا يسكنون الحرة المسماة باسمهم حتى اليوم، ومن أشهر آطامهم بلْحان، وكان لكعب بن أسد وله يقول الشاعر:

---

(١) الترتب: بضم التاءين، وقد تفتح التاء الثانية: الأمر الثابت.

من ســره رُطَب وماء بــاردٌ فلْيأت أهلَ المجدَ من بلْحان

٤ ـ بنو هدل: وكانوا يسكنون مع بني قريظة.

٥ ـ بنو عمرو: وكانوا يسكنون مع بني قريظة.

٦ ـ بنو النضير: وكانوا يسكنون بالنواعم، ومنهم كعب بن الأشرف، وكانت أموالهم تصل إلى الغرْس والصافية، كما يرجح مؤرخ المدينة العلامة السمهودي. ولهم آطام كثيرة.

٧ ـ بنو مريد: ولهم أطم معروف باسمهم.

٨ ـ بنو معاوية.

٩ ـ بنو ماسكة: ولهم أطمان في القف.

١٠ ـ بنو محمّم: وكانت لهم أرض تسمى خنافة مشهورة بكثرة الخيرات.

١١ ـ بنو زعورا.

١٢ ـ بنو زيد اللات.

١٣ ـ بنو قينقاع: وكانوا عند منتهى جسر بطحان مما يلي العالية، ويحدد العياشي نهاية هذا الجسر بالمراكشية والمشرفية المعروفتين اليوم. وفيه كان سوقهم، ومن هؤلاء كان الصحابي الجليل عبدالله بن سلام، وهو من ذرية يوسف الصديق عليه السلام.

١٤ـ بنو حجر.

١٥ ـ بنو ثعلبة.

كلاهما كان يسكن زُهرة، وهم رهط الفطيون الطاغية، وكان لهما آطام كثيرة، وكانت زهرة من أعظم قرى المدينة، باد أهلها بالدود كما تقول الروايات التاريخية، وقد يكون ذلك وباءً عامّاً حلّ بهم وأفناهم. وكانت زُهرة هذه في منطقة الجرف إلى جهة البركة.

١٦ ـ يهود الجوَّانية: وهو موضع قرب أُحُد شمالي المدينة. ولهما أطمان هما صِرَار والريان، وقد صارا بعد ذلك لبني الحارثة، ولذلك يقول نُهَيك بن سيّاف:

لعـل صِراراً أن تعيش بيـارُهُ ويسمع بالريّان تُبنَى مشـاربُهْ

١٧ ـ بنو عكوة.

١٨ ـ بنو مراية ولهم أطم الشبعان.

١٩ ـ يهود راتج: ولهم أطم يحمل هذا الاسم. قال قيس بن الخطيم:

ألا إنَّ بين الشـرعـبيّ وراتج ضراباً كتخذيم السيال المعضّد

٢٠ ـ يهود يثرب: وقد بادوا ولم يبق منهم أحد.

٢١ ـ بنو ناغصة: وأصلهم من اليمن، سكنوا شعب بني حرام.

وقد كانت الأوس والخزرج دخلت في طاعة أمراء اليهود عند نزولها يثرب، وحاول هؤلاء أن يضطهدوهم، وبخاصة في عهد أميرهم الطاغية المعروف (بالفطيون) وظلوا في جهد وضيق في المعاش، ليسوا بأصحاب إبل ولا شاء، لأن يثرب لم تكن بلاد نَعَم ٍ، وليسوا بأصحاب زرع ولا نخل، فليس للرجل منهم سوى الأعذاق اليسيرة والمزرعة يستخرجها من أرض موات، أما البساتين الكبيرة والأراضي الخصبة والنخل الكث فهو بيد اليهود وحدهم.

غلبة الأوس والخزرج عليهم

ثم أدال الله للأوس والخزرج من اليهود (وتلك الأيام نداولها بين الناس)، ولئن أجمعت الروايات التاريخية على أن الأوس والخزرج إنما انتصروا على اليهود بوساطة مساعدة خارجية، فإنها تختلف في مصدر تلك المساعدة على رأيين: قيل إنها من تبابعة اليمن، وقيل: إنها من غساسنة الشام، وكلهم بالطبع

يمتّون إليهم بنسب عريق، إذ يرجع نسب الجميع إلى اليمن وإلى قحطان، لكن الرأي الثاني أكثر رجحاناً فيما يبدو. ثم تختلف الروايات مرة أخرى في السبب المباشر لحدوث هذه المساعدة العسكرية التي دعمت موقف الأوس والخزرج[1] أمام اليهود وحققت لهم النصر عليهم:

فصاحب الأغاني يرى أن مالك بن العجلان وفد إلى أبي جبيلة الغساني وهو يومئذ ملك غسان، فسأله أبو جبيلة عن قومه وعن منزلهم، فأخبره بسوء حالهم وضيق معيشتهم وتعرضهم للظلم والمهانة من اليهود، فاستاء أبو جبيلة من ذلك وقال له: والله ما نزل قوم منا بلداً قط إلا غلبوا أهله عليه، فما بالكم؟ ثم أمره بالمضي إلى قومه وقال له: أعلمهم بمقدمي وأني سائر إليهم لاستنقاذهم... الخ.

٢ ـ والدكتور محمد حسين هيكل يرى أن نصارى العرب الذين كانوا يعيشون في الشام[2] ويقيمون دولة عربية تابعة للدولة الرومانية الشرقية وهم الغساسنة، كانوا بحكم نصرانيتهم يمقتون اليهود أشد المقت، لاعتقادهم أنهم هم الذين صلبوا المسيح ونكلوا به، وكانوا يتحينون الفرص للإيقاع بهم واستعملوا موضوع غيرتهم على الأوس والخزرج وسيلة للاشتفاء من اليهود، وكسر شوكتهم والقضاء على هيمنتهم، فجاء أبو جبيلة إلى يثرب بجيوشه واستدرج اليهود بوساطة مالك بن العجلان، وقتل منهم عدداً غير قليل، ثم رجع إلى بلاده.

٣ ـ ويذكر ابن الأثير أن أبا جبيلة إنما جاء إلى يثرب بطلب من[3] الأوس والخزرج، الذين طفح عندهم الكيل، ولم يبق في مكنتهم تحمُّل الضيم أكثر مما تحملوا، وبخاصة عندما بدأ الفطيون يتعرض إلى نسائهم، والعرب جميعاً يغارون

---

(١) الأغاني ٢٢: ١٠٢ ثقافة.

(٢) حياة محمد ص ١٩٩.

(٣) الكامل ١: ٤٠٠ والوفاء ١: ١٧٧.

على النساء ويموتون من أجل الشرف، وأضعاف ذلك كان عند الأوس والخزرج بالذات. كان الفطيون رجلاً فظاً غليظاً فاجراً، فرض على اليهود ألا تتزوج امرأة منهم إلا دخلت عليه قبل زوجها فافتضها وأزال بكارتها. وبلغ به تطاوله وعتوه أنه أراد أن يقوم بمثل تلك المحاولات مع الأوس والخزرج، ومبالغة في إذلالهم أراد أن يجرب ذلك مع أخت مالك بن العجلان السالمي، الذي كان الأوس والخزرج قد أمّروه على أنفسهم في محاولة لمواجهة العداء اليهودي، وقد يكون أرغم بعض ضعفائهم على ذلك وامتنع عليهم بقوته وسلطانه، فشقَّ ذلك على مالك، وثارت ثائرته، فدبّر في نفسه أمراً، وتظاهر بعدم الاهتمام بالأمر، فاشتمل على سيفه، ودخل على الفطيون متنكراً مع النساء، فلما خف مَنْ عنده عدا عليه فقتله، وانصرف إلى دار قومه، ثم لجأ إلى الغساسنة يستنصرهم على اليهود، فأنجده أبو جبيلة بجيش كبير قاده بنفسه.

وسواء تمت مساعدة الغساسنة للأوس والخزرج بطلب منهم، أو إثر حديث بين مالك وأبي جبيلة، أو بدافع العداء بين المسيحية واليهودية، فإن نتائجها كانت في صالح الأوس والخزرج، حيث وضعت حداً لمهانتهم، وعكست ميزان القوى في يثرب، فأصبح المحكومون حاكمين والمغلوبون غالبين، ولم تقم لليهود بعدها قائمة.

نزل أبو جبيلة بجيشه بذي حُرض[1] وأظهر أنه يريد اليمن. وذو حرض المقصود هنا مكان عند وادي قناة قرب أحد، وهو الذي قال فيه حكيم بن عكرمة الديلمي وهو يتشوق إلى المدينة:

لعمرك لَلبلاطُ وجانباه ... وحرّةُ واقم ذاتُ المنار

فجمّاءُ العقيق فعَرْصتاه ... فَمَفْضَى السيل من تلك الحرار

(١) معجم ما استعجم ٢ : ٤٣٩ وصحيح الاخبار لمحمد بن بليهد ١ : ١٥٨ والمناسك واماكن طرق الحج للحربي ص ٤٢٢ وبلوغ الأرب للالوسي ١ : ١٨٦.

إلى أحد فذي حُرُض فمبنى قبابِ الحيّ من كنفَيْ صِرار
أَحَبُّ اليَّ من فـج ببُصـرى بـلا شـك هنـاك ولا ائتمـار
ومن قَرْيات حمصَ وبعلبـك لـو انَي كنت أُجْعَلُ بـالخيار

وقال كثير:

أربـع فحي معارف الأطـلال بالجزع من حُرض فهن بوالي
فشراج ريمة قد تقادم عهدها بـالسفـح بين أُثيْث فنُعـال

وقال زُهير بن أبي سلمى:

أمن آل سلمى عرفت الطلولا بـذي حُرُض مـاثلات مثـولا

وأجمع أن يمكر باليهود حتى تُقبل رؤ وسهم وأشرافهم، لأنه خشي إن هو واجههم بالحرب أن يتحصنوا في آطامهم، فيمتنعوا منه حتى يطول حصاره إياهم دون طائل ويضطر للانسحاب. ثم أرسل إلى اليهود أن أبا جبيلة الملك قد أحب أن تأتوه، فلم يبق كبير منهم إلا أتاه ومعه خاصته وحشمه، رجاء أن يعودوا منه بعطاء، فلما اجتمعوا ببابه أمر أن يدخلوا عليه رجلاً رجلاً، وكان أمر رجالاً من جنده أن يقتلوا كل من دخل عليه منهم، حتى أتى على آخرهم، وفي ذلك قالت سارة القرظية ترثيهم:

بنفسيَ أمـة لم تُغـن شيئـا بذي حُرُض تعفّيها الرياح[1]
كهـول من قـريـظة أتلفتْهمْ سيـوفُ الخـزرجيّـةِ والـرمـاح
رُزئنـا والـرزيـةُ ذات ثقـل يُمَـرُّ لأهلهـا المـاء القـراح
ولـو أرِبـوا لأمـرِهمُ لجـالت هنالك دونهم جأوا رداح[2]

---

(١) الأغاني ٢٢: ١٠٣ وتروى الأبيات في غيره مع اختلاف.
(٢) جأواء: وصف للكتيبة والرداح: الجرارة.

وقال الرمَق بن زيد الخزرجي يثني على أبي جبيلة في قيامه بهذا العمل العظيم:

لم يُقضَ دينك في الحسان وقد غنيتَ وقد غنينا

الراشقاتِ المرشقات الجازيات بما جُزينا

أمثال غزلان الصرائم يأتزرن ويرتدينا

الريطَ والديباج والزرد المضاعف والبُرينا[1]

وأبو جبيلة خير من يمشي وأوفاهم يمينا

وأبرهم براً وأعلمهم بهدْي الصالحينا

القائد الخيل الصوانع بالكماة المعلمينا

أبقت لنا الأيام والحرب المهمة تعترينا

كبشاً لنا، ذكراً يفل حسامه الذكر السَّنينا

ومعاقلاً شماً وأسيافاً يقمن وينحنينا

ومحلة زوراء تَرجُف بالرمال المصلتينا

وكان الرمق رجلاً ضئيلاً فقال له أبو جبيلة بعد أن سمع شعره: عسل طيب في وعاء سوء، فذهبت مثلاً، فقال له الرمق: إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه.

وقال الصامت بن أصرم القوقلي. أو النوفلي:

سائل قريظة: من يقسِّم سَبْيَها ... يوم العُريض ومن أفاء المغنما؟

جاءتهمُ المَلْحاءُ يخفق ظلُّها ... وكتيبةُ خشْناءُ تدعو أسْلَما

عمي الذي طلب الهمام لقومه ... حتى أحلَّ على اليهود الصَّيْلما[2]

---

(١) البرينا: جمع بُرة بتخفيف الراء وهوكل حلقة من سوار وقرط وخلخال.

(٢) الصَّيلم: الداهية.

وقال أحد بني بلي يمدح مالكاً:

فليشهدنّ بما أقول عصابةٌ بلويةٌ وعصابةٌ من سالم
هل كان للفطيون عقر نسائكم حكم النصيب وليس حكم الحاكم
حتى حباه مالك عن عرسه حمراء تضحك من نجيع قاتم

قالوا: وصورت اليهود مالكاً في بيعهم ومعابدهم، فكانوا يلعنونه كلما دخلوها، فقال مالك في ذلك:

تُحامي اليهودُ بتلعانها تَحامي الحمير بأبوالها
وماذا علي بأن يلعنوا وتأتي المنايا بإذلالها[1]

وقل امتناع اليهود بعد ذلك وخافوا خوفاً شديداً وجعلوا كلما هاجمهم أحد من الأوس أو الخزرج بشيء يكرهونه لم يمش بعضهم إلى بعض كما كانوا يفعلون قبل ذلك، وإنما يذهب اليهودي إلى جيرانه الأوس أو الخزرج فيقول: إنما نحن جيرانكم ومواليكم. ولجأ كل قوم منهم إلى أحد الحيين يحميه ويواليه، وانهار طغيانهم إلى غير رجعة، ولكن الأحقاد بقيت متغلغلة في نفوسهم، فلجأوا إلى سياسة الوقيعة والتفريق، حتى جعلوهم يتحاربون، وفرغواهم للتجارة والحصول على الثروة واستعادتها من جديد، وأول حرب جرت بينهم هي حرب سُمير وآخرها بُعاث.

وكنت أتوقع أثناء تجميعي لمواد البحث أن أجد عدداً مجزياً من القصائد لشعر الأوس والخزرج في تخليد انتصارهم على اليهود والتخلص من بغيهم وسلطانهم، ولكنني لم أظفر بسوى مقطعات يسيرة لا تصلح لأن تعطي الصورة الواضحة لتلك المواقف الحاسمة، أو تعبر عن مشاعر قوم كسروا شوكة البغي

---

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام ٤: ٢٤٣.

والعدوان، وصاروا أسياد البلاد والمتحكمين فيها، بعد أن كانوا عمالاً تابعين لا تسمع لهم كلمة ولا يقبل لهم رأي. والشيء الثابت الذي لا يقبل الجدل أنهم فعلاً كانوا مضطهدين من اليهود بشكل من الاشكال، ثم استطاعوا أن يكسروا الطوق، ويحطموا الأغلال، ويحتلوا مكانتهم التي وجدهم الاسلام عليها، وذلك بغض النظر عن التشكيك في صورة الروايات التي سردناها في بداية هذا الفصل. فالشيء الطبيعي أن يتحرك وجدان الشعراء فيسجلوا ما يمكنهم تسجيله من آثار النشوة بذلك النصر والفرحة بالغلبة، ولعل ذلك حصل فعلاً ولكنه لم يصلنا وضاع في جملة ما ضاع من تاريخ هذين الحيين، اللذين عفى الزمن على كثير من آثارهم، فإذا كان كذلك فإنه يكفيهم فخراً معزتهم بالاسلام ونصرهم للاسلام ومرحى للأنصار.

***

الفصل الرابع

لمحة عن آطام يثرب

منفعة

قالت أنيسة: دع بلادَك والتمس ... داراً بطيبة ربة الآطام

تكتبْ عيالك في العطاء وتفترض ... وكذاك يفعل حازم الأقوام(١)

هذان البيتان لشاعر توفي في عصر بني أمية، يُدعى: جبهاء أو جبيهاء الأشجعي، واسمه يزيد بن عبيد بن بكر بن أشجع، وهو ممن غلبت ألقابهم على أسمائهم، كالنابغة والأخطل والفرزدق.

وللبيتين السابقين أكثر من دلالة واحدة يمكن الوصول إليها بسهولة، منها: أن الشاعر كان يمكنه أن يقول «يثرب» مكان «طيبة» مع سلامة الوزن، ولكنه لم يفعل، وذلك فيما يبدو تحاشياً منه للوقوع في الكراهية التي نبه إليها العلماء، لما في ذلك من معنى الثرب الذي هو الفساد، أو التثريب الذي هو اللوم، وإلا فما يمنعه أن يقول: «داراً بيثرب ربة الآطام»؟.

ومنها: أن الشاعر من عنيزة، وهي أهم مدن القصيم وأقدمها تاريخاً، ولا يزال أهلها حتى هذا العصر أكثر سكان تلك المناطق تعلقاً بطيبة ربة الآطام، يهاجرون إليها ويتخذون منها سكناً، وقد كانت قبيلة أشجع من حلفاء الخزرج في الجاهلية ضد الأوس في حرب بعاث وغيرها.

ومنها: أن طيبة كانت مركزاً يلجأ إليه الناس لتقييد أسمائهم في دواوين

---

(١) المناسك ص ٥٩ تعليق.

العطاء، وقد كانت كذلك منذ عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، وكانت عاصمة للاسلام منذ تأسيس دولته في عهد الرسول ﷺ، ثم شاءت قدرة الله أن تحل محلها في الحكم مدن أخرى وتنتزعه انتزاعاً دميت له سككها وبكته حرارها.

ومنها: كثرة الآطام بالمدينة بصفة مميزة ظاهرة هيأت للشاعر أن يصفها بربة الآطام، وهذا أهم ما يعنينا من البيتين، فالآطام خاصية من خصائصها في الجاهلية لا يضاهيها فيها بلد آخر، وظاهرة مميزة لها تعرف بين المدن[1].

جاء في اللسان[2]: الأُطُم: حصن مبني بحجارة، وقيل: هي كل بيت مربع مسطح. وقيل: الأُطُم مثل الأُجُم[3]، يخفف ويثقل، والجمع القليل: آطام، وآجام، والكثير: أُطوم. وهي حصون لأهل المدينة. ابن سِيده وغيره: الأطم: حصن مبني. ابن الأعرابي: الأطوم: القصور. وفي حديث بلال: إنه كان يؤذِّن على أطم. الأُطُم بالضم: بناء مرتفع، وجمعه آطام، وفي الحدِيث: حتى توارت بآطام المدينة، يعني بأبنيتها المرتفعة.

وقد كانت هذه[4] الآطام أو الحصون عماد أهل المدينة في الدفاع، ولم يكن للمدينة سور أو حائط يحميها ويمنع الذين يريدون اقتحامها والدخول إليها، على نقيض المدن القديمة، فعند الأخطار يتحصنون في آطامهم ويسدون منافذ الطرق بالصخور وغيرها من المعوقات، ثم يرمـون أعداءهم من فوق سطوحها بالسهام والحجارة، ولم يكن يشبهها في ذلك إلا مدينة الحيرة. فقد كانت هي الأخرى خالية من الأسوار، وتعتمد في دفاعها على المعاقل والحصون «الآطام» ثم أخذت مكة هذا الطابع من أختها يثرب أيضاً، وأول من ربّع بيتا بمكة هو حُميْد بن زهير،

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ٨: ٣١١.

(٢) اللسان، وديوان قيس بن الخطيم ص ٢٢٨.

(٣) الأجم: هو البيت المستدير، كما رجح العلامة محمود شاكر في تعليقه على جمهرة نسب قريش وأخبارها للزبيربن بكار ص ٤٤٣.

(٤) المفصل ٤: ١٣١.

وقد كانت قريش قبله تبني البيوت المستديرة وتسميها الآجام، ومفردها أُجُم، وذلك كراهية منها أن تضاهي بناء البيت بالتربيع، وكانوا يخافون العقوبة في ذلك ولا يتجرأون عليه، ولذلك كانوا كلما مروا بحُميد وهو يبني بيته، بلغ منهم العجب مبلغه كيف لم يسقط عليه كسف من السماء أو يأتيه عذاب أليم، وارتجز شاعرهم:

اليوم يُبنَى لحميد بيتُه . إمّا حياته وإمّا موتُه

فلما لم تصبه عقوبة ولم يحل به عذاب ـ كما كانوا يتوقعون ـ ربّعوا بيوتهم، وفصلوا بين هندسة بيوتهم والأوهام.

ولا غرابة أن تأخذ مكة هذا اللون من البناء من يثرب فقد كانت المدينتان على صلات عظيمة وثيقة متعددة. فمن يثرب تزوج هاشم بن عبد مناف إحدى نسائها العظيمات المعدودات بين نساء العرب، وهي سلمى بنت عمرو النجارية، المعروفة بالمتدلّية، فهي إحدى جدات الرسول ﷺ.

وعرفت الطائف[1] أيضاً الآطام من يثرب، ولكن في فترة متأخرة نسبياً، وكان لذلك سبب يذكره المؤرخون، فقد حدث أن نشبت الحرب بين فرعي ثقيف بالطائف وهما بنو مالك والأحلاف، واقتتلوا فيما بينهم قتالاً شديداً لم يتحقق فيه النصر لأحد الفريقين، فعمد كل فريق منهم إلى الاستعانة على الآخر بمن يستطيع من العرب، فسارت بنو مالك تبغي الحلف من دوس وخثعم وغيرهما، وخرجت الأحلاف إلى يثرب تبتغي الحلف من الأوس والخزرج، فقدم مسعود بن متعب على سيد الأوس الشاعر أُحَيْحة بن الجُلاح الجَحْجَبيّ، فطلب منه الحلف، فقال له أحيحة ينصحه: والله ما خرج رجل من قومه إلى قوم قطّ بحلف أو غيره، إلا أقر لأولئك القوم بشر مما أنف منه من قومه. فقال له مسعود يرقق قلبه ويستثير نخوته: إني أخوك ـ وكان صديقاً له ـ فقال له: أخوك الذي تركته وراءك، فارجع إليه، صالحه ولو بجدع أنفك وأُذُنك، فإن أحداً لن يكون أبرّ لك من قومك إذا حالفته. فانصرف عنه مسعود. ثم إن

---

(١) ابن الأثير ١: ٤٢١.

أحيحة زوّده بسلاح وزاد، وأرسل معه غلاماً كان يبني الآطام بيثرب، خبيراً بتشييدها ليستعمله في إقامة مثلها في الطائف، ويتفادى بها هجمات الأعداء، فبنى له أطمًا كبيراً، فكان أول أطُم بُني بالطائف، ثم توالى بناء الآطام فيها عندما أدرك أهلها مدى أهميتها، من حيث أسلوب بنائها ووظيفتها الدفاعية التي لم يكن لهم بها عهد في بني قومهم الأولين.

ولئن كان كثير من الإخباريين يعزون إنشاء الآطام بيثرب إلى اليهود، فإن الدلائل الأخرى تشير إلى أنها كانت من إنشاء الأوس والخزرج، نقلوها معهم من اليمن بعد أن طوروا فيها ووسعوا أغراضها، فقد كان في اليمن ـ موطنهم الأول ـ منشآت مماثلة للآطام[1].

وهذا يفسر ما يماثلها إلى حد بعيد عند اللخميين في الحيـرة وهم قوم من اليمن أيضاً. ولم توجد في بني عمومتهم الغساسنة في الشام لاتصالهم بالحضارة البيزنطية التي لم تعهد هذه الأنماط من البناء، ولكن أبا جبيلة الغساني كان يعرف قيمة الآطام الحربية حينما خف لنصرة أبناء عمومته من الأوس والخزرج، فلم يجاهر اليهودَ بالحرب، وإنما داورهم وخادعهم حتى يأمن احتماءهم بتلك الحصون والآطام، فيطول مكثه وحصاره لهم دون جدوى تذكر. وهذا الرأي من نسبة إنشاء الآطام للأوس والخزرج يؤيده أن الحصن في العبرية لم يكن يسمى أطماً، وإنما كان يسمى خيبراً.

ولأهمية هذه الآطام كان الأوس والخزرج يؤرخون بها، فيقولون مثلاً: عام إنشاء الأطم الفلاني، أو عام الواقعة التي حدثت عند الأطم الفلاني، وهكذا..

ويذكر أبو إسحاق الحربي[2] أن زيد الخيل وفد على الرسول ﷺ، فدخل المسجد، والنبي ﷺ يخطب، فقال: إنني خير لكم من العزّى وأمهاتها، وما

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ٨: ٣١٢.
(٢) المناسك ص ٣٨٠.

حازت قنـاع من كل ضار غير نفاع، ومن الجبل الأسود الذي تعبدونه من دون الله، فقام زيد الخيل، وكان من أجمل الرجال وأحسنهم فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، قال: ومن أنت؟ قال: أنا زيد الخيل بن مهلهل. قال: بل أنت زيد الخير، وما وُصف لي رجل إلا رأيته دون ما وُصف لي، غيرك، فإنك تفوق ما وُصف لي. ثم انصرف زيد، فقال النبي ﷺ: أيّ رجل إن سلم من آطام المدينة. !كأنّ الرسولﷺ كان يخشى عليه بعد إسلامـه أن يغتاله بعض الرابضين في الآطام ممن لم يخالط الاسلام قلوبهم، تخذيلاً للعرب عن الاسلام.

وأبقى الرسول ﷺ تلك الآطام على حالها ولم يهدمها، بل إنه شهد حين مقدمه إلى يثرب قوم حسان بن ثابت يجددون بناء أطمهم «فارع»، فلم ينههم عن تجديده، وهو الحصن الذي كانت فيه صفية عمة رسول الله ﷺ مع حسان يوم الخندق، ولم تهدم هذه الآطام وتخرب إلا في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، عندما وجد بعض الناس يستخدمها للتخفي والامتناع عن الطلب، ولا تزال بعض رسومها باقية إلى اليوم.

وبلغ عدد الآطام في يثرب عدداً كبيراً أوصله بعضهم إلى السبعين، ولكنني أرى أن عددها لا بد أن يكون أكثر من ذلك، لأن كثيراً من الأفراد والعشائر كانوا يمتلكون أكثر من أطم واحد، فإذا علمنا أن عشائر الأوس والخزرج وعشائر اليهود كانت تناهز السبعين، فكيف يمكن التوفيق بين هاتين الظاهرتين؟ يبدو أن العدد المذكور لا يشمل سوى المشهور منها، والآطام الكبيرة التي هي أطام الأغنياء وذوي المكانة، وهي عادة تكون ضخمة لِتَسعَ معهم أتباعهم. ومن هذه الآطام:

١ ـ أجَش: بالتحريك وتشديد الشين معجمة، ابتناه بنو أنيف البلويين عند بئر لاوة[١].

٢ـ الأجرد: هو لبني خُدْرة بن عوف، وكان مقاماً على بئر البُصّة.

---

(١) مراصد الاطلاع ١: ٣١.

٣ ـ **الأشنق**: وكان لبني عبيد بن عوف بن كعب بن سلمة من الخزرج، بين جبل سَلْع وحرة الْوَبْرة، وكان لهم أطم كذلك في نفس الموقع يسمًّى (الأطول).

٤ - **برَج**: ابتناه بنو القِمّعة من بني النضير[١].

٥ ـ **بَلْحان**: كان في حرة بني قريظة شرقي المدينة، وصاحبه هو كعب بن أسد القرظي، وكان شاعراً مرموقاً، له مناقضات مع قيس بن الخطيم، فله يقول[٢]:

لا تعدم الأوس منا في مواطنها ... ناباً لمن نابها في الحرب ميمونا

لا نُستخفّ إذا كان الصياح ولا ... نُعطي السوابغ إلا أهلها فينا

ولهذا الأطم يقول أحد شعرائهم:

مَنْ سـرّه رطب ومـاء بـارد ... فليأت أهل المجد من بَلْحان

٦ ـ **جُذمان**: موضع فيه أطم للخزرج حمل اسمه[٣]، سمي بذلك لوجود نخل حوله، جذَم نخلَه تبّع اليماني حين مرّ بالمدينة، أي قطعه، وقال قيس بن الخطيم حين ظهر قومه الأوس على الخزرج في حرب بُعاث:

كأن رؤوس الخزرجيين إذ بدت ... كتائبُنا تترى مع الصبح: حنظل

فلا تقربوا جُذمـان إن حِراره ... وجنّتـه تـأذى بكم فتحمّلوا

ويقول أحد شعراء الخزرج يتحرش بالأوس وحلفائهم:

هلمّ إلى الأحلاف إذ رقّ عظمُهمْ ... وإذا أصلحوا مالاً بجذمان ضائعا

---

(١) مراصد الاطلاع ١: ١٧٨

(٢) معجم الشعراء ص ٢٣٢ ونابا: السيِّد والرئيس.

(٣) المغانم المطابة ص ١٥٧ ومعجم ما استعجم ٢: ٦٦١.

٧ ـ **خيط**: هو لبني سواد بن غنم بن كعب بن سلمة، وكان على شرف الحرة شرقي مسجد القبلتين اليوم. وعلى ظهر هذه الحرة كان لهم أطم آخر يسمى: «منيع» ومن آطامهم أيضاً: «الأغلب».

٨ ـ **راتج**: هو أحد آطام اليهود، وتسمى الناحية به، ويبدو أنه كان فوق جبل صغير يحمل اسمه أو على سفحه، ولذا قال الشيخ جمال الدين المطري: راتج: جبيل صغير غربي وادي بطحان، وبجنبه جبيل صغير آخر يسمى جبل عبيد، وهذا الجبل كما هو معلوم في منازل بني سلمة، ولا يمنع وجوده في منازلهم أن يكون ملكاً لأحد اليهود، وقد كانت فيه حرب بين الاوس والخزرج ويوم من أيامهم يعرف بيوم السّرّارة على أحد قولين، ولذا قال قيس بن الخطيم:

ألا إن بين الشرعبي وراتج ... ضراباً كتخذيم السّيال المعضد

٩ ـ **الرِّعْل**: ابتناه بنو عبد الأشهل، وصاحبته ضمرة بنت مرّ بن ظفر، وهي أمهم، وله يقول كعب بن مالك:

منعنا الرِّعْل إذ أسلمتموه ... بفتيان ملاوثةٍ جِلاد

ولما انهزم بنو عبد الأشهل أمام بني حارثة ولحقوا بأرض بني سُليم يستنصرونهم على بني عمهم، قال حضير بن سماك يوماً: ارفعوني أنظر إلى الرعل، فقال إساف بن عديّ بن زيد بن عدي بن جُشم بن حارثة:

ولا وثياب خالك لا تراه ... سَجِيسَ الدهر ما نطق الحمام

فإن الرِّعْلَ إذ أسلمتموه ... بساحة واقمٍ منكم حرام

١٠ ـ **الرَّيان**: كان ليهود الجوّانية قرب أحد، كما كان لهم أطم آخر يسمى

---

(١) المغانم ص ١٤٩ وديوان ابن الخطيم ص ١٢٥.

(٢) المغانم ص ٥٧١ ومعجم ما استعجم ٢: ٦٦١.

«صِرار» وقد دخلا بعد ذلك في ملكية بني حارثة بن الحارث، يقول نُهيك بن سيّاف:

لعل صِراراً أن تعيش بِثارُه ويُسمع بالريّان، تُبْنَى مَشاربُه

١١ ـ **الزيدان**: هو لبني واقف، قال قيس بن رفاعة:

وكيف أرجو لذيذ العيش بعدهمُ وبعد مَنْ قد مضى مِنْ أهل زيدان

١٢ ـ **السعدان**: كان لبني لُوذان بن عمرو بن عوف «السّمّيعة».

١٣ ـ **السُّنح**: وكان لبني جُشم بن الحارث بن الخزرج الأكبر، وهو بمنطقة العوالي.

١٤ ـ **شاس**: وهو لبني عطية، قبلةَ رحبة مسجد قباء.

١٥ـ **الشرعبي**: هو من آطام[١] اليهود كراتج، لعلهم نسبوه إلى شرعب لكونه طويلاً، «الشرعب: الطويل» وقد صار لبني جشم بن الحارث بن الخزرج، وقد قال فيه قيس بن الخطيم وفي راتج البيت السابق، وكان الشرعبي دون جبل ذُباب، ولأهله كان البستان المسمى بالشوط الذي آل بعد ذلك إلى قيس ابن الخطيم، ومكانه عند ملعب التعليم اليوم، والشوط في اللغة: العَدْو، وفيه يقول ابن الخطيم:

وقد علموا أنما فلّهمْ حديدُ النبيت وأعيانُها
وبالشوط من يثربٍ أعبُدٌ ستهلك في الخمر أثمانُها
يهون على الأوس إتلافُهمْ إذا راح يخطر نشوانُها

١٦ـ **الشَّمّاخ**: هو لبني غنم بن عوف ولهم أطم آخر يسمى «القواقل» وكانا

---

(١) المغانم المطابة ص ٢١١.

في الحرة الغربية مما يلي العُصْبة.

١٧ ـ **الشُّنَيف**: وهو لبني عمرو بن عوف بقباء، وله ولأطم واقم يقول كعب ابن مالك:

فـلا تتهدّد بـالوعيـد سفـاهـةً   وأوعِدْ شُنيفاً إن عصيتَ وواقماً

١٨ ـ **الضَّحْيان**: ابتناه الشاعر أحَيْحة بن الجُلاح بن الحريش بن جحجبى، وذلك بالعُصْبة، بعد أن خرج مع قومه إليها عندما اضطرهم بنو عمرو بن عوف بقباء إلى النزوح من بينهم، بعد أن قتل بنو جحجبى رجلين منهم هما: رفاعة وغنم، وكان عرض هذا الأطم قريباً من طوله، ولا تزال بقايا آثاره بالعصبة قائمة إلى اليوم، وقد كان في الجاهلية يرى من مسافة بعيدة، لارتفاعه، وله يقول أحيحة:

وقد أعددت للحدثان حصناً   لـو انّ المرء ينفعـه العقـول

طويل الرأس أبيض مشمخرّاً   يلوح كـأنـه سيف صقيـل

وقال أيضاً:

إنّي بنيتُ واقمـاً والضـاحيـا   بـنيـتُـه بغـرّة مـن مـاليـا

والشـرّ مما يـألف العـواصيـا   أخشى رُجيـلاً ورُكيباً عـاديـا

١٩ ـ **العذق**: وهو لبني أمية بن زيد، وكان بالعوالي.

٢٠ ـ **فارع**: صاحبه هو ثابت والد حسّان الشاعر، وكان غربيّ الحرم عند باب الرحمة، ثم أدخل فيه، وفيه يقول حسان[1]:

أرِقتُ لتَوْماضِ البروق اللوامع   ونحن نشاوَى بين سَلْع وفارِع

---

(١) الديوان ص ١٥١ وأبرق العزّاف: موضع. والمتالي: النياق يتلوها صغارها. والمشايع: اللاحق من صغارها أو الراعي يهيب بها.

أرِقتُ له حتى علمتُ مكانَـه بأكناف سَلْع والتّلاع الدوافع
طَوَى أبرق العَزّافِ يرعُد مَتْنُه حنينَ المتالي نحوَ صوتِ المُشايِع

٢١ ـ **المستظلّ**: كان لأحيحة[1] بن إلجلاح أيضا، وهو الذي تحصن فيه حين قاتل تبّعا أبا كرب عندما غزا المدينة.

٢٢ ـ **المسيّر**: ابتناه بنو حارثة بن الحارث، وكان في دار بني عبد الأشهل بشرقي المدينة، لأنهم كانوا نزلوا معهم في أول الأمر، وللمسيّر يقول مسعود بن محيّصة الحارثي:

فمَنْ مبلغٌ عني حُضيراً رسالةً فـإن كان أمثـالٌ بنوك فـأبشِرِ
فإنـي زعيم أن تَبين ظعينـةٌ ويخرب قصر مثل قصر المسيَّر
وإن أخا الأضرار بالسيف والدي وخالي أبو بِشْرٍ خباب بن منذر

٢٣ ـ **مزاحم**: ابتناه بنو الحُبْلى بين ظهراني بيوت قومهم[2]، وبجانبه كانت سوق من أسواق المدينة، وصاحبه هو عبدالله بن أبيّ بن سلول، قال ابن الخطيم[3]:

صحِبْنا بها الآطام حول مزاحم قوانسُ أُولى بَيْضِنا كالكواكب

٢٤ ـ **المزدلف**: ابتناه[4] سالم وغنم ابنا عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج، وكان بمساكنهم على طرف الحرة الغربية، وصاحبه هو مالك بن العجلان السالمي، وفيه يقول:
إني بنيت للحروب المزدلف قذفتُ فيه جنْدلاً مثل الدّلُفْ

(١) الأصمعيات (تعليق) ص ١٢٠.
(٢) المغانم ص ٢٢٤ ومعجم ما استعجم ٢: ٤٣٧.
(٣) المغانم ص ٣٨٠ والديوان ص ٨٦.
(٤) الوفاء ١: ٩٩.

٢٥ ـ واقم: من أشهر آطام المدينة[1]، وإليه نسبت إحدى الحرار، وهي حرة واقم، ابتناه بنو عبد الأشهل، كأنه سمي بذلك لحصانته، من قولهم: وقمه الأمر إذا رده عن حاجته وقصْدِه، فقد كان حصناً قوياً يـردّ عن أهله، وصاحبه هو حضير الكتائب سيد بني عبد الأشهل، وأحد سادات العرب المعدودين قال شاعرهم:

نحن بنينـا واقمـاً بـالحـرة   بـلازب الـطين وبـالأصـرّة

وقال خفاف بن ندبة السُّلمي:

لو ان المنايا حِدْن عن ذي مهابةٍ   لكان حضيرٌ حين أغلق واقما

يطيف به، حتى إذا الليل جنَّه   تبـوّأ منـه مضجعـا متناعمـا

وفجعن بالرّحال عروة: قومَه   وأدركن صيَّاد الفوارس هاشما

وللبيت الأول من شعر خفاف روايتان أخريان هما:

لو انّ المنايا هِبْن من ذي مهابة   لهِبْن حضيراً يوم غلّق واقما

والأخرى:

فلو كان حيًّا ناجيا من حِمامه   لكـان حضيراً يوم أغلق واقما

وبعض الروايات تجعل واقما لآل أبي لبابة، وتجعل مكانه في منازلهم بالمسكبة شرقي مسجد قباء، وكان يملكه رجل منهم يدعى ساعدة بن عابس، ومما قيل فيه:

نحن بنينـا واقمـا والمسكبَـه   قبـلُ، وكـان للجِفـان ملْعَبَـه

يَـزينُهـا فعْمٌ عريض المَنْقَبـه   يَبْرُق في الصبح كلون المذْهَبَه

---

(١) المغانم ص ٢٢٤، ومعجم ما استعجم ٢: ٤٣٧.

ومما يؤيد الرواية الأولى حديث ربيعة بن عبدالله بن الهُدَيْر، قال: سمعت طلحة بن عبيدالله يقول: خرجنا مع رسول الله ﷺ نريد قبور الشهداء، فلمّا أشرفنا على حرة واقم، تدلينا منها، فإذا قبور بَمحْنِيَتِه، قلنا: يا رسول الله، هذه قبور إخواننا، قال: بل قبور أصحابنا، فلما جئنا قبور الشهداء قال رسول الله ﷺ: هذه قبور إخواننا.

وقال صاحب مراصد الاطلاع: تقع حرة واقم في الحرة الشرقية من حرتي المدينة، قال المرار:

بحــرة واقمٍ والعِيسُ صُعْــرٌ ترى لِلُحَى جماجمها تَبيعا[1]

هذا وقد سبق أن ذكرنا في حديثنا عن أطم الضحيان أن واقمًا من آطام أحيحة بن الجلاح، وهو كما نعلم من بني جحجبى الذين كانت مساكنهم في العصبة، وهي غربي قباء، ولعل واقماً كان اسماً لعدة آطام، أريد من إطلاقه عليها وصفها بالمنعة والصد والرد.

***

(١) صُعْر: جمع أصعر، وهو البعير الملوي العنق من داء ونحوه. والتبيع: الخادم والمطالب بالثأر.

الفصل الخامس

المجتمع اليثربي

يتضح مما تقدم أن المجتمع اليثربي كان يضم في داخله ثلاثة عناصر: اليهود، والأوس والخزرج، وأفخاذ قليلة الشأن من قبائل أخرى ليس لها أثر يذكر في تحريك الحياة الاجتماعية وإنما هم تبع للعنصرين الأولين.

وهو في عمومه يختلف عن بقية المجتمعات العربية المعاصرة له: البدوية منها، والتي فيها فضل تحضر، وذلك لوجود هذا الجسم الغريب عن الأرض العربية فيه، وهو العنصر اليهودي الإسرائيلي الذي يقيم حياته في جميع أنحاء العالم على الاستغلال المادي الجائر، من جشع واحتكار وربا، وعلى الإيقاع وزرع بذور العداوة والبغضاء وتغذية الصراع فيما حوله، ليخلو له الجو، وينشغل الناس عن معايبه ومخازيه، ويتعاون مع الغرباء في الخارج، لتحطيم الوحدات القائمة في الداخل، وتصديع كياناتها أو إخضاعها لإرادته بطريق غير مباشر، وقد عصم الله منه بقية أجزاء المجتمعات العربية ووقاها من شره.

وقد درج الباحثون في التاريخ العام وفي تاريخ الأدب بالذات، على تقسيم سكان الجزيرة العربية أثناء الفترة الجاهلية التي تمثل مائة وخمسين سنة أو مائتي سنة قبل ظهور الاسلام إلى قسمين: حضر وبدو. أو أهل مدر، وأهل وبر. ثم يقول بعضهم على هذا الأساس كأبي عبيدة(١): اتفقت العرب على أن أشعر أهل

---

(١) الأغاني ط دار الكتب المصرية ٤: ١٣٧.

المدر أهل يثرب، ثم عبد القيس، ثم ثقيف، وعلى أن أشعر أهل يثرب حسان بن ثابت. ويقول ابن سلّام[1]: أشعرهن قرية المدينة، شعراؤها الفحول خمسة.

ولعل من الأفضل أن نسمح لأنفسنا بمخالفتهم لأول مرة في هذا التقسيم، اعتقاداً منا أن في تلك المخالفة اقتراباً من الواقع، فأنا أوثر أن أقسمهم إلى ثلاثة أقسام هي:

أ ـ مجتمع رعوي: يمثله سكان البادية، الذين تقوم حياتهم على الرعي، وانتجاع الكلأ، والذين لا يرتبطون بالأرض إلا بمقدار ما توفر لهم من ماء وعشب، وهدوء مؤقت، وهم الأكثرية الكاثرة، كبكر وتغلب، وعبس وذبيان، وعلى أساس شعرهم كوّن النقاد نظرتهم إلى عمود الشعر العربي.

ب ـ مجتمع زراعي: يمثله سكان الواحات، كيثرب والطائف، وهو مجتمع أرقى في السلم الحضاري من المجتمع الرعوي، ويتميز عنه بعدة خصائص تظهر في أسلوب حياته، وتنعكس بالتالي على طريقة تعبيره، فهو مجتمع مستقر مرتبط بالأرض، يدافع عنها ويموت من أجلها.

جـ ـ مجتمع تجاري: تمثله مكة. وهو مجتمع أرقى في السلم الحضاري بالطبع، من المجتمعين السابقين وأكثر استقراراً ورفاهاً، كما أن لديه في الغالب ما يشغله عن ممارسة الشعر أو الإغراق فيه على الأقل. وبهذا يمكن تفسير قلة شعراء مكة بالإضافة إلى قلة حروبها.

ولا شك أن هذه الأنواع الثلاثة من المجتمعات قد اختلفت في مقومات حياتها، وفي اتجاهاتها الخاصة ومنتجاتها الحضارية. ولا بد أن يكون لجميع ذلك أثر على أساليب تعبيرها شعراً ونثراً. ومن مظاهر ذلك الاختلاف أن كلمة مال ـ مثلاً ـ كانت تعني الإبل والشاء في المجتمع الرعوي، بينما تعني المزرعة وحائط

---

(١) طبقات فحول الشعراء ١: ٢١٥ تحقيق محمود شاكر.

النخل في المجتمع الزراعي (في يثرب ونحوها) وهي تعني في المجتمع التجاري (في مكة ونحوها) عروض التجارة أو الذهب والورِق .

وهكذا احتل الطابع الزراعي مكانة واضحة في أشعار اليثربيين ومن ذلك قول أحيحة بن الجلاح[1] :

إني أقيم على الزوراء أعمُرها ... إن الكريم على الإخوان ذو المال[2]

لها ثلاث بئار في جوانبها ... فكلها عُقَبٌ يسقي بإقبال

استغن أو متْ ولا يغررك ذو نشب ... من ابن عم ولا عم ولا خال

يلوون مالهمُ عن حق أقربهمْ ... وعن عشيرتهم والحق للوالي[3]

وقول غيره :

تكلفني من تكاليفها ... نخيلَ الأساويف والمصنَعة

نخيلاً حمتها بنو مالك ... جنود أبي كِرب المُفْضِعة

ويقول كعب بن الأشرف[4] :

ولنا بئر رواء عذبة ... مَنْ يردها بإناء يغترف

ونخيل من تلاع جمة ... تُخرج التمر كأمثال الأكف

ويقول أحيحة أيضاً[5] :

تأبَّري يا خيرةَ الفسيل ... تأبري من حنَذٍ وشُولي

إن ضنَّ أهل النخل بالفحول

---

(١) الأغاني ١٥ : ٣٢ (ثقافة)، مراصد الاطلاع ٢ : ٦٧٤ ، عيون الأخبار ١ : ٢٤٠ .

(٢) الزوراء : مال للشاعر .

(٣) يلوون : يجحدون .

(٤) معجم الشعراء ص ٢٣١ .

(٥) مراصد الاطلاع ١ : ٤٣١ ، وحنذ : هي إحدى قرى أحيحة .

ويقول أيضاً:

إذا ما جئتها قد بعت عِذْقا ... تعانق أو تُقبِّل أو تُفـدِّي[1]
أهنتُ المال في الشهوات حتى ... أصارتني أسِيفا عبـدَ عبد
فمن نـال الغنى فلْيصطنعْه ... صنيعته ويجهَدْ كـلَّ جَهْد
أعلِّمكمْ وقـد أرديتُ نفسـي ... فمن أهْدي سبيلَ الرشد بعدي

وقال حسان بن ثابت:

لنـا حَـرة مـأطـورةٌ بجبـالِهـا ... بنَى المجدُ فيها بيتَهُ فتأهّلاَ[2]
بها النخلُ والآطامُ تجري خلالها ... جداول قد تعلو رَقاقاً وجَرْولا[3]
إذا جـدولٌ منها تصـرَّمَ ماؤه ... وصَلْنا إليْه بالنواضِح جدْولا[4]
على كل مِفهاق خَسيفٍ غُروبُها ... تُفرِّغ في حوضٍ من الصخر أنجلا[5]
له غَلَلٌ في ظلِّ كل حديقـةٍ ... يُعارض يَعبوباً من الماء سلسلا[6]

فمدينة يثرب إذن تقوم حياتها أساساً على الزراعة. وكانت بها أودية وآبار كثيرة منتشرة هنا وهناك. وأشهر أوديتها العقيق وقناة وبُطْحان، وهذا الوادي الأخير يسمية الناس الآن باسم آخر هو وادي أبو جيدة بالإضافة إلى اسمه التاريخي وهو

---

(١) الأصمعيات ص ١٢٠ ، العذق: النخلة بحملها أو العرجون بشماريخه، والأسيف: العبد أو الأجير.
(٢) المأطورة: المحاطة.
(٣) الرقاق: الأرض المنبسطة الصلبة.
(٤) الجرول: الأرض ذات الحجارة، النواضح: الإبل التي تنقل الماء.
(٥) المفهاق: البئر وافرة الماء، الخسيف: العين الغائرة، أو بئر حفرت في حجارة فلم ينقطع ماؤها.
أنجلا: وافر الماء.
(٦) الغلل: الماء الجاري بين الشجر، اليعبوب: النهر، السلسل: الماضي في جريانه.

بسكون الطاء. قال الشاعر:

أبا سعيد لم أزل بعدكم ... في كُرَبٍ للشوق تغشاني[1]
كم مجلِس ولَّى بلذاته ... لم يَهْنَنِي إذ غاب نُدماني
سَقْياً لِسَلْعٍ ولساحاتها ... والعيش في أكناف بُطْحان
أمسيتُ من شوق إلى أهلها ... أدفع أحزاناً بأحزان

وجو يثرب على العموم خير من جو مكة وألطف، ولم يعان أهلها ما عانى أهل مكة من شح في الماء، فالماء متوافر فيها، ومن الممكن الحصول عليه بسهولة، ولهذا كان في إمكانهم زرع النخيل وإنشاء البساتين والحدائق، وروى الحربي[2] من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، قالت: قدم رسول الله ﷺ المدينة وواديها بطحان نجلٌ، تجتزىء عليه الإبل. أي واسع فيه ماء ظاهر، يقال: استنجل الوادي واستنجلت الأرض إذا خرج منها الماء.

ولما نزل[3] تبّع حول يثرب بعث رائداً ينظر إلى مزارع المدينة فأتاه فقال:

قد نظرت، فأما قناة[4] فحبٌّ بلاتين، وأما الحرار[5] فلا حبٌّ ولا تين. وأما الجُرف[6] فالحب والتين. وهذه الخيرات الوفيرة والمياه الغزيرة لم تفلح في خلق

---

(١) معجم البلدان ١: ٤٤٦.

(٢) معجم ما استعجم ١: ٢٥٨.

(٣) المغانم المطابة ص ٨٨ و مراصد الاطلاع ١: ٣٢٦.

(٤) وادي قناة شمالي المدينة جنوبي أحد مباشرة وهو جزء من وادي أضم.

(٥) من أسماء المدينة ذات الحرار، والحرار في بلاد العرب كثيرة، والحرة كل أرض ذات حجارة سوداء نخرة، كأنما أحرقت بالنار. وقيل: إذا كانت كذلك وهي مستديرة فهي حرة، وما كان مستطيلاً منها ليس بواسع فهو لابة، ويقال له كراع. وأكثر الحرار حول المدينة، وتسمى مضافة إلى أماكنها؛ كحرة واقم، وحرة الوبرة، وحرة دشم، وحرة بني قريظة، وهكذا. وتقع المدينة أساساً بين حرتين: شرقية وغربية، وتسميان أيضاً لابتيها.

(٦) هو موضع على ثلاثة أميال من المدينة من جهة الشام (الميل = ١٦٠٠ م تقريباً) وبه بئر جُشم، بئر جمل، قالوا سمي الجرف، لأن تبّعاً مر به فقال: هذا جرف الأرض، وكان يسمى قبل ذلك العِرض وفيه قال كعب بن مالك: =

مناخ حضاري ملائم، ولا مكنتهم من معالجة مشاكلهم بالتؤدة والروية، شأن الانسان المتحضر عادة، بل عاشوا وسطاً بين المجتمع المكي التجاري والمجتمع الرعوي البدوي، وكانوا للبداوة أقرب سبيلاً ومنوالاً. فقام الصراع في يثرب بادىء ذي بدء بين اليهود والأوس والخزرج متخذاً المظاهر المختلفة وانتهى بغلبة الأوس والخزرج بمساعدة الغساسنة كما قدمنا، ومنذ ذلك الحين خنع اليهود ظاهرياً وأصبحوا يعيشون في كنف الأوس والخزرج في أحلاف عديدة ومتنوعة، حسب ما يحقق مصالحهم، وسلكوا أسلوب الوقيعة وإثارة الإحن بين الأخوة من الأوس والخزرج، وقنعوا بالسيطرةُ الاقتصادية والاستيلاء على موارد الثروة والتجارة، وكان منهم الصاغة[1] والصناع وأصحاب الحرف التي كانت غالبية العرب تأنف منها؛ كما هو المعروف عن يهود بني قينقاع.

النشاط التجاري

كانت حياة يثرب ـ كما قلنا ـ قائمة على الزراعة، لكن ذلك لم يمنع من وجود بعض الأسواق التجارية اللازمة فيها، وكانت في الأعم الأغلب بيد اليهود وتحت رحمتهم. وأشهر أسواق يثرب في الجاهلية هي:

أ ـ سوق زَبالة

وكانت تقع في الناحية التي تُدعى يثرب، وهي في شمالي المدينة كما

= إذا ما هبطنا العِرض قال سراتنا عـلامَ إذا لم نمنع العرض نزرع

وله ذكر في غير ما حديث. قال كعب بن الأشرف اليهودي:

ولنا بئر رواء جمة من يردها بإناء يغترف
تدلج الجون على أكنافها بدلاء ذات أمراس صدف
كل حاجاتي قد قضيتها غير حاجاتي على بطن الجرف

(المغانم المطابة ص ٨٨ ومراصد الاطلاع: ١: ٣٢٦)

(١) نهاية الأرب ١٧: ٦٧٦.

حددناها في كلام سابق.

ب - سوق الجسر

وكانت على جسر بطحان بين المراكشية والمشرفية الآن، وتعرف هذه السوق أيضاً بسوق بني قينقاع، ويبدو أنها كانت أهم أسواق يثرب، بحيث يمكن أن يأتيها الناس من كل مكان، فقد أتاها[1] النابغة عند زيارته ليثرب وفي أثناء ذهابه لها التقى بالشاعر اليهودي الربيع بن أبي الحُقيق نازلاً من أطمه، فلما أشرفا على السوق سمعا منها ضجة كبيرة، وذلك لكبرها واتساعها وازدحامها بالحركة والنشاط، فحاصت بالنابغة ناقته وكادت توقعه من فوقها، فأنشأ يقول: (كادت تُهال من الأصوات راحلتي) ثم قال للربيع: أجز ياربيع.. فقال: (والنفْر منها إذا ما أوجست خُلُق)، فقال النابغة: ما رأيت كاليوم شعراً قط. ثم قال: (لولا أنهْنهُها بالسوط لاجتذبتْ) أجز يا ربيع: فقال: (مني الزمامَ وإني راكب لبق)، فقال النابغة: (قد ملَّتِ الحبس في الآطام واشتعفَتْ) أجز يا ربيع.. فقال: (إلى مناهلها لو أنها طُلُق)، فقال النابغة: أنت يا ربيع أشعر الناس. وكان لهذه السوق جوانب أدبية أيضاً على نمط الأسواق الأدبية المعروفة في الجاهلية، حيث كان الناس يجتمعون فيها ويتفاخرون ويتناشدون الأشعار، وقد التقى حسان بن ثابت بالنابغة في هذه السوق، وفيها أنشد النابغة:

عـرفت منـازلاً بعـد الثنـايـا بأعلى الجزع بالخَيْف المُبنِّ

قال حسان: فقلت في نفسي: هلك الشيخ، ركب قافية صعبة، قال: فوالله ما زال حتى أتى على آخرها، ثم نادى ألارجل ينشد.! فتقدم قيس بن الخطيم بين يديه وأنشد:

---

(١) الأغاني ٢٢: ١٢١ ثقافة.

أتعرف رسماً كاطراد المذاهب لعمرة وحشاً غيرَ موقف راكب

حتى أتى على آخرها، فقال له النابغة: أنت أشعر الناس يا ابن أخي[1].

جـ - سوق الصفصاف

وكانت بالعصبة غربي قباء في منازل بني جحجبى على ما مر.

د - سوق مزاحم

ويبدو أنها كانت سوقاً صغيرة؛ لأن المراجع التي بين أيدينا اكتفت بذكرها ولم تزد على ذلك. والغالب أنها قرب أطم مزاحم.

ورغم الذي سقناه من خبر النابغة فإن الطابع العام الغالب على أسواق يثرب أنها محلية، فلم تكن كالأسواق العربية الأخرى المشهورة التي وردت لشهرتها حتى في الأشعار، كسوق دومة الجندل وسوق هجر، وسوق عمان، وسوق المشقر وسوق صَحار، وسوق صنعاء، وسوق حضرموت، وسوق مجنَّة، وسوق عكاظ.

وكانت التجارة الخارجية بيد بعض الأوس والخزرج، غير أن أكثرها كان بيد اليهود، فيأتون إلى أهل يثرب بما يحتاجون إليه[2] من تجارات، ويقدُمون بالبُر والشعير والزيت والتين والقماش وغيرها من الأشياء التي تزخر بها بلاد الشام، وكان اليهود بجانب ذلك يقومون بتسقّط الأخبار لفائدة الروم، وظهر ذلك بيّناً عند ظهور الاسلام.

ومما يدل على صلة يثرب التجارية مع غيرها من مدن عصرها كمكة، هو قصة إسلام سعد بن عبادة[3] ورفقائه ممن بايعوا في العقبة، حيث اقتفى القرشيون أثَر النقباء بعد أن تأكدوا من إسلامهم وتعاهدهم مع الرسول ﷺ، فأدركوا سعد بن

---

(١) المغانم المطابة - تعليق الجاسر ص ١٩٥.

(٢) المفصل ٤: ١٤١.

(٣) الطبري ٢: ٣٦٧.

عبادة وأمسكوا به وربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة، يضربونه ويعذبونه، فرقّ إليه قلب أحدهم وأقبل يذكِّره بمن يعرف من أهل مكة ليستجير به مما هو فيه، فقال سعد: بلى والله. لقد كنت أجير لجبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف تجارته وأمنع القائمين عليها ممن أراد ظلمهم ببلادي، وللحارث بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. قال: ويحك.! اهتف باسم الرجلين واذكر ما بينك وبينهما، قال سعد: ففعلت، فلما علما بذلك قدما له مسرعين وأنقذاه مما هو فيه.

وكثيراً ما كانت الأسواق التجارية مجالاً للتسكع من الشباب العاطل أو المتفرغ عن العمل أو الذي يطلب النزهة عند ازدحام الأقدام، فيكون ذلك سبباً في نشوء النزاعات والخلافات، أو الاشتباكات التي تترك آثارها السيئة في النفوس، وتنبش الحزازات الكامنة، أو قد تؤدي إلى القتل والقتال، فقد كان حليف لمالك بن العجلان الخزرجي من ذبيان اسمه كعب الثعلبي: مارّاً في سوق[1] بني قينقاع فرأى رجلاً من غطفان معه فرس وهو يقول: ليأخذْ هذه الفرس أعزُّ أهل يثرب، فقال رجل: فلان. وقال رجل آخر: أحيحة بن الجلاح الأوسي، وقال غيرهما: فلان بن فلان اليهودي أفضل أهلها.

وقال كعب الثعلبي: مالك بن العجلان أعزُّ أهل يثرب. وكثر الكلام، ثم قبل الرسول قول كعب الثعلبي، ودفع الفرس إلى مالك بن العجلان فقال كعب: ألم أقل لكم: إن حليفي مالكاً أفضلكم؟ فغضب من ذلك رجل من الأوس من بني عمرو بن عوف يسمى سُمير بن زيد وشتمه، وافترقا، وبقي كعب ما شاء الله. ثم قصد سوق العصبة التي قلنا: إنها غربي قباء، فلما رآه سُمير فيها بقي يراقبه ويتابعه حتى وجد فرصة فقتله، وبذلك قامت بين الأوس والخزرج أول حرب بينهما هي حرب سُمير. التي جرَّت وراءها الحروب إثر الحروب، فكانت وبالاً على الأوس والخزرج وأي وبال.

---

(١) أيام العرب في الجاهلية ص ٣٢.

ثقافة الأوس والخزرج وديانتهم

يقول درهم بن زيد الأوسي يذكِّر الخزرج بما بينهم من رحم وعهود[1] مكتوبة على الصحف:

وإن مـا بيـننـا وبيـنكـمُ ... حين يقال: الأرحـامُ والصحـف

وقال قيس بن الخطيم:

لمـا بـدتْ غـدوةً جبـاهُهُمُ ... حنّت إلينا الأرحـامُ والصحف

هذان البيتان وغيرهما يدلان على معرفة الأوس والخزرج للكتابة وانتشارها بينهم ولو بشكل محدود. وذكر البلاذري[2] نقلاً عن الواقدي أن الاسلام جاء وفي الأوس والخزرج عديد من الناس الذين كانوا على معرفة بالكتابة. ولكنهم مع ذلك لم[3] يبلغوا مبلغ أهل مكة فيها، ولعل الرسول ﷺ لاحظ هذا النقص عندهم فأراد أن يستكمله بطريقة رائعة، هي فك إسار الفقراء من أسرى بدر مقابل قيامهم بتعليم صبيانهم القراءة والكتابة، علمًا بأن الأوس والخزرج آنذاك لم يكونوا وحدهم في المدينة، بل كان معهم غيرهم من المسلمين الوافدين.

والذي لا شك فيه أنه كانت لديهم معرفة خاصة بالأمور الزراعية، وهي معرفة لا تتأتّ للمجتمع الرعوي في البادية ولا للمجتمع التجاري في مكة، ولما سجلت المعارف الزراعية العادية في العصر الحديث كونت أكثر من كتاب، ونحن لا ندعي لهم معرفة النواحي المعقدة فيها، ولكننا في الوقت نفسه لا نستطيع أن نقبل أنهم كانوا ناجحين في زراعة النخيل وغيره من الأشجار عن طريق المصادفة دون

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي ص ٦٦.

(٢) مصادر الشعر الجاهلي ص ٥١.

(٣) حياة محمد ﷺ ص ٣٢.

معارف موضوعة يتوارثها الخلف عن السلف مشافهة على الأقل. وكانت لهم أيضاً معارف متصلة بما عرف لديهم من مصنوعات، وبجانب ذلك كانت لهم معرفة بجميع[1] العلوم التي كانت شائعة عند العرب آنذاك، وهي في عمومها تدور حول علم الأنساب والأنواء والتواريخ وتعبير الرؤيا وبيطرة الحيوان وسياسة الخيل، ومن خيول الخزرج المشهورة[2] القتادي، والتِّرياق، يقول إبراهيم بن بشر الأنصاري:

بين القتادي والتِّرياق نِسبتُها   جرداءُ معروقة اللَّحْيَيْنِ سُرْحُوبُ .

وكان لهم ذوق فني مرهف مثقف نستطيع أن نستشفه من القصة التالية، التي روتها أكثر كتب تاريخ الأدب واعتبرتها من الخطوات الأولى الوئيدة في النقد الجزئي، فقد دخل النابغة الذبياني إلى يثرب فقالوا له[3]: قد أقويت في شعرك، وأفهموه فلم يفهم، حتى جاؤوه بقينة فجعلت تغنيه:

أمن آل ميَّةَ رائحٌ أو مغتدي   عجلانَ ذا زاد وغيرَ مزوَّدِ

زعم البوارح أن رحلتنا غداً   وبذاك خبرنا الغرابُ الأسْودُ

وتبيّن الياء في مغتدي ومزود، وتبين الضمة في قوله: الأسود، ففطن لذلك، فغيّره، وقال: وبذاك تَنعابُ الغرابِ الأسودِ. وكان النابغة يقول: دخلت يثربِ وفي شعري شيء، وخرجت وأنا أشعر الناس.

وكان لديهم طب بدائي مخلوط بالعرافة يقوم به في الغالب النساء، وعندما أراد عبد المطلب ذبح ابنه عبدالله بعد خروج القِدح عليه كما هو معروف من كتب السيرة[4] قامت قريش كلها من أنديتها تهيب به ألاّ يفعل، وأن يلتمس عن عدم ذبحه عند إلههم هبل عذراً، وتردد عبد المطلب لدى إلحاحهم وسألهم أن يبحثوا

---

(١) المختصر في تاريخ البشر ١: ٩٩.

(٢) أنساب الخيل لابن الكلبي ص ١١٧.

(٣) الموشح للمرزباني ص ٤٦.

(٤) حياة محمد ﷺ ص ١٠٠.

معه عن طريقة تتفق مع مشاعره الأبوية في إبقاء ابنه وترضي الآلهة فلا تغضب عليه، قال المغيرة بن عبدالله المخزومي: إن كان فداؤه بأموالنا فديناه. وتشاور القوم فاستقر رأيهم على الذهاب إلى عرّافة بيثرب لها في مثل هذه الأمور رأي، وجاؤوا العرافة فاستمهلتهم إلى الغد، ثم قالت لهم: كم الدية فيكم؟ قالوا عشر من الإبل. قالت: فارجعوا إلى بلادكم ثم قرّبوا عشراً من الإبل، واضربوا عليه وعليها بالقداح، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم، فقبلوا برأيها ورجعوا إلى قومهم مقتنعين بفكرتها وعملوا بها، وكان من أمرهم ما كان.

وكانت معلوماتهم عن الأديان السماوية أكثر من غيرهم وذلك بحكم مجاورتهم لليهود، وكان لليهود أحبار وبيع ومعابد، وهم أهل وحدانية يعبدون الله على دين موسى، والتوراة كالانجيل بشرت برسول يأتي في آخر الزمان اسمه أحمد، يظهر في أرض بين حرتين، وقد كانت هذه الفكرة دافعاً لليهود ـ على رأي بعض الباحثين كما قدمنا ـ دفعهم للهجرة إلى يثرب في انتظار النبي العربي ﷺ، ولا بد أن أحاديثهم مع الأوس والخزرج كانت تأخذ طريقها إلى بعض الزوايا الفكرية والعقلية فيهم، وتتفاعل معها سلباً وإيجاباً، مما جعلهم بالإضافة إلى ظروف أخرى أسرع العرب إلى التصديق برسالة محمد ﷺ حين دعاهم إلى الإسلام. وهي ثقافة روحية عالية لها دلالات كثيرة في تحليل نفسية الأوس والخزرج عموماً لا يمكن إغفالها في أي بحث له صلة بهم في تلك الفترة، وهنا يلح على الذهن سؤال فيه كثير من الوجاهة، وهو لم لم يتهود الأوس والخزرج؟ ويرد الدكتور محمد حسين هيكل ذلك إلى سببين [1]:

أ ـ أن ما كان بين اليهودية والنصرانية من حرب، جعل اليهود في يثرب لا يطمعون في أكثر من السلامة التي تهيىء لهم الثروة والمال وازدهار التجارة.

---

(١) حياة محمد ﷺ ص ٢٠٠.

ب ـ أن اليهود يحسبون أنفسهم شعب الله المختار، ولا يرضون أن تكون لشعب غيرهم هذه المكانة، وهم لذلك لا يدعون لدينهم ولا يرضونه يخرج منهم.

وفي رأيي أن السبب الأول قد يكون معقولاً إلى حد كبير، وبخاصة إذا قبلنا أن وصولهم إلى يثرب كان هروباً بدينهم وأنفسهم من مطاردة النصارى (الروم) في الشام، وفسرنا حضور أبي جبيلة الغساني إلى يثرب أيضاً على أساس هذا العداء، فمن الخير لهم في هذه الحالة أن لا يقوموا بأية حركة تبشيرية أو دعوة إلى التهوّد.

أما بالنسبة للسبب الثاني الذي ذكره هيكل فإنني لا أطمئن إليه كثيراً، ذلك أن موسى نفسه عليه السلام الذي جاء باليهودية دعا المصريين وفرعون بالذات إلى الدخول في دينه، وبكثير من الإصرار الذي يدل عليه هذا الجدل الطويل والحجاج المكين الذي أورده القرآن الكريم، كما أن اليهودية انتشرت في بعض القبائل العربية، كما كان الحال في اليمن ونجران، وما قصة أصحاب الأخدود بغائبة عن الأذهان، وكانت اليهودية أيضاً في بني كنانة وكندة وبني الحارث بن كعب وبعض من بليّ كبني أنيف، ومن الجائز أن يكون موقفهم هذا، الذي أشار إليه الدكتور هيكل نشأ بعد ظهور المسيحية، وبعد تحوير أحبارهم في التوراة قبل ظهور الاسلام. ومحاولة تركيزهم على أن اليهودية جنس لا دين.

ومع كل هذا فقد يكون هناك سبب آخر منع الأوس والخزرج من التهود وهو هذا العداء الذي استحكمت حلقاته بينهم وبين اليهود في يثرب، وهذا الجشع والدسائس المستمرة التي كانوا يلقونها منهم. وقبل هذا وذاك لمشيئة علوية أرادها الله هي تهيئتهم لتحمل الأمانة العظمى في استقبال دين الاسلام.

نعم كان الأوس والخزرج رغم مجاورتهم لليهود قوماً وثنيين يعبدون[1]

---

(١) بلوغ الأرب ٢ : ٢٤١.

مناة، ويذكر ابن الكلبي أن مناة[1] أقدم من اللات والعزى وغيرها من الأصنام المعروفة وكلها مؤنثة[2]، وأما قوله تعالى في سورة النجم (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) فإنه[3] لم يقصد منه الترتيب الوجودي، لأن العرب سلبت أخرى مؤنث آخَر بفتح الخاء، هذا المعنى، فأصبح مرادفاً عندها في الاستعمال لكلمة مغاير، بخلاف آخِر و آخِرة بالكسر، فإن إشعارهما بالتأخير الوجودي ثابت وباق، ومن ثم عدلوا عن أن يقولوا ربيع الآخَر بالفتح وجمادى الأخرى: إلى ربيع الآخِر بالكسر وجمادى الآخرة، لأنهم أرادوا أن يفهموا التأخير الوجودي، وكانت مناة بالمشلَّل، وهو جبل يُهبط منه إلى قُدَيْد من ناحية البحر، فهي أقرب إلى مكة، ولذلك قال العَرجي:

ألا قل لمن أمسى بمكة قاطناً ومن جاء من عَمْق ونَقْب المشلَّل
دعوا الحج لا تستهلكوا نفقاتِكمْ فما حجُّ هذا العام بالمتقبَّل

وكانت العرب جميعاً تعظم مناة وتذبح حولها، وقيل سميت بذلك لأن دماء النسائك كانت تُمْنَى عندها أي تراق، وبعضهم كان يسميها مناءة، من النوء، كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها. ولم يكن أحد أشد إعظاماً لها من الأوس والخزرج، فكانوا إذا حجوا يقفون مع الناس المواقف كلها، ولا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا أتوها فحلقوا رؤوسهم عندها، وأقاموا حولها، لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك، ولإعظامهم إياها يقول عبد العزى بن وديعة المزني:

إني حلفتُ يمين صدقٍ بَرَّةٍ بمناةَ عند محلِّ آل الخزرج

وكانت أيضاً لهذيل وخزاعة، وممن يعظمها قريش. وفي سنة ثمان للهجرة النبوية الشريفة وهو عام الفتح وعلى بعد خمس ليال من المدينة المنورة بعث

---

(١) المختصر في تاريخ البشر ١: ٩٨ والطبري ٣: ٦٦. الأصنام ص ١٣. ومراصد الاطلاع ٣: ١٢٧٧.
(٢) الكشاف للزمخشري ٤: ٣٠.
(٣) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال للإمام ناصر الدين الاسكندري المالكي ٤: ٣٠.

الرسول ﷺ علياً رضي الله عنه فهدمها، وأخذ ما كان لها فأقبل به إلى النبي ﷺ، فكان فيما أخذ سيفان، كان الحارث بن أبي شمر الغساني ملك غسان أهداهما لها: أحدهما يسمى مِخْذَماً، والآخر رَسوبا، وهما سيفا الحارث اللذان ذكرهما علقمة في شعره فقال:

مظاهر سِرْبالَيْ حديدٍ عليهما　　　عقيلا سيوفٍ: مِخْذمٌ ورَسوبُ

فوهبهما النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه.

وقيل إن الذي تولى هدمها هو سعيد بن زيد الأشهلي[1].

ولا غرابة أن كانت مناة ليست في يثرب، فقد كانت قريش تعظمها أيضاً وهي ليست ببلادهم، وكانت اللات بالطائف وتعظمها قريش وغيرها، ويعظمون العزى[2]وهي بواد من نخلةَ الشامية يقال له حراض، بإزاء الغمير عن يمين المصعد إلى العراق من مكة، وذلك فوق ذات عرق إلى البستان بتسعة أميال. وإذا كانت مناة أعظم الأصنام عند الأوس والخزرج فإن اللات أعظم صنم عند ثقيف، والعزى أعظم صنم عند قريش وغطفان، ولكن هذا لا يمنع من الدينونة للأصنام الأخرى. ومن مظاهر تعظيم الأوس والخزرج للعزى قول درهم بن زيد الأوسي[3]:

إنـي ورب العـزى السـعيـدة　　　والله الذي دون بيته سَرِف

وإنما الغريب بحق أن لا تشير المراجع إلى وجود حرم أو بيت في يثرب يتقرب إليه أهلها بالنذور، مع أنها أشارت إلى بيت اللات بالطائف ونائلة وإساف وهبل بمكة فالمفترض أن تكون بها محجات ومعابد كغيرها من المدن. وهو افتراض قد تتكفل التنقيبات الأثرية بإيضاحه في يوم من الأيام.

---

(١) الطبري ٣: ٦٦.

(٢) الأصنام ص ١٨.

(٣) مراصد الاطلاع ٢: ٩٣٧ والمرجع السابق.

ومع هذه الصورة الوثنية لعبادة الأوس والخزرج فقد كان منهم من أحس ببطلان هذه العبادة وحاول الخروج عليها، تماماً كما فعل الحنفاء في مكة قبل بعثة محمد ﷺ، فهذا أبو قيس[1] صرمة بن أبي أنس: قيس بن صرمة بن مالك بن عدي بن النجار، كان قد ترهب ولبس المسوح، وفارق الأوثان واغتسل من الجنابة، واعتزل الحيّض من النساء، وهمّ بالنصرانية، ثم أمسك عنها، ودخل بيتاً له فاتخذه مسجداً، لا يدخل عليه فيه طامث ولا جنب. وقال أعبد ربّ إبراهيم، على دين إبراهيم، وكان يعظم الله، ويقول الحق، وله أشعار حسان عبر فيها عن اتجاهه الجديد، منها قوله:

سبحوا الله شرقَ كل صباح ... طلعتْ شمسه وكل هلال

عالم السر والبيان لدينا ... ليس ما قال ربُّنا بضلال

وله هوَّدت يهودُ و دانوا ... كل دين مخافةً من عضال

وله الراهب الحبيس تراه ... رهن يوم وكان ناعم بال

وله الطير تستريد وتأوي ... في وكور من آمنات الجبال[2]

يا بنِيَّ الأرحامُ لا تقطعوها ... وصلوها قصيرة من طوال

واتقوا الله في ضعاف اليتامى ... إن مال اليتيم يرعاه وال[4]

واعلموا أن لليتيم وليّاً ... عالماً يهتدي بغير السؤال

يا بني.. الأيامُ لا تأمنوها ... واحذروا مكرها ومرَّ الليالي

واجمعوا أمركم على البر والتقوى ... وترك الخنا وأخذ الحلال

ولما قدم النبي ﷺ المدينة أسلم، وحسن إسلامه.

ورجل آخر من بني عمرو بن عوف[4] هو الشاعر سويد بن صامت، كان من

---

(١) الاستبصار ص ٤٥ وبلوغ الأرب ٢: ٢٦٦ والأغاني ٢: ٢٩.

(٢) تستريد: تذهب رائدة أي تغدو وتروح.

(٣) والٍ: يقصد بالوالي الله.

(٤) الطبري ٢: ٣٥٢، وسيرة ابن هشام ١: ٤٢٦. وحياة محمد ﷺ ص ٢٠١.

كبار أشراف يثرب، حتى كان قومه يلقبونه الكامل، قدم إلى مكة حاجا فتصدى له رسول الله ﷺ ودعاه إلى الاسلام، فقال له سويد: لعل الذي معك مثل الذي معي، قال رسول الله: وما الذي معك؟ قال: حكمة لقمان. فطلب منه الرسول أن يعرضها عليه، فعرضها، فقال له: إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل، هو قرآن أنزله الله عليّ هدىً ونوراً، وتلا عليه القرآن، ودعاه إلى الاسلام، فطاب سويد نفساً بما سمع، وقال: هذا حسن. وانصرف يفكر فيه، وإن قوماً ليقولون حين قتله الخزرج يوم بعاث: إنه مات مسلماً. ومن شعره:

ألا ربّ من تدعو صديقاً ولو ترى | مقالتَه بالغيب ساءك ما يَفري
مقالتُه كالشَّهد ما كان شاهداً | وبالغيب مأثورٌ على ثُغرة النحر
يسرك باديه وتحت أديمه | نَميمةُ غشٍّ تبتري عَقَب الظَّهْر
تُبين لك العينان ما هو كاتم | من الغلِّ والبغضاء بالنظر الشَّزْر
فرِشْني بخير طالما قد بريتني | فخير الموالي من يريش ولا يَبْري

وهو الذي يقول وقد نافر رجلاً سُلَمياً من بني زِعب بن مالك في مائة ناقة إلى كاهنة من كهان العرب فقضت له، فانصرف عنها هو والسلمي، ليس معهما غيرها، فلما فرّقت بينهما الطريق، قال: ما لي، يا أخا بني سليم.. قال: أبعثُ إليكَ به، قال: فمن لي بذلك إذا فتني به؟. قال: أنا، قال: كلّا، والذي نفس سويد بيده، لا تفارقني حتى أوتَى بمالي، فاعتلقا، فضرب به الأرض، ثم أوثقه رباطاً، ثم انطلق به إلى دار بني عمرو بن عوف، فلم يزل عنده، حتى بعثت إليه سليم بالذي له، فقال في ذلك:

لا تحسبنِّي يا ابن زِعب بن مالك | كمن كنت تُردي بالغيوب وتَختِل
تحولت قِرناً إذ صُرعتَ بعزة | كذلك إن الحازم المتحوِّل
ضربتُ به إبْط الشمال فلم يَزَلْ | على كل حالٍ حدُّه هو أسفل

وهكذا كان الأوس والخزرج وثنيين من عبدة مناة على صلة بالأديان

السماوية، وفي بعضهم تطلع للتوحيد، لكنهم على كره شديد لليهود يمنعهم من متابعتهم أو الإصغاء إليهم، فكان ذلك حجازاً بينهم وبين التوحيد، إلى أن طلع البدر عليهم من ثنية الوداع.

كيانهم السياسي

بالتأمل في حياة عرب وسط الجزيرة عموماً في الجاهلية، وحياة الأوس والخزرج بصفة خاصة تبرز الحقائق الآتية:

١ - إن وسط الجزيرة العربية بما فيه الحجاز ونجد لم يكد يعرف نظام الحكومة الدائمة المستقرة. ولم يستطع أن يقيم ما يمكن أن نطلق عليه اسم الكيان السياسي المستقل.

٢ - إنهم كانوا يختارون رئيساً لهم منهم يقودهم في أمر حازب أو لفترة معينة، ويكون عادة من ذوي اليسار أو من الفرسان المحاربين، فمنطق القوة هو الذي يحدده، ومنطق القوة هو الذي يبقيه أو يقصيه.

٣ - إنهم رغم التجمعات الصغيرة ذات الفترة اليسيرة لم يشعروا بشعور المواطن الذي ينتمي إلى أرض ذات حدود، وأمة أو شعب ذي خصائص، وتراث أو عقيدة واضحة المعالم، ونظام حكم أو مفاهيم فكرية وقانونية مسطورة يدين بها ويخضع إليها. بل كانت كل تصرفاتهم محكومة بالشعور القبلي وحده وأعرافِ القبيلة وحقوق القبيلة ولا شيء غير القبيلة:

وما أنا إلا من غَزِيَّة إن غوت غويتُ وإن ترشد غزيَّةُ أرشدِ

٤ - إن مكة وهي أرقى حضارياً من يثرب لم تقم فيها الحكومة، وإنما هي عهود ومواثيق وكلمة شرف ووفاء بالعهد وخضوع للعرف أو مجلس الملأ لا غير.

٥ - إن المراجع والعرب أنفسهم كانوا كثيراً ما يتسامحون في تسمية هؤلاء

الرؤساء أو الأمراء المحدودين باسم الملوك، فكأن كلمة ملك عندهم كانت مرادفة لكلمة رئيس.

٦ - إن قيام مملكة المناذرة في الحيرة إنما كان برغبة من الفرس ودعم منهم، وملك الغساسنة في الشام لم يقم إلا برغبة الروم ومساعدة منهم، ولذلك خضعت المملكتان لهما ودارتا في فلكهما على النحو الذي يشاءان وينفذ مطامعهما ويحقق مصالحهما، وكم مرة تعرض فيها ملوك المملكتين للإقصاء أو القتل عند ظهور أول بادرة يشتمّ منها الاعتزاز بالرأي أو التعبير عن عدم الرضا.

٧ - إن يثرب لم تكن مغمورة غير معروفة عند أهل عصرها، بل إن اسمها ورد في الكتابات المعينية، وفي جغرافية بطليموس، وفي كتابات البابليين والبيزنطيين كما سبق أن ذكرنا.

٨ - إن التاريخ يحدثنا عن بعض من حملوا لقب ملك في يثرب، كالأرقم بن أبي الأرقم، وعمرو بن الإطنابة، وبعض من عقدت لهم الرئاسة أو الإمارة فيها، كمالك بن العجلان وأحيحة، وأمّة.

أ - **الأرقم بن أبي الأرقم**: هو من العمالقة سكان يثرب الأولين كما سبق أن أشرنا، وتجاوز ملكه يثرب، فملك ما حولها كخيبر وتيماء وفدك وغيرها، لذا كانت المراجع تسميه ملك الحجاز، وهو الذي وقف بقومه ضد الهجرات اليهودية الاسرائيلية إلى يثرب وغيرها، فلم يصلوا إليها إلا على جسر من الجثث وشلالات من الدماء، ويمكن أن نسجل هذا الموقف القومي ليثرب وساكنيها في ذلك الوقت المبكر من التاريخ بكثير من الإكبار والإعجاب، فقد تم هذا الحدث- على ما تذكره بعض الروايات التاريخية - على عهد موسى عليه السلام. ورغم ما يشوب تاريخ يثرب من غموض في العصر الجاهلي، فإن البحث الأثري - لو تم - فسيكشف عن كثير من الحقائق التاريخية الهامة لتلك الحقبة المجهولة، وقد أشار[1] بعض

(١) المفصل ٤: ١٣١.

الباحثين إلى وجود كتابات جاهلية فيما حول المدينة من وديان وجبال، وقد شاهدت بعضها، وهي تحتاج إلى أثريّين متخصصين ليفكوا رموزها ويحلوا ألغازها فيقدموا بذلك لنا خدمة وأية خدمة.

ب ـ مالك بن العجلان: هو رجل من الخزرج يمثل الانتفاضة على الظلم اليهودي الجائر، كما يمثل الغيرة على شرف العربي وحمايته من الانتهاك والتلوث، ثار ضد اليهود وغطرستهم وتماديهم في إذلال بني قومه من الأوس والخزرج، فقتل أمير اليهود وطاغيتهم الفطيون، ثم استعان ببني عمه من ملوك غسان لوضع الحق في نصابه والحد من طغيان الفئة الباغية من اليهود الحاقدين، وبذلك رفع شأن قومه وأعلى كلمتهم وثبت أقدامهم في أرضهم، فآثر اليهود السلامة وعاشوا تابعين، ولكن ما إن انتهت مهمته حتى عاد رجلاً عادياً ليس له إلا المكانة والجاه، مع تعرضه أحياناً من شباب القوم إلى انتقاص حقه وعدم العرفان بجميله، كما حدث في حرب سُمير. وكان فارساً شجاعاً وشاعراً معدوداً، وله قصيدة غراء عدها صاحب الجمهرة وغيره في المذهبات، وسنذكرها في الحديث عن يوم سمير.

ج ـ عمرو بن الإطنابة الخزرجي: هو عمرو بن عامر بن زيد مناة بن عامر بن مالك[1] الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج، وإنما اشتهر بأمه الإطنابة[2] وهي بنت شهاب بن زِبّان من بني القين من جَسْر، وكان فارساً شهيراً اشترك في أيام الأوس والخزرج، لكنه استطاع أن يوحدهم جميعاً تحت رئاسته ولقبه كثير من المؤرخين[3] بملك الحجاز، ومعنى هذا أنه كان يمثل دوراً من أدوار الوحدة بين الأوس والخزرج وامتداد سلطانهم على البلاد المجاورة

---

(١) معجم الشعراء ص ٨ ورغبة الآمل ٢ : ٢٣.

(٢) أصل الإطنابة: المظلة، وسير الحزام يكون عوناً له إذا قلق، قال الشاعر: (يركضن قد قلقت عند الأطانيب) وهي أيضاً سير يشد في وتر القوس العربية.

(٣) الأغاني ١١ : ١١٧ ثقافة وبلوغ الأرب ١ : ٥٧ تعليق الأثري.

ليثرب، بالقدر الذي استحق به رئيسهم أن يلقب بملك الحجاز، وكان زمانه على أيام النعمان بن المنذر، ولما بلغه أن الحارث بن ظالم قتل خالد بن جعفر، غضب لذلك غضباً شديداً،لأن خالداًكان صديقاً له، ولأن الحارث بن ظالم قتله غيلة وغدراً فقد كان خالد[1] بن جعفر نديماً للنعمان، فبينما هو ذات يوم عنده، يأكلان تمراً وزُبداً، إذ دخل عليهما الحارث بن ظالم، فدعاه النعمان إلى الأكل معهما، فقال خالد: من ذا أبيتَ اللعن؟ قال: هو سيد قومه وفارسهم الحارث بن ظالم، قال خالد متبجحاً: أما إن لي عنده يداً، قال الحارث: وما تلك اليد؟ قال: قد قتلت سيد قومك فصرت سيدهم من بعده، يعني زهير بن جذيمة، قال الحارث: وأنا سأجزيك بتلك اليد، وانقبضت نفسه وأرعدت يده، فأخذ يعبث بالتمر، فقال له خالد: أيتهنّ تريد فأولكها؟ قال الحارث: أيتهن تهمك فأدعها؟ ثم نهض مغضباً، فقال النعمان لخالد: ما أردت بهذا وقد عرفت فتكه وسفهه؟ فقال: أبيت اللعن وما تتخوف عليّ منه؟ فوالله لو كنت نائماً ما أيقظني. ثم انصرف خالد، فدخل قبة له من أدم بعد هدأة من الليل، وقام على بابها أخ له يحرسه، فلما نام الناس خرج الحارث حتى أتى القبة من مؤخرها فشقها، ثم دخل فقتله، فلما سمع عمرو بن الإطنابة بذلك قال: والله لو لقي الحارث خالداً وهو يقظان لما استطاع أن ينظر إليه، ولكنه قتله نائماً، ولو أتاني لعرف قدره. ولما علم الحارث بذلك توعّده، ووصل خبر وعيده إلى عمرو فغضب لذلك، ثم دعا بشرابه ووضع التاج على رأسه ودعا بقيانه فتغنَّين له بشعر وضعه في هذه الحادثة وهو[2]:

علِّلاني وعللا صاحبيَّا ... واسقياني من الْمُرَوَّقِ ريَّا

إن فينا القيان يعزفن بالدف ... لفتياننا وعيشاً رخيا

يتبارين في النعيم ويصبُبْن ... خلال القرون مِسكاً ذكيا

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ١: ١٨٣.

(٢) الأغاني ١١: ١١٧ ثقافة وعيون الأخبار ١: ١٨٤.

إنـمـا همُّهنَّ أنْ يتحلَّيْن سُموطاً وسنـبُـلاً فـارسـيـا

مـن سـمـوط الـمـوجـان فُصِّل بالشَّذْر فأحسِنْ بحَلْيِهِنَّ حُلِيا

وفـتى يـضـربُ الـكـتـيبـةَ بالسيف إذا كـانت السيوفُ عِصِيّا

إننا لا نسرُّ في غير نجد إن فـيـنـا فـتى خـزرجـيا

يدفع الضيمَ والظلامة عنها فتجـافَيْ عنه لـنـا يـا مَنِيّـا

أبلغِ الحـارثَ بـن ظـالـم الرعديدَ والـنـاذرَ النذور عـليّـا

إنـمـا يـقـتـلُ الـنِّـيـام ولا يقتلُ يـقـظَانَ ذا سلاح كـمِيّا

ومـعي شِـكَّـتي مـعـابِـلُ كالجمر وأعـددتُّ صـارمـاً مَشـرفيّـا

لـو هبطتُّ البلادَ أنسيتُـك القتلَ كمـا يُنسي النسيء النسيّـا

ولما بلغ هذا الشعر الحارث ازداد حنقاً وغيظاً فسار حتى أتى ديار بني الخزرج، ولما جن الليل دنا من قصر عمرو بن الإطنابة ونادى: أيها الملك... أغثني... فإني جار مكثور[1] وخذ سلاحك ـ وكان عمرو قد آل على نفسه ألاّ يستنجد به رجل بليل إلا أنجده وأجابه ولم يسأله عن اسمه ـ فأسرع إلى إجابته وخرج معه، فلما ابتعد عن منازل يثرب عطف الحارث وقال: أنا أبو ليلى فخذ سلاحك فإني مقاتلك، فاعتركا ملياً من الليل، وخشي عمرو أن يقتله الحارث، فعمد إلى الحيلة، فقال له: يا حار: إني شيخ كبير، وإني تعتريني سِنة من النوم، فهل لك في تأخير هذا الأمر إلى غد؟ فقال: هيهات.. ومن لي به في غد؟ فتجاولا ساعة ثم عمد عمرو إلى حيلة أخرى، فألقى الرمح من يده وقال: يا حار.. ألم أخبرك أن النعاس قد يغلبني وها أنت ترى الرمح قد سقط من يدي ـ فاكفف.. فكَف، قال: أنظِرني إلى غد، قال الحارث: لا أفعل، قال: فدعني

(١) مكثور: أي غلب علي أعدائي بكثرتهم.

آخذ رمحي، قال خذه، قال: أخشى أن تعجلني عنه، أو تفتك بي إذا أردت أخذه، قال: وذمة ظالم لا أعجلتُك ولا قاتلتك ولا فتكت بك حتى تأخذه، قال: وذمةِ الإطنابة لا آخذه ولا أقاتلك، فانصرف الحارث إلى قومه وهو يقول:

اعـزفـا لـي بلذة قـينـتـيَّـا ... قبـل أن يُبكـر المنـون عليـا
قبل أن يُبكر العـواذل إنــي ... كنت قدْماً لأمرهـنَّ عصيّا
ما أبالي أراشداً فاصبحانـي ... حسَبْتني عواذلـي أم غوِيّا
بـعـد الاَّ أصرَّ لله إثـمـاً ... فـي حياتي ولا أخون صفِيـا
مـن سلافٍ كأنهـا دمُ ظبْـي ... في زجـاج تخـالُـه رازقيّا[1]
بلغتنـا مقـالـةُ المرء عمـرو ... فـأنِفنـا وكـان ذاك بديّـا
قـد هَممنـا بقتله إذْ بـرزنـا ... ولـقـيـنـاه ذا سـلاح كِـمـيـا
غيـر مـا نائـم تعلل بالحُلْـ ... ـم مُعِداً بـكـفـه مشـرفـيـا
فـمـنـنَّـا عـليـه بـعـد علوٍّ ... بـوفـاء وكنتُ قِـدْمـا وفيـا
ورجعنـا بالصفح عنـه وكان الـ ... ـمنُّ منا عـليـه بعـدُ تلِيـا

ومن شعر ابن الإطنابة في الفخر بقومه:

إنـي من القوم الذين إذا انتدَوْا ... بدأوا بحق الله ثم النائـل[2]
المـانعين من الخنا جـاراتِهمْ ... والحاسدين على طعام النازل
والخـالـطين فقيـرَهُمْ بغنيهمْ ... والبـاذلين عـطاءهم للسائــل
الضاربين الكبش يَبْرق بَيْضُه ... ضرب المهَجْهِج عن حياض الآبل
والقاتلين لدى الوغى أقرانَهمْ ... إنَّ المنية من وراء الـوائـل

---

(١) ضرب من عنب الطائف أبيض طويل الحب.

(٢) معجم الشعراء ص ٨ وبلوغ الأرب ١: ٥٧.

والقائلون فلا يُعاب كلامُهمْ يوم المقامة بالقضاء الفاصل
خُزْرٌ عيونُهمُ إلى أعدائهمْ يَمشون مَشْيَ الأُسد تحت الوابل
ليسوا بأنكاسٍ ولا ميلٍ إذا ما الحرب شُبَّتْ أشعلوا بالشاعل

وبهذا النص عده حسان بن ثابت أشعر الناس عندما سأل سائل: من أشعر الناس؟ وإني أتساءل أي حق لله يعنيه الشاعر؟ والاسلاميون وحدهم هم الذين يعلمون أن في أموالهم حقاً للسائل والمحروم، فلعله من إضافة الرواة، ثم ما هذا التشابه في صدور بعض الأبيات مع لاميَّةِ حسان بن ثابت في مدح الغساسنة والتي منها:

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الأول

وذلك في قول ابن الإطنابة: (والخالطين فقيرهم بغنيهم) وقوله: (الضاربين الكبش يبرق بيضه)، فقد ورد الصدران كلاهما في قصيدة حسان المشار إليها.

أقول هذا مع علمي أن الأستاذ البحاثة محمد بهجة الأثري في تعليقه على بلوغ الأرب للألوسي لم ينبه إليه، فقد يكون من باب وقع الحافر على الحافر كما قال القدماء في قول امرىء القيس:

وقوفا بها صحبي علي مطيُّهمْ يقولون: لا تهلك أسى وتجمّل

وقول طرفة:

وقوفاً بها صحبي علي مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلّد

ولكن هذا الشاعر الملك المعروف بالفروسية والنجدة الذي توقفنا في ثلاث أبيات من مقطوعته السابقة، له أبيات أخرى من الشعر الرفيع بلغت حد التواتر، واشتهرت على كل لسان، ولا يكاد يخلو منها كتاب من كتب الأدب القديمة وهي قوله:

أبت لي عِفّتي وأبى بلائي وأخذي الحمدَ بالثمن الربيح[1]
وإكراهي على المكروه نفسي وضربي هامةَ البطل المُشيح
وقولي كلما جشَأت وجاشتْ: مكانِك تُحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثرَ صالحاتٍ وأحمي بعدُ عن عِرض صحيح

وزاد ابن قتيبة بعد البيت الأول:

أبت لي أن أقضّي في فعالي وأن أغضي على أمر قبيح

وزاد الشيخ سيد المرصفي بعد البيت الأخير:

بذي شُطَبٍ[2] كلون الملح صافٍ ونفسي لا تُقرُّ على القبيح

وروى غير واحد: وقولي كلما جشأت لنفسي، واستحسنه صاحب سمط اللآلي من وجهين: أحدهما: إن جشأت وجاشت بمعنى واحد، ومعناهما الارتفاع. والثاني: رجوع الضمير على مذكور. ومن هذا البيت أخذ قَطريُّ بن الفُجاءة قوله:

أقول لها وقد طارت شَعاعاً من الأبطال: ويحك لا تراعي
فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذي لك لم تطاعي

وقال معاوية بن أبي سفيان: لقد وضعت رجلي في الركاب يوم صِفِّين وهممت بالفرار، فما منعني من ذلك إلا ذكر قول الإطنابة: أبت لي عفتي وأبى بلائي . . . . إلى آخر الأبيات.

---

(١) معجم الشعراء ص ٨ والأمالي للقالي ١: ٢٥٨ وسمط اللآلي للبكري ٢: ٥٧٤ وعيون الأخبار ٢: ١٩٣ والعمدة ١: ٢٩ والخصائص لابن جني ٣: ٣٥، والطبري ٥: ٢٤ وبلوغ الأرب ١: ١٠٥ ورغبة الأمل للمرصفي ٢: ٢٣ والوحشيات لأبي تمام ص ١١١ وغيرها.

(٢) ذي شطب: سيف ذو طرائق في متنه.

ومما يؤسف له أن هذا الرجل صاحب الشأن الكبير في الملك والفروسية والشعر، قد ناله من الحيف والنسيان ما نال غيره من شعراء الأوس والخزرج وعظمائهم، بينما غيره ممن هو أقل منه خطراً يظفر بالشهرة الواسعة، ويبدو أن الحظ يصيب الأموات كما يصيب الأحياء، ولله في خلقه شؤون.

د ـ أحيحة بن الجلاح

هو أبو عمرو أحيحة بن الجلاح بن الحريش[1] بن جحجبى بن كُلْفة بن عوف ابن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس. وهو يمثل الإمارة الأوسية، فقد كان سيدهم على الاطلاق زمن تبع الأصغر أبي كرب بن حسان ملك اليمن، ولكنه في الواقع باسم الأوس والخزرج وقف وقفته الصامدة ضد محاولة تبّع غزو يثرب، وقصة ذلك أن تبعاً سار في طريقه إلى المشرق على يثرب، وخلف فيها أحد أبنائه وسار إلى الشام ثم إلى العراق ونزل فيها بالمشقَّر، فبلغه أن ابنه قتل غيلة في يثرب، لأن اليثربيين اعتبروا وجوده بينهم مظهراً من مظاهر الخنوع لتبع، وكان الأوس والخزرج أشد الناس إباء وتمنعاً، فرجع تبع مسرعاً إلى يثرب وهو يقول:

يا ذا المعاهد ما تـزال ترود	رمَدٌ بعينك عـادها، أم عُـودُ
منعَ الرُّقادَ فما أُغمِّض ساعــةً	نبَطٌ بيثــرب آمنــون قـعـود
لا تُسقني بيديك إن لم تَلْقها	حرباً كأنَّ إشاءها مجــرود[2]

ثم أقبل حتى دخل يثرب وهو عازم على تخريبها وقطع نخلها واستئصال أهلها، فنزل بسفح أحد عند الجرف، وأرسل إلى أشرافها ليأتوه، ومنهم زيد بن ضُبيْعة بن زيد بن عمرو بن عوف، وابن عمه زيد بن أميّة بن زيد، وابن عمهما زيد ابن عبيد بن زيد، وكانوا يسمَّون الأزياد، وأحيحة بن الجلاح، وطمع الأزياد في أن

---

(١) الأغاني ١٥ : ٣٣ والمعاهد: الموضع الذي كنت تعهده. وقد تكون ذو المعاهد من ألقاب ملوك اليمن. وترود: تطلب أي ما تزال تطلبها.

(٢) الإشاء: صغار النخل. ومجرود: منزوع.

يملَكهم على أهل يثرب، وعزموا على الخروج إليه، ولكن أحيحة حذرهم من ذلك، ودلهم على أنه إنما يقصد قتلهم انتقاماً لابنه، وقال:

ليت حـظي من أبي كـرب ... أن يــرد خـيـرُه خـبـلَـه

فذهب بيته هذا مثلاً. ولكن قومه أكرهوه على الخروج إليه، فخرج ومعه قينة له وخباء وخمر، فضرب الخباء وجعل فيه القينة والخمر، ثم استأذن على تبّع فعرف في عينيه الشر، فاستأذن للخروج، ودخل خباءه فشرب الخمر وأمر القينة أن تغنيه شعراً صنعه في حينه، وجعل تبع عليه حرساً وكانت قينتهُ تدعى مُليكة. ومن هذا الشعر قوله:

يشتاق شوقي إلى مليكَة لـو ... أمست قـريباً ممـن يـطالبها

لِتَبْكني قيـنـةٌ ومِـزهـرهـا ... ولْتبكني قهـوةٌ وشـاربُـهـا

ولتبكني نـاقـةٌ إذا رحلـتْ ... وغاب فـي سَرْدَحٍ مناكبُها[1]

ولتبكني عُصبةٌ إذا اجتمعتْ ... لم يعلم النـاس ما عـواقبُهـا

فلما نام الحرس تسلل من الخباء، وترك فيه الجارية وأوصاها إن هم طلبوه أن تقابل الملك وتقول له: إن أحيحة يقول لك: اغدر بقينة أودَعْ ـ فذهبت كلمته مثلاً ـ وعدا تبع على الأزياد فقتلهم، وطلب أحيحة فلم يجده، فأرسل وراءه كتيبة فوجدوه قد تحصن بأطمه، فحاصروه ثلاثاً، يقاتلهم بالنهار ويرميهم بالنبل والحجارة، ويرمي إليهم بالتمر ليلاً، فلما مضت الثلاث رجعوا الى تبع وذكروا له ما كان بينهم وبينه، فتركه وأمرهم بإحراق نخله، ثم شبت الحرب بين تبع وجميع الأوس والخزرج، وتحصنوا في آطامهم، وجاء جندي من رجال تبع يجذ نخلة فنزل له رجل من بني النجار وقتله بمنجل كان معه ثم ألقاه في بئر وقال:

جـاءنـا يـجـذُّ نـخـلتـنـا ... إنـمـا الـنـخـل لـمـن أبّـرهْ

---

(١) السردح: الأرض اللينة المستوية.

فذهبت كلمته مثلاً، وكان على بني النجار عمرو بن طلَّة[1] من بني معاوية بن مالك بن النجار، ثم إن حَبرين من اليهود على ما تقول بعض الروايات حذراه من تخريب يثرب، لأنها مهاجر النبي العربي، فأمسك عنها، فقال الحارث بن عبد العزى الخزرجي يمدح ابن طلَّة:

أصحا أم ما انتحى ذِكرَه ... أم قضى من لذة وطرَهْ
بعد ما ولّى الشباب وما ... ذكرت شبَّانُه عُصُرَهْ

إلى أن يقول:

فيهمُ عمرو بن طلة لا ... هُمَّ فامنح قومه عُمُرَهْ
سيد سامى الملوكَ ومن ... يدْعُ عَمْراً لا يجدْ قَدَره

وإذا كان عمرو بن طلة الخزرجي أسهم باسم قومه في صد الغزو التبعي فإن الرأي الصائب والقيادة الفعلية كانت لأحيحة منذ اللحظات الأولى، وقال أحيحة يرثي زملاءه الأزياد:

ألا يا لهْفَ نفسي أيَّ لهْف ... على أهل الفَقارة كل لهف[2]
مضوا قصْدَ السبيل وخلَّفوني ... إلى خلْف من الأبرام خلفي

وسيأتي في الحديث عن الأيام ما يؤكد لأحيحة هذه المكانة بين قومه الأوس بخاصة، وفي يثرب بعامة.

هـ ـ أمة بن حرام

تحدثنا عنه وعن مواقفه عند الكلام عن منازل قومه بني سلمة من الخزرج.

---

(١) سيرة ابن هشام ١: ٢١. والأغاني ١٥: ٣٦ ثقافة: ومعجم الشعراء ص ٥٥

(٢) الفقارة: أصلها عظام العمود الفقري، وهنا شبهت نتوءات الحرة بالفقار.

وبعد: فبالرغم مما يبدو في هذا الفصل من إسهاب فإني أشعر أنني أتعمد كبح جماح القلم وأقسره على التوقف، ذلك أن ما تعرضنا له وشيج الصلة بالفصول التالية من البحث، فهو يكشف بعض الجوانب الهامة التي تساعد من قريب أو بعيد على تحقيق الغرض الأول من هذا البحث الوجيز، والشيء قد يطلب لغيره كما يطلب لذاته، مع أن ما أوردنا لا يخلو من فائدة تاريخية أو إلمامة أدبية تستحق التأمُّل والاهتمام، وتزداد قيمة ما أوردنا إذا عرفنا أن هذا العمل هو الأول من نوعه في تاريخ المدينة المنورة الأدبي، كما أنه محاولة جديدة في ميدان الحروب والأيام، ولهذا السبب نفسه يغتفر ما عسى أن يكون فيه من هنات.

***



الفصل السادس

أيام الأوس والخزرج

وما ورد فيهما من أشعار

إذا القوم عدوا مجدهم وفعالهم ... وأيامهم عند التقاء المناسك

وجدت لنا فضلاً يُقر لنا به ... إذا ما فخرنا كلٌّ باق وهالك

يفخر حسان بن ثابت بأيام قومه في البيتين السابقين في ثقة واعتزاز، ويدعي لها الشهرة والذيوع، وأن الجميع يسلمون بها، ويعرفونها لهم، ويقرون بفضلهم فيها، عند التقاء مناسكهم واجتماع حشودهم. فما هذه الأيام التي استحقت هذه الإشادة في زعم حسان؟

يذكر لسان العرب في مادة يوم أن أيام العرب تعني وقائعها وحروبها، وسميت كذلك لأن الحروب كانت نهاراً، واليوم عندهم هو النهار، من طلوع الشمس إلى غروبها.

وللعرب أيام كثيرة في الجاهلية وأخرى إسلامية وأموية. وقد شغلت هذه الأيام حيزاً كبيراً من حياة العربي ذهنا وأحاديث وتدويناً:

فلم تكد تفارق ذهنه زمن الإحن والحروب والعصبيات القبلية في الجاهلية والاسلام، ولم يستطع تفكيره أن يتخلص من سلطانها، فهي أمام عينيه أمثلة عملاقة للبطولة والفروسية وإدراك الثأر، ونماذج رائعة للشرف والإباء والنجدة والشهامة، إلى غير ذلك من المعاني الكثيرة التي يزخر بها تفكير العربي، وتتفق مع مزاجه وتكوينه، فالعربي على مر التاريخ إمابطل أو محب للبطولة، يقيم لها في نفسه محراباً، ويحفها بالإعزاز والتقدير.

وكما شغلت الأيام ذهن العربي وتفكيره، وضبطت البطولة تحركاته وتصرفاته، واستنفدت قواه وقدراته، فإنها كانت مجالاً لأحاديثه، يرويها الخلف عن السلف، ويتناقلها الرواة جيلاً بعد جيل، حتى أكسبوا كثيراً من تلك الأيام جلالاً من الأساطير، وأضافَ إليها الرواة والأخباريون إضافات كثيرة في العصور المختلفة، مما جعل منها مورداً ثرياً للقصص الطريف، الذي كان يجلس الناس لسماعه باستمتاع من أفواه القصاصين، وكانت الأحاديث الجادة منها عن تلك الأيام تؤدي أحياناً إلى إثارة العصبيات وتعود بهم إلى جاهليتهم الأولى، كما حدث ذات مرة بين الأوس والخزرج بعد إسلامهم، قال ابن إسحاق[1]: مرَّ شاس ابن قيس اليهودي- وكان شيخاً مسنّاً- على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم، فغاظه ما رأى من ألفتهم ومودتهم، بعد الذي كان بينهم من حروب وأيـام في الجاهلية، أرّثت بينهم العداوة والتنافر، وزرعت في قلوبهم البغضاء والأحقاد، فقال في نفسه: ها أنذا أرى بني قيلة قد اجتمع ملؤهم بهذه البلاد، لا والله، ما لنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار، ثم فكر في أسلوب للوقيعة بينهم، فأمر شاباً يهودياً أن يندس بينهم ويذكرهم بيوم بعاث وغيره من أيامهم، وينشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيها من أشعار. ومن ذلك قول أبي قيس بن الأسلت في يوم بعاث الذي كان للأوس على الخزرج، وقُتل فيه رئيس الأوس يومئذ حضير بن سماك الأشهلي، ورئيس الخزرج عمرو بن النعمان البياضي:

على أن قـد فُجعتُ بذي حِفاظٍ فعاودني لـه حـزن رصيـنُ
فـإمَّـا تقتـلوه فـإن عمـراً أعضَّ بـرأسـه عضبٌ سَنيـن

ففعل الشاب ذلك، فقام أوس بن قَيْظَى، أحد بني حارثة بن الحارث من الأوس، وجُبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج يتقاولان، وقال أحدهما

---

(١) سيرة ابن هشام ١: ٥٥٥ والاصابة ١: ٨٧.

للآخر: إن شئتم رددناها جذعة، فغضب الفريقان جميعاً وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة، يعنون الحَرَّة. السلاحَ السلاحَ..! ولم يتمكنوا من السيطرة على تصرفاتهم إزاء هذا الموقف رغم إسلامهم وصحبتهم للرسول ﷺ، فخرجوا إلى الحرة بنية القتال، فبلغ رسول الله ﷺ خبرُهم فخرج اليهم فيمن معه من المهاجرين، حتى جاءهم، فقال: يا معشر المسلمين، اللهَ اللهَ.. أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله للاسلام، وقطعَ به عنكم أمر الجاهلية، وأكرمكم به واستنقذكم به من الكفر وألف به بين قلوبكم؟ فعرف القوم أنها نزعة شيطانية فبكوا، وعانق بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله سامعين مطيعين.

أما عن التدوين فلعل أبا عبيدة[1] كان أسبق الكاتبين في ذلك، وعن مؤلفاته أخذ الآخرون ممن ألّفوا في حروب العرب وأيامهم. وكان بعضهم يذكرها حسب ورودها في الأشعار، دون مراعاة للترتيب التاريخي أو القبلي. وقد رتبها أحمد بن عبد ربه عندما تحدث عنها في كتابه (العقد الفريد) على أساس قبلي، فتكلم عن حروب قيس وأيام بكر وتميم.. الخ. وذكر بعض رجالاتها وبعض ما قيل فيها من أشعار، ولكن[2] ابن الأثير المتوفى سنة (٦٣٠ هـ) أورد في تاريخه أيام العرب في الجاهلية مرتبة على أساس تاريخي، وأورد بعض ما قيل فيها من شعر بإيجاز، ولكنه لم يحددها بالسنوات، ومع ذلك فإن كتابه يعد من المصادر الهامة لأية دراسة تتصل بالأيام. وفي العصر الحديث نجد محمد أبو الفضل إبراهيم وزميليه قد اهتموا بالأيام اهتماماً خاصاً وألّفوا في ذلك كتابين أحدهما بعنوان (أيام العرب في الجاهلية) والآخر تحت عنوان (أيام العرب في الاسلام) اقتصروا فيهما على ذكر الأيام المشهورة التي مكنتهم المراجع من تفصيل حوادثها وذكر أسبابها ورواية أشعارها وقصائدها، إذ كان غرضهم من الكتابة عنها كما

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ٣ ١٨٢.

(٢) تاريخ النقائض ص ٦٢.

حدوده[١]: (خبراً يروى أو قصة تحكى أو مثلاً يؤثر أو شعراً يذكر).

وكان القدماء يهتمون بالأيام ويعتبرونها مصدراً خصباً من مصادر التاريخ وينبوعاً صافياً من ينابيع الأدب، ونوعاً طريفاً من أنواع القصص، بما اشتملت عليه من الوقائع والأحداث، وما روي أثناءها من شعر ونثر ومأثور الحكم والأمثال، وبارع الحيل ومصطفى القول ورائع الكلام، فلم يكن في مستطاع أي أديب تجاوزها ولا في مكنة باحث أو مؤرخ تجاهلها، فجذور الأدب والتاريخ واللغة إنما ترسخ بمعرفتها وتتسع بالاحاطة بها، فكم من موقف تاريخي إسلامي لا يمكنك تفسيره أو ردّه إلى أسبابه الحقيقية إذا لم تكن على علم بتلك الايام، وكم من نص أدبي لا تستطيع فهمه أو إدراك أجوائه إن لم تأخذ بقدر من دقائقها وأسرارها. ولذلك جعلها القدماء من العلوم الضرورية لمعاصريهم، يثقف بها الخاصة والملوك أبناءهم ويزود بها الجميع علمهم وآدابهم.

وقد اتخذ منها بعض المحدثين منبعاً للقصص الأدبي الرفيع، يغترفون منه ويودعونه بعض أفكارهم واتجاهاتهم، واتخذوا من جوه المأسوي مادة لبعض ملاحمهم الشعرية واستمدوا منه لمسرحياتهم العديدة، ولا يزالون، وكان لقيام تلك الأيام بين القبائل العربيةأسباب منها المعقول ومنها المرذول، ومن ذلك[٢] الطمع والرغبة في النهب والسلب، ومنها الغضب للكرامة والشرف، ومنها ما يكون راجعاً للوشايات والوقيعة التي يقابلها الطرفان بالتسرع وعدم التأكد من صحتها. وربما كان السبب كثرة المفاخرات والملاحاة التي توغر الصدور وتثير الحفائظ، كما كان الثأر وحب الانتقام ورفع الضيم والتشبث بالحرية وحماية الجار من أبرز أسبابها الناجمة عما ذكرنا قبلها من أسباب، فحرب سمير التي كانت بداية الشر بين الأوس والخزرج ـ مثلاً ـ كان سببها الأساسي الملاحاة والمفاخرة،

---

(١) أيام العرب في الجاهلية ص (ل).

(٢) تاريخ النقائض ص ٦٣.

وإن كان سببها المباشر حماية الجار.

ويلاحظ أن نتائج هذه الحروب والأيام تكون غالباً في صالح المظلوم وتحل عواقبها الوخيمة بالظلمة والباغين، فعلى الباغي تدور الدوائر. ففي يوم بعاث ـ مثلاً ـ وهو آخر يوم حصل بين الأوس والخزرج دارت الدائرة فيه على الخزرج وهم قوم أذلوا بني عمهم الأوس، حتى ألجأوا بعضهم إلى ترك بلدهم ومربع طفولتهم وصباهم. وتكون الغلبة أحياناً قليلة للعادي المهاجم، للحق التاريخي أو لحبك القصص، كحرب حاطب بين الأوس والخزرج أيضاً.

وكانت أيام القحطانيين فيما بينهم كأيام البُرْدان والكُلاب الأول وحليمة واليحاميم وأيام الأوس والخزرج: معرضاً لأطماع الأمراء وعتوهم، ولمظالم الأقربين وإحنهم ولتعارك العرب في سبيل غيرهم من الفرس والروم كما هو الشأن في يوم حليمة بين المناذرة والغساسنة.

ومن الملاحظ أيضاً أن المجتمع التجاري في مكة نجا من بعض شرور هذه الأيام، فقد كان لقريش أيام الفجار مع غيرهم، ولكن لم تقم حروب بين البطون القرشية بين الإخوة وأبناء العمومة، كما هو الحال في المجتمع الرعوي والمجتمع الزراعي. وقد كان متوقعاً ألّا تنشب الحروب بين الأوس والخزرج في المجتمع الزراعي الذي كانت طبيعة الأمور تقضي ببعده عن مثل هذه المواقف، ولكن يبدو أنهم رغم تحضرهم النسبي واستقرارهم لم يتخلصوا من الروح الأعرابية تخلصاً تاماً؛ بل بقوا محافظين على أكثر سجاياها، ومنها النزعة إلى التخاصم والتقاتل، فألهتهم هذه النزعة عن الانصراف الكامل المثمر إلى غرس الأرض والاشتغال بالزراعة كما فعل اليهود، وعن التقدم والتطور والاشتغال بالتجارة بمقياس كبير على نحو ما فعل أهل مكة، وقد بقي الحيان يتخاصمان حتى جاء الرسول ﷺ إليهما، فأمرهما بالكف عنه، ووجههما وجهة أخرى أنستهما الخصومة العنيفة التي كانت بينهما. نعم كان أهل مكة في المجتمع التجاري أكثر تحضراً وتهذيباً وميلاً إلى الهدوء والاستقرار، تحدث بينهم الخلافات كما تحدث في أي مجتمع

فيعالجونها بمنطق الحكمة والروية وتبادل الرأي، ولا بد هم واصلون إلى رأي تقتنع به جميع الأطراف وينتهي به الخلاف، ثم تعود الحياة إلى مجراها الطبيعي وتتصافى القلوب وتتشابك الأيدي وتخلو النفوس من الضِغائن.

أصبح الناس يوماً بمكة وعلى دار الندوة مكتوب[1]:

ألهى قصياً[2] عن المجد الأساطيرُ ورشوةٌ مثل ما تُرشى السفاسيرُ[3]

وأكلُها اللحمَ بحتاً لا خليط له وقولُها رحلتْ عَيْرٌ مضتْ عَيْر

فأنكر الناس ذلك، وقالوا: ما قالها إلا ابن الزبعْرى، ولما أجمع على ذلك رأيهم مشوا إلى بني سهم - قوم ابن الزبعرى - وذكروهم ما يقتضي عرف قريش من إنكار للملاحاة والمهاجاة بين بطونها، لما في ذلك من تأريث للعداوة والبغضاء وحمْلٍ على المخاصمة والتدابر، وقالوا لبني سهم: ادفعوه إلينا نحكم فيه بحكمنا، قالوا: وما الحكم؟ قالوا: نقطع لسانه. . قالوا: فشأنكم، واعلموا والله أنه لا يهجونا رجل منكم إلا فعلنا به مثل ذلك، وكان الزبير بن عبد المطلب يومئذ غائباً جهة اليمن، وهو شاعر بني عبد مناف، فانتحت بنو قصي بينهم وتبادلوا الرأي، فقالوا: لا نأمن الزبير إن بلغه ما قال هذا، أن يقول شيئاً، فيفعل به ما اعتزمنا فعله بابن الزبعرى، وكانوا أهل تناصف، فأجمعوا على تخليته، لكن حذروه من الآثار السيئة التي يتركها مثل هذا الشعر في النفوس، فقال بعض الناس، من جناة الغي لابن الزبعرى، يوغرون صدره على قومه الذين أسلموه للعقاب: أسلمك قومك ولم يمنعوك، ولو شاؤوا منعوك، فلم يصغ لكلامهم الخبيث الذي أرادوا منه الصيد في الماء العكر، وقال:

---

(١) طبقات الشعراء ١: ٢٣٥.

(٢) أراد بقصي: عبد مناف.

(٣) السفاسير: جمع سفسير وهو السمسار. وأراد بالرشوة: ما فرضه قصي على قريش في أموالها عند كل موسم حج من خراج يصنع به الرفادة.

لعمرك ما جاءت بِنُكْر عشيرتي وإن صالحتْ إخوانها لا ألومُـها

بِـوُدِّ جنـاة الغيِّ أن سيـوفَنـا بـأيْماننـا مسلولـةً لا نَشيعُهـا

وإذا كان هذا شأن مكة فإن شأن يثرب كما قلنا اختلف عن ذلك، فقد وقعت بين أهلها حروب متتابعة، وما كانت لتقع لولا هذه العصبية الضيقة، يثيرها في الغالب أفراد لا منازل كبيرة لهم في المجتمع، فإذا وقع على أحدهم اعتداء نادى قومه للأخذ بثأره، ورغم ذلك نجد لديهم نمطاً يختلف عما كان عليه الحال في المجتمع الرعوي، فكثيراً ما قام بعضهم يذكِّر بالرحم والقربى، عله ينهنه من شرة الحروب، ويصطلم الضغائن، يقول قيس بن الخطيم[1]:

إنـا ولـو قدَّمـوا التـي عَلِموا أكبـادُنـا مـن ورائهم تَجِفُ

لمَّـا بـدَتْ غـدوةً جبـاهُهُمُ جنَّتْ إلينا الأرحـامُ والصُّحـفُ

وينطبق عليهم في الغالب قول البحتري:

إذا احتربتْ يوماً ففاضت دماؤ هـا تذكَّرتِ القُربى ففاضتْ دموعها

ودامت حروب الأوس والخزرج على ما تذكر بعض الروايات، مائة سنة أولها حرب سمير وآخرها حرب بعاث قبل هجرة الرسول ﷺ بخمس سنين، والترتيب الزمني لتلك الحروب على ما ذكره ابن الأثير، كالآتي: حرب سُمير - حرب كعب ابن عمرو - يوم السَّرَّارة - حرب ربيع الظفري - حرب فارع - حرب حاطب ويتبعها (يوم الربيع ويوم البقيع - حرب الفجار الأول - يوم معبِّس ومضرِّس - يوم الفجار الثاني) - يوم بعاث.

وكانت أيامهم من أشهر حروب الجاهلية، لأنها اقترنت بذكر جماعة من كبار الشعراء الجاهليين والمخضرمين من العرب واليهود؛ كقيس بن الخطيم،

---

(١) الديوان ص ١١٦.

وأحيحة بن الجلاح، وأبي قيس بن الأسلت، وحسان بن ثابت، وعبدالله بن رواحة، وكعب بن الأشرف، والربيع بن أبي الحقيق وغيرهم، ولأن يثرب كانت مرتاداً للناس من كل مكان.

حرب سُمير

ظل الأوس والخزرج بعد انتصارهم على اليهود بمساعدة أبي جبيلة الغساني ورئاسة مالك بن العجلان السالمي الخزرجي: على اتفاق ووئام تامين، وأصبحت لهم الرئاسة في يثرب وانخذل اليهود، وانصرف الحيان للبناء والتعمير، ففلحوا الأرض وعمروا البساتين واستنبتوا النخل، فكثرت عندهم الخيرات وعم بلادهم الرخاء، فلم يحلُ ذلك لليهود، ولم يرض ما في نفوسهم من حقد دفين فاستعملوا ما في جعبتهم من حيلٍ لإيغار الصدور وإثارة البغضاء بين الحيين، ليصفو لهم الجو ويتحكموا في يثرب عن طريق التجارة والثراء والمال، ما دام قد فاتهم الحكم والسلطان. فحرب سمير وهي الحرب الأولى بين الحيين مهد لها اليهود بخبثهم وتخطيطهم الخاص، هذا هو السبب الخفي، أما السبب المباشر الظاهر لهذه الحرب فقد أشرنا إليه في كلام سابق[1]، وهو أن وافداً من ذبيان اسمه كعب الثعلبي نزل على مالك بن العجلان، واختار الإقامة في يثرب حليفا له، وخرج كعب ذات يوم إلى سوق الجسر (سوق بني قينقاع) فرأى رجلاً من غطفان بيده فرس ينادي في الناس: ليأخذ هذه الفرس أعزُّ أهل يثرب فقال رجل: فلان، وقال رجل آخر: أحيحة بن الجلاح الأوسي، وقال غيرهما: فلان بن فلان اليهودي أفضل أهلها. وقال كعب الثعلبي: مالك بن العجلان الخزرجي أعز أهل يثرب، وكثر الكلام بينهم، ثم إن الرسول قبل قول كعب الثعلبي، ودفع الفرس إلى مالك بن العجلان. فقال كعب: ألم أقل لكم: إن حليفي مالكاً أفضلكم، فغضب من ذلك رجل من الأوس من بني عمرو بن عوف اسمه سمير بن زيد، وشتم كعباً ثم خرج

---

(١) الكامل لابن الأثير ١:٤٠٣.

من السوق. وبنو عمرو بن عوف كما نعلم فرع من الأوس يسكنون قباء، وكان يسكن معهم فرع أوسي آخر هم بنو جحجبى، الذين منهم الشاعر الفارس أحيحة ابن الجلاح، في أول الأمر، ثم انتقلوا غرباً إلى العصبة كما قدمنا. أما بنو سالم بن عوف الذين منهم الفارس الشاعر مالك بن العجلان فهم فرع من الخزرج كانوا يسكنون مع فرع خزرجي آخر شديد القرابة منهم، وهو بنو غنم بن عوف، وكانوا يسكنون بطرف الحرة الغربية الشرقي غير بعيدين من قباء. والسوق التي جرى فيها الخلاف بين سمير وحليف مالك بن العجلان في جسر بطحان شمالها بحوالي أربعة أو خمسة أكيال.

وانقضت مدة من الزمن التقى فيها سمير بكعب في سوق العصبة فتحركت فيه شهوة الانتقام وصمم على قتله، فجعل يتابعه حتى وجد فرصة لقتله فقتله، ولما وصل الخبر لمالكٍ ثار لمقتل حليفه، وتألم للطعنة التي سددها سمير إلى حلفه وجواره، ومحاولة إظهاره عند القوم بمظهر العاجز الضعيف، ولكنه مع ذلك لم يتسرع، وهو الرجل الأريب المحنّك الذي سبق أن دافع عن الحيين معاً في مغالبة اليهود، بل أرسل إلى بني عمرو بن عوف: إنكم قتلتم منا قتيلاً فأرسلوا إلينا بقاتله، فلما جاءهم رسول مالك اضطرب الأمر في أيديهم، وصار كل واحد منهم يرمي الآخر بقتل كعب، فقال بنو زيد: إنما قتلته بنو جحجبى، وقال بنو جحجبى: إنما قتلته بنو زيد قوم سمير، الذين هم من بني عمرو بن عوف. ثم فكروا في حيلة للخلاص من هذا المأزق الذي وجدوا أنفسهم فيه، فأرسلوا إلى مالك: إنه قد كان في السوق التي قتل فيها صاحبكم ناس كثير، ولا يدري أيهم قتله؟ وكان بوسع مالكَ أن يصدّقهم، لولا أنه تأكد لديه بما لا يقبل الشك أن سميراً هو القاتل، وحينئذ أرسل مرة أخرى إلى بني عمرو بن عوف بالذي بلغه من ذلك، وطلب منهم أن يرسلوا إليه سميراً ليقتله جزاء قتله كعباً، فأرسلوا إليه: إنه ليس لك أن تقتل سميراً من غير بينة. وكثرت الرسل بينهم في ذلك، يسألهم مالك أن يعطوه سميراً ويأبون أن يعطوه إياه، وتخلل ذلك شيء من التهديد والوعيد، وكره بنو عمرو أن

تنشب حرب بينهم وبين مالك، وفي الوقت نفسه كانوا لا يريدون تسليم سمير. ففكروا في حيلة أخرى علّها تنطلي على مالك، فأرسلوا إليه: إن صاحبكم حليف، وليس لكم فيه إلا نصف الدية، فغضب مالك وأبى إلا أن يأخذ الدية كاملة أو يقتل سميراً، وتصلب أيضاً بنو عمرو ورفضوا أن يعطوه إلا دية الحليف، وهي نصف الدية. ولما طالت المراسلات بينهم دون جدوى دعوه أن يحكم بينهم وبينه عمرو بن امرىء القيس الشاعر، أحد بني الحارث بن الخزرج الأكبر، وهو جد عبد الله بن رواحة شاعر النبي ﷺ، فقبل بذلك وذهبوا جميعاً إلى بني الحارث وعرضوا الأمر على عمرو بن امرىء القيس، فقضى على مالك بن العجلان بنصف الدية حسبما يقتضيه العرف بيثرب، وأبى مالك أن يرضى بذلك، وآذن بني عمرو بن عوف بالحرب، واستنصر قبائل الخزرج فرفض بعضُها مناصرته، لاعتقادهم بمجاوزته الحد ومخالفته العرف السائد في مطلبه، ومن القبائل التي خذلته بنو الحارث، فقال مالك يذكر خذلان بني الحارث وحدب بني عمرو على سمير، ويحرض بني النجار وهم من الخزرج على نصرته:

إن سُميراً[1] أرى عشيرتــه	قـد حَدِبوا[2] دونه وقد أنِفـوا
إن يكن الظن صادقاً ببني النجّار	لا يَـطْعَمـوا الـذي عُلِفُـوا[3]
لن يُسلِمـونـا لمعشــرٍ أبــداً	ما كانَ منهمْ ببطْنِها شَرَف[4]
لكن مــوالـيَّ قـد بـدا لهـمُ	رأيٌ سوى مـا لـديَّ أو ضَعُفُوا[5]
إمَّـا يَخيمون في اللقـاء وإمَّــ	ـا وِدُّهم في الصديق مُضطَعَفُ[6]

(١) جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ص ٢٢٥.

(٢) عطفوا.

(٣) يريد أنهم لا يخذلون من كانوا قد نصروه.

(٤) البطن: جزء من القبيلة.

(٥) الموالي: الحلفاء ـ ضعفوا أي جبنوا.

(٦) يخيمون: يجبنون وينكصون، ومضطعف: صار ضعف ما كان عليه.

بين بني جَحْجَبَى وبين بنـي زيد، فأَنَّـى لجاري التَّلـف؟

لا نقبـل الدهـرَ دون سُنّتنـا فينـا، ولا دون ذاك مُنصَرَفُ[1]

إن لا يُؤدُّوا الـذي يُقال لهـمْ في جـارنا يُقتلوا ويُخْتـطفـوا

ما مثلُنا يُحتـدَى بسفـك دمٍ ما كـان فينا السيوفُ، والزُّغَفُ[2]

والبِيضُ يغشى العيونَ لألَؤُها مُلْسا، وفينا الرِّماحُ والجُحَف[3]

نحن بنو الحرب حين تَشْتجرِ الحربُ، إذا مـا يَهابُهـا الكُشُفُ[4]

أبناءُ حربِ الحروب ضرَّسَنـا أبكارُها، والعوانُ والشُّرُفُ[5]

ما مثلُ قوميَ قوم إذا غضِبوا عند قِراعِ الحروب تَنْصَرِف[6]

يمشون مشْيَ الأسودِ في رهَجِ الموتِ الـيْـه، وكـلُّهـم لـهَـفُ[7]

ما قصَّر المجدُ دون مَحْتِدنَـا بل لم يَزَل في بيوتنـا يَكِـف

أبلغ بني جحجبَى فقد لقِحتْ حربٌ عَوان، فهل لكم سَدَف[8]

يمشــون فيهــا إذا لـقيتَهـمُ خَـوادرا، والرمـاحُ تختلف[9]

ان سُميـرا عبـدٌ بغى بـطراً فـأدركتْـه المنيَّـة التَّلِف[10]

قـد فـرَّق الله بيـن أمـركـمُ في كل صَرْفٍ، فكيف يأتلف؟

---

(١) أي إننا لا نتحول عن طريقتنا في نصرة من استجار بنا.

(٢) ما مثلنا يُحتدى: من التحدّي، والزغف: الدروع.

(٣) الجحف: لعله من قولهم تجاحفوا أي تناولوا بعضهم بالعصي والسيوف.

(٤) الكشف: الذين لا دروع لهم.

(٥) ضرسنا: حنكنا وجرّبنا، أبكارها: صغارها، العوان: الكبرى، الشرف: الواحدة شارف، وهي الناقة المسنة، ولعله استعارها للحروب القديمة.

(٦) تنصرف: تنكفىء، أراد أنها تعود منتصرة.

(٧) الرهج: الغبار.

(٨) لقحت: هاجت. سدف: سترة يستتر بها.

(٩) الخوادر: الأسود في عرائنها.

(١٠) التلف: بمعنى المتلفة.

نَمنـع مـا عنـدنـا بِهِـزّتنـا والضّيمَ نأبـى، وكلُّنا أنِف[1]

وقد عـدَّ صاحب الجمهرة هذه القصيدة في المُذَهّبات.

وقال درهم بن زيد أخو سمير في ذلك:

يـا قـومُ لا تقتلوا سميـراً فإنّ القتـلَ فيه البَـوارُ والأسف

إن تـقتـلوه تـرِنُّ نسـوتُـكمْ على كريم ويَفْزَع السلف[2]

إني لَعمرُ الـذي يَحُـجّ لـه الناس ومـن دونِ بـيـتـه سَـرِف

يمـينُ بـرٍّ بـالله مجـتـهـدٍ يحلف إن كـان ينفـع الحلف

لا نـرفَـعُ العبـد فـوق سُنَّتـه مـا دام منـا ببطنهـا شـرف

إنـك لاقٍ غـداً غــواةَ بني عمِّي، فانظرْ مـا أنت مُزْدهَف[3]

فـأبْـدِ سِيماكَ يَعـرفـون كمـا يُبْدون سيماهـمُ فتَعتـرف[4]

وقال درهم أيضاً:

يـا مـالِ لا تبغيَنْ ظُـلامَتنـا يـا مـالِ، إنّـا لَمعشـرٌ أُنُفُ

يـا مـال، والحقُّ إن قنعتَ به فيـه وفينـا لأمـرنـا نَصَـف

إن بجيـراً عبـدٌ فَخُـذ ثمنـاً فالحـقّ يوفَـى بـه ويُعتَرَف[5]

ثم اعلَمَنْ إن أردت ضيْمَ بني زيـد فـإنيِّ ومن لـه الحلف

لأصْبَحَنْ دارَكمْ بـذي لَجَب جَوْنٍ له من أمـامه عـزف[6]

---

(١) الهزة: النشاط، أنف: أنوف يأبى الضيم.

(٢) ترنّ: يرفعن أصواتهن بالبكاء.

(٣) مزدهف: مقدم عليه من الشر.

(٤) كان مالك بن عجلان إذا شهد الحرب غير لباسه وتنكر، لئلا يعرف فيرمى أو يطعن.

(٥) بجير: هكذا وردت في هذه القصيدة وأخواتها، ولا ندري من بجير هذا؟ ولعلها كعيب تصغير كعب مولى مالك بن العجلان.

(٦) عزف: صوت.

البَيْضُ حِصْنٌ لهم إذا فزعوا　　　وسابغاتٌ كأنها النّطفُ

والبِيضُ قد ثُلّمتْ مضاربُها　　　بها نفوسُ الكماة تُختَطَف

كأنها في الأكفّ إذ لمَعَتْ　　　ومِيضُ بَرْق يبدو وينكسف

وقال عمرو بن امرئ القيس[1] وهو خزرجي من بني الحارث رفض مالك حكومته:

يا مال والسيِّد المعمَّم قد　　　يُبطِرُه بعضُ رأيه السَّرف[2]

خالفْتَ في الرأي كل ذِي فَخَرٍ　　　والحقُّ - يا مالِ - غيرُ ما تصِف

لا يُرفع العبدُ فوق سُنَّته　　　والحقُّ يوفَى به، ويُعترف

إن بجيراً عبد لغيركمُ　　　يا مالِ، والحقُّ عنده فقِفوا

أوتيتُ فيه الوفاءَ معترفاً　　　بالحق فيه لكم، فلا تَكِفوا[3]

نحن بما عندنا، وأنت بما　　　عندك راضٍ، والرأيُ مختلف

نحن المكيثون حيث يحمَدُنا المُكثُ، ونحن المصالِتُ الأُنُفُ[4]

والحافظو عورةِ العشيرةِ لا　　　يأتيهمُ، من ورائهمْ وَكَفُ[5]

والله لا يزدهي كتيبَتَنا　　　أسْدُ عَرينٍ مَقيلُها غُرَفُ[6]

إذا مَشَيْنا في الفارسيِّ كما تمشي جِمالٌ مَصاعبٌ قُطُفُ[7]

---

(١) الجمهرة ص ٢٣٧، وبلوغ الارب ٣: ٤١٠ ومعجم الشعراء ص ٥٥ وديوان حسان مع بعض الاختلافات ص ١٦٦.

(٢) وفي رواية: (يطرأ في بعض رأيه السرف) المعمَّم الذي يقلده الناس أمورهم. السرف: الفاسد.

(٣) لا تكفوا: لا تجوروا وتميلوا عن الحق.

(٤) المكيثون: المقيمون، يحمدنا: يطيب لنا. المصالت: الشجعان. الأنف: جمع أنوف: الأبي.

(٥) العورة: الخلل في ثغرة البلاد يخاف منها. الوكف: المكروه.

(٦) يزدهي: يستفز. الغرف: الشجر الكثير الملتف.

(٧) الفارسي: الدرع، والقُطُف: البطيئة.

نمشي إلى الموت من حفائِظنا مَشْياً ذريعاً وحُكمُنا نَصَف[١]

إن سميراً أبت عشيرتُه أن يَعرفوا فوق ما به نُطِفوا[٢]

أو تَصدرُ الخيلُ، وهي حاملةٌ تحت صُواها جماجمٌ جُفُف[٣]

أو تجرَعوا الغيظَ ما بدا لكمُ فهارِشُوا الحربَ حيث تنصرف[٤]

اني لأُنْمَى؛ إذا انتميتُ إلى غرٌّ كرامٍ، وقومُنا شُرَف[٥]

بيضٌ جِعادٌ، كأن أعينهَمْ يُكحِلُها من الملاحم السَّدَف[٦]

ثم أرسل مالك إلى بني عمرو يؤذنهم بالحرب، ويعدهم يوماً يلتقون فيه، وتحاشد الحيّان، وتواعدا في فضاء واسع من رحاب قباء، ولما التقى الجمعان اقتتلوا اقتتالاً شديداً وانصرفوا وهم منتصفون جميعاً، ولهذا سمي هذا اليوم من أيام حرب سمير بيوم الفضاء، وهو مكان بين بئر بني سالم وبئر قباء قرب الصفينة، وفيه يقول قيس بن الخطيم[٧] مفاخراً الخزرج بعده بزمن طويل:

صرمْتَ اليوم حبلَك من كَنوداً لِتُبدِل حبْلَها حبْلاً جديداً[٨]

من اللائي إذا يَمْشين هَوْناً تَجلبَبْنَ المجاسدَ والبُرودا[٩]

كأنّ بطونَهنَّ سيوفُ هند إذا ما هُنَّ زايَلْنَ الغُمودا

---

(١) الحفائظ: جمع حفيظة، اسم من المحافظة على الحريم. الذريع: السريع. النصف: الإنصاف.

(٢) نطفوا: قُذفوا بفجور ونحوه.

(٣) تصدر: ترجع. الصوى: الواحدة صوة: حجر يكون علامة في الطريق. وما غلظ وارتفع من الأرض والقبور. الجفف: اليابسة، أي أنها جماجم قتلى.

(٤) هارشوا: تحمّلوا.

(٥) شرف: شرفاء.

(٦) الجعاد: الأقوياء. السدف: الظلام.

(٧) ديوان ابن الخطيم ص ٢٨٤.

(٨) كنود: المرأة الجاحدة.

(٩) المجاسد: هو كل ثوب أشبع من الصباغ. ويقال للزعفران: جساد.

تبدَّتْ لي لتقتلَني فأبدَتْ … معاصمَ فخمةً منها وَجيدا
ووجهاً خلتُه لمَّا بدا لي … غداةَ البينِ ديناراً نَقيدا[1]
سَقيْنا بالفضاء كؤوسَ حَتْفٍ … بني عوف وإخوتَهم تزيدا[2]
لَقِيناهم بكلِّ أخي حروبٍ … يقود وراءه جمعاً عتيدا[3]
ومُشرفةَ التلائل مُضمَراتٍ … طوَى أحشاءَها التَّعداءُ قُودا[4]
أكنتُمْ تحسبون قتالَ قومي … كأكْلِكُمُ الفغايا والهَبيدا[5]
أصابَ القتلُ ساعدةَ بنَ كعب … وغادرَ في مجالسها قرودا
وقد رُدَّ العزائمُ في طريفٍ … وأقيالٍ يصوغون الحديدا[6]
وإن سيوفَنا ذهبتْ عليكمْ … بني شرِّ الخنَى مهلاً بَعيدا
ويأبى جمعُكمْ إلا فراراً … ويأبى جمعُنا إلا وُرودا
وإن وعيدَناكُمْ حين نمشي … بهنَّ على المنون ولا وعيدا
ألا من مبلغٌ عني كُعيبا … فهل ينهاك لُبُّك أن تعودا
أراني كلَّما صدَّرْت أمراً … بني الرَّقعاء جَشَّمكم صَعُودا[7]
فما أبقتْ سيوفُ الأوس منكمْ … وحدُّ ظُباتها إلا شريدا

---

(١) النقيد: الدراهم التي أخرج زيفها.

(٢) تزيد: جد بني سلمة بن علي بن تزيد. وليس في العرب تزيد غيرهم وبطن في قضاعة. بنو عوف نقصد بني عمرو بن عوف بن الخزرج.

(٣) عتيد: مهيأ.

(٤) التلائل: الأعناق، واحدها تليل. التعداء: العدْو، القود: الطوال الأعناق.

(٥) الفغايا: من الفغا وهو أن يركب النخلة غبار، فيغلظ جلد بسرها ويصير فيه مثل وشي أجنحة الجنادب. يقال: أفغى النخل. والهبيد: أن يؤخذ حب الحنظل فينقع في ماء أياماً ثم يصب ذلك الماء ويجدد له ماء آخر حتى تخرج مرارته، ثم بعد ذلك يطبخ.

(٦) أراد أنهم حدادون.

(٧) الرقعاء: الحمقاء. الصعود: العقبة الشاقة.

فلن نَنفكَّ نقتُلُ ما حَيِينا ... رجالَكمُ، ونَجعلُكمْ عبيدا

فرد عليه عبد الله بن رواحة:

تذكَّرَ بعد ما شطَّتْ نجودا ... وكانت تيَّمتْ قلبي وليدا

كذي داءٍ غدا في الناس يَمشي ... ويكتمُ داءَه زمناً عميدا[1]

تصيَّدُ عَورةَ الفتيان حتى ... تصيدَهمُ، وتشْنا أن تَصيدا[2]

فقد صادتْ فؤادَك يوم أبدَتْ ... أسيلا خدَّها صَلْتاً وجيدا[3]

تُزيِّنُ مَعقِدَ اللبَّاتِ منها ... شُنوفُ في القلائد والفريدَا[4]

فإنْ تضنُنْ عليك بما لدَيْها ... وتَقْلبْ وصْلَ نائِلها جديدا[5]

لعمرُكَ ما يوافقني خليلُ ... إذا ما كان ذا خُلْفٍ كَنودا

وقد علمَ القبائلُ غير فَخرٍ ... إذا لم تُلْفَ ماثلةٌ رَكودا

بأنا تخرُجُ الشَّتواتُ منَّا ... إذا ما استحكمتْ، حسباً وجودا

قُدورٌ تَغرَق الأوصالُ فيها ... خَضيبٌ لونُها بيضاً وسَودا

متى ما تأت يثربَ، أو تزرها ... تجِدْنا نحن أكرمَها وجودا

وأغْلظَها على الأعداء رُكْنا ... وألْيَنها لباغي الخيرِ عُودا

وأخْطبهَا، إذا اجتمعوا لأمرٍ ... وأقصَدَها، وأوفاها عهودا

إذا نُدْعَى لثأرٍ أو لجارٍ ... فنحن الأكثرون بها عديدا

متى ما تدْعُ في جُشم بنِ عَوفٍ ... تجِدْني لا أغَمَّ ولا وحيدا

---

(١) العميد: الشديد الحزن.

(٢) العورة: موضع الضعف. تشنا: تكره.

(٣) صادت: ملكت. أسيلاً: طويلاً. الصلت: الجبين الواضح.

(٤) معقد اللبات: العنق. الشنوف: مفرده شنف وهو القرط.

(٥) أي أنها تتجاهل وصله قبل يومها.

وحولي جمْعُ ساعدة بن عمرو   وتيْمُ اللاتِ قد لبِسوا الحديدا
زعمتـمْ أنمـا نـلتمْ مـلوكـاً   ونــزعُمُ أنمــا نلنـا عبيــدا
وما نبغي من الأحلافِ وِتـراً   وقـد نلنـا المســوَّدَ والمَسُــودَا
وكـان نسـاؤكم في كـل دار   يُهرِّشْنَ المعاصمَ والخدودا[1]
تـركنا جحجبى كبنات فَقْـعٍ   وغَوْغا في مجالسِها قُعودا[2]
ورهْطَ أبي أميَّـةَ قـد أبحْنـا   وأوْسَ الله أتبَعْنَـا ثـمــودا
وكنتم تــدَّعـون يهــود مـالاً   ألانَ وجــدْتُـمُ فيـهـا يهـودا
وقد ردُّوا الغنائمَ في طريـفٍ   ونحّام ورهطَ أبي يزيدا

ثم التقوا مرة أخرى عند أطم بني قينقاع، أي في مكان بعيد عن منازلهم، فاقتتلوا حتى حجز الليل بينهم، وكان الظفر للأوس على الخزرج، وعرف هذا اليوم بيوم أطم بني قينقاع، وكان على رأس الأوس فيه: أحيحة بن الجلاح، وفي ذلك اليوم طعن أحيحة نضلة بن مالك بن العجلان سيد بني سالم وبهذه المناسبة قال أحيحة[3]:

مهـلاً بني عمـنـا فـانكـمُ   أجرتُمُ في الضلال فاقتصروا
نحن المراجيحُ في مجـالسنا   قِدْما، ونحن المصاليتُ والصُّبُرْ
الضاربو الكبشِ في قـوانسِه   وحــوْلـه في الكتيبــة الـوَزَرُ
والمطعمو الشحمِ في الجفان إذا   هبَّتْ ريـاحُ الشتـاء، والقُـرَرُ

وفي ذلك قال أبو قيس بن الأسلت الأوسي، ولم يحضر تلك الحرب، لأنه

---

(١) أي أنهن كن سبايا يذقن الذل، يفسدن معاصمهن وخدودهن، أي يؤذينها.
(٢) بنات فقع: الكمأة، وهو مثل يضرب في الذلة.
(٣) الاستبصار ص: ٣٠٨. والقوانس: جمع قونس، وهو أعلى الخوذة.

ممن شاهدوا الرسول ﷺ ولم ينعم الله عليه بالدخول في الاسلام:

لقد رأيت بني عمرو فما وهنوا	عند اللقاء وما همُّوا بتكذيب[1]
ألا فدىً لهمُ أمي وما ولدتْ	غداةَ يَمشون إرقالَ المصاعيب
بكل سَلْهبة كالأيْمِ ماضيةٍ	وكل أبيض ماضي الحد مخشوب[2]

واستمرت حرب سمير في أيام متقطعة وأماكن مختلفة. ثم إن سويد بن صامت الملقب بالكامل[3] - وكان الرجل عند العرب إذا كان شاعراً كاتباً رامياً سموه بالكامل - قال لقومه الأوس: يا قومُ ارضُوا هذا الرجل من حليفه، ولا تقيموا على حرب إخوتكم فيفني بعضكم بعضاً، ويطمع فيكم غيركم. فأرسلت الأوس إلى مالك يدعونه إلى أن يحكم بينهم وبينه ثابت بن المنذر بن حرام - وهو من بني حرام من الخزرج - فأجابهم مالك إلى ذلك، وخرجوا حتى أتوا ثابت بن المنذر، فقالوا: إنا حكمناك بيننا، فقال: لا حاجة لي في ذلك. قالوا: ولم؟ قال: أخاف أن تردوا حكمي كما رددتم حكم عمرو بن امرىء القيس. فقالوا: فإنا لا نرد حكمك، فاحكم بيننا. قال: لا أحكم حتى تعطوني موثقاً وعهداً لترضُون بما أقضي به بينكم ولتسلمُنَّ له تسليماً. فأعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم. فحكم بأن يودى حليف مالك دية الصريح، ثم تكون السنة فيهم بعده على ما كانت عليه: الصريح على ديته والحليف على ديته، وأن تعد القتلى من الجانبين فيكون بعض ببعض، ثم يعطوا الدية لمن كان له فضل في القتلى من الفريقين، فرضي مالك بذلك وسلمت الأوس. وتفرقوا على أن يكون على بني النجار نصف دية جار مالك معونة لإخوتهم، وعلى بني عمرو بن عوف نصفها، فرأت بنو عمرو أنهم لم يُخرجوا إلا الذي كان عليهم، ورأى مالك أنه حفظت كرامته وأدرك ما كان يطلب، وُودي جاره دية صريحة.

---

(١) الكامل لابن الأثير: ١: ٤٠٣، والديوان ص ٧٠.

(٢) السلهبة من الخيل: الطويلة على وجه الأرض. والأيْم: الحية. مخشوب: مصقول.

(٣) تذكر بعض المراجع أنه رجل آخر غير سويد، ولعله الأصوب.

ونلاحظ على هذه الحرب أنها كانت بسبب حماية الجار، وأنها كانت فاتحة شر اتصلت حلقاته، انتهت ظاهرياً بحكم ثابت بن المنذر، ولكنها تركت حزازتها في النفوس وجعلتها مستعدة للاصطدام في أي وقت آخر، أي أنها سهلت بينهم عملية القتل والثأر.

ونلاحظ أيضاً أنها اعتمدت على اللقاءات المتقطعة، التي قد تقتصر أحياناً على الاحتكاك غير المسلح، وأنها لم تشترك فيها كل البطون من الجانبين، بل كان بعض عقلاء القوم يحاولون إنهاءها وحصر نطاقها، كعمرو بن امرىء القيس، وسويد، وثابت بن المنذر.

ويلتقي شاعران آخران من الحيين، لم يحضرا حرب سمير، بل حضرا حروباً أخرى كبعاث، ولكنهما بعثا هذه الحرب شعراً ذانك هما قيس بن الخطيم الأوسي، وحسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي، وقد جعلا قصيدتيهما على الوزن نفسه والقافية نفسها اللتين كانت عليهما قصائد من سبقهما، مبالغة في استحضار صورة ذلك العراك القديم، يقول قيس بن الخطيم(١):

ردَّ الخليطُ الجِمالَ فانصرفوا	ماذا عليهم لوَ أنَّهم وقفوا(٢)
لـو وقفـوا سـاعـة نسـائلُهمْ	رَيْث يضحِّي جمالَه السلف(٣)
فيهم لَعـوبُ والعشـاء آنسـةُ الدَّلِّ، عَـروبٌ	يسوؤ ها الخُلُف(٤)
بين شُكـولِ النسـاء خِلقتُهـا	قصْدٌ، فلا جَبْلة ولا قَضَفُ(٥)
تغتـرق الـطرْفَ وهي لاهيـةٌ	كـأنما شفّ وجههـا نُزُف(٦)

(١) الديوان ص ١٠١ - ١١٩ وديوان حسان ص ١٠٦ وتاريخ النقائض ص ٧٨.
(٢) الخليط: المخالط لهم في الدار. وردُّوا الجمـال: أي ردوها من الرعي ليرتحلوا.
(٣) راث: أبطأ. والريث: الإبطاء. يُضحِّي: من الضَّحاء، وهو أن ترعى الإبل ضُحىً والسَّلف: القوم الذين يتقدمون الضُعُن ينفضُون الطرق.
(٤) لعوب العشاء: أي تسمر مع السمار وتلهو.
(٥) الشكول: الضروب، مفردها شكل.
(٦) وهي لاهية: أي غير محتفلة. نزف: خروج الدم. والمقصود أنها ليست كثيرة لحم الوجه.

قضَى لهـا الله حين يخلقهـا الخالقُ ألاّ يُـكـنَّـهـا سَـدَف[1]

تنـام عن كُبْـرِ شـأنِهـا فـإذا قامتْ رويدا تكـادُ تَنغرف[2]

حـوراء جَيـداءُ يُستضـاءُ بهـا كـأنها خُـوط بـانـةٍ قَصِف[3]

تمشي كمشي الزَّهراء في دَمَثِ الرَّمْلِ إلى السَّهل دونه الجُرُفُ[4]

ولا يَغِثُّ الحديثُ ما نطـقتْ وهْـو بِفيها ذُو لـذَّةٍ طَرِف[5]

تخـزُنـه وهــو مُشتهىً حَسنٌ وهـو إذا مَا تكلَّمتْ أُنـفُ[6]

كـأن لبَّـاتِـهـا تَـبـدَّدَهَـا هزْلَى جرادٍ أجـوازُهُ جُلُف[7]

كـأنَّهـا دُرَّةٌ أحـاط بهـا الـ ـغوّاصُ، يجلو عن وجهها الصَّدف

والله ذي المسجدِ الحرام وما جُلِّل من يُمْنَـةٍ لهـا خُنُف[8]

إني لأهواكِ غيرَ ذي كذِبٍ قد شُفَّ منّي الأحشاءُ والشَّغَف[9]

إنِّي على ما تَرَيْن من كبَري أعلم من أين تؤكـلُ الكتِف

بل ليت أهلي وأهلَ أثْلَة فـي دارٍ قريبٍ من حيث نَختلـف[10]

أيْهـاتَ مَنْ أهلُه بيثـربَ قـد أمسى ومَنْ دونَ أهلِه سَرِف[11]

---

(١) السدف والسُّدْفة: الظلمة، أي أن الظلمة لا تحجبها.

(٢) تنغرف: تسقط. ويروى تنقصف.

(٣) خوط: قضيب. قصف: خوّار ناعم يتثنّى..

(٤) دمث: ليِّن الموطىء. الجرف: ما تجرّفته السيول وأكلته من الأرض، الزهراء: البقرة البيضاء.

(٥) بفيها: أي من فيها.

(٦) أنف أي مستأنف.

(٧) تبددها: أي كان عن يمينها وعن شمالها. هزلى جراد: يقصد به نوعاً من الحلي يصاغ على هيئة أوساط الجراد. الجُلُف: الجراد لا رؤوس له ولا قوائم.

(٨) خنف: مفرده خنيف: ثياب كتان كان يُقْدَم بها عليهم وأراد أن لها جوانب حواشٍ.

(٩) الشغف: معلّق القلب.

(١٠) أثلة: مفرد الأثل، موضع قرب المدينة، ويرى بعضهم أنه اسم امرأة.

(١١) سرف: موضع قريب من مكة لا يبعد عن قُديد، وبه دخل الرسول ﷺ على زوجته ميمونة بنت الحارث الهلالية في عمرة القضاء، وبه ماتت ودفنت.

يـا ربِّ لا تُبعدَنْ ديـار بَـني | عُذرَةَ حيث انصرفتُ وانصرفوا
أبلغْ بني جحجبى وقـومَهـمُ | خَـطْمـةَ أنَّـا وراءهم أُنُف[1]
وأننا دون ما يسُـومُهمُ الأعــ | ـداءُ من ضيم خُطةٍ نُكُف[2]
نَفْلي بحـدِّ الصفيـح هـامَهمُ | وفَلْيُنـا هامَهمْ بنـا عُنُـف[3]
إنَّـا ولو قـدَّمـوا التي علمـوا | أكبـادُنــا من ورائهم تَـجِف
لمــا بـدتْ غــدوةً جبـاهُهُمُ | حنَّتْ إلينا الأرحامُ والصُّحُف[4]
كَقِيـلِنـا للمـقـدِّميـن: قفـوا | عن شأوكم، والحرابُ تختلف
يتبــعُ آثـارَهـا إذا اختُلِجتْ | سُخنٌ عَبيطٌ عـروقُه تكِف[5]
أن بني عمنـا طغَـوْا وبغَـوْا | ولجَّ منهم في قومهمْ سَـرَف
قال لنا الناس: معشرٌ ظَفِروا | قلنـا: فأنَّى بقـومنا خَلَف.؟
لنـا مـع آجـامنـا وحــوزتنـا | بين ذُراهـا مخـارف دُلُف[6]
يـدبُّ عنهنَّ سـامــرٌ مَصِـع | سودَ الغواشي كأنها عُرُف[7]

فرد عليه حسان بن ثابت بقوله:

مـا بالُ عيني دمـوعها تكِفُ | من ذكرِ خَوْدٍ شطَّتْ بها قَذَفُ

---

(١) أنف: أي نأنف من ورائهم. وخطمة وواقف وأمية ووائل تسمى أوس الله.

(٢) نكف: أي نستنكف.

(٣) يقال فلاه بالسيف إذا علاه به.

(٤) حنت إلينا.. الخ أي بكوا إلينا. والصحف: العهود المكتوبة بينهم.

(٥) اختلجت: جذبت. سخن عبيط: دم سخن وهو فاعل يتبع. والمعنى: يتبع آثار الجراحات إذا نزعت دم سخن تكف عروقه.

(٦) آجامنا: جمع أجُم وهو كل بيت مربع. مخارف دلف: نخل يخترف منه. والاختراف: لقط ثمر النخيل بُسراً أو رُطباً.

(٧) سود الغواشي: الغُربان. عرف: يريد عَرْف الفرس.

بـانت بهـا غَـرْبـةٌ تَـؤُمُّ بهـا | أرضاً سوانا والشَّكلُ مختلف
ما كنتُ أدري بوشْكِ بينِهِمُ | حتى رأيتُ الحُدوجَ تنقذف[1]
فغـادروني والنفسُ غـالبُهـا | مـا شفَّهـا، والهمـوم تعتكف
دعْ ذا وعدِّ القريضَ في نفرٍ | يدعُون مجدي ومِدحتي شرَف
إن تدعُ قومي للمجد تُلْفِهُمُ | أهلَ فَعالٍ، يبدو إذا وصِفوا
بَـلِّغ عنّي النَّبيت قـافيـةً | تُـذِلُّهم إنـهم لنـا حلَفـوا
بـالله جـهـداً لَـنَقْـتلـنَّـكُمُ | قتلاً عنيفاً، والخيـلُ تنكشف
أو ندْعُ في الأوسِ دعوةً هرَباً | وقد بدا في الكتيبـة النَّصَف
كنتمْ عبيـداً لنـا نُخـوِّلُكمْ | من جاءنا، والعبيدُ تُضطعَف[2]
كيف تعاطونَ مجـدنا سفَهـاً | وأنـتمُ دعـوةٌ لـهـا وَكَف[3]
شـانَكُمْ جـدُّكـمْ وأكـرمَنـا | جدٌّ لنا في الفَعـالِ يَنتصف
نجعلُ مَن كان المجدُ محتِدَه | كـأعبُدِ الأوسِ كلَّمـا وُصِفوا
هـلاَّ غضبتُمْ لأعـبُـدٍ قُتِـلوا | (يـوم بعاث) أظلَّهمْ ظَلَف[4]
نقتلُهمْ والسيـوفُ تـأخـذهمْ | أخـذاً عنيفـاً وأنتمُ كشُف[5]
وكم قَتلْنـا من رائسٍ لكـمُ | في فيلقٍ يجتـدي لـه التَّلَفُ
ومن لئيم عبـدٍ يـحـالفـكُمْ | ليست لـه دعـوةٌ ولا شَـرَف
إنّ سُميـرا عبدٌ طغى سفَهـا | سـاعدَهُ أعبـد لهـا نَـطَف[6]

---

(١) الحدوج: الإبل عليها الرحال. تنقذف: تسرع.
(٢) نخولكم: نجعلكم خَوَلاً وأتباعاً.
(٣) دعوة: المهتمون في نسبهم. الوكف: العيب.
(٤) الظلف: البؤس والشدة.
(٥) كشف: أي منهزمين.
(٦) النطف: القرط.

وبمراجعة هذه النصوص الواردة في حرب (سمير) نلاحظ أنها جميعاً اشتركت في الوزن والقافية والموضوع. وتعرض بعضها للمفاخر، ونقض بعض ما ورد في قصيدة منافسه. وذلك يعطينا دلالة أدبية واضحة على أن مثل هذه القصائد كان من اللبنات القوية الأولى في صرح فن النقائض، وإن لم يأخذ مكانته من الشهرة كما هو الحال في النقائض الأموية، ولعل ذلك ناشىء من قلة النصوص الأوسية والخزرجية التي وصلت إلينا.

ودارت قصيدة مالك بن العجلان حول غَبْطه سميراً، لمناصرة عشيرته له، في الوقت الذي تخلى عنه بعض بني قومه، وهم بنو الحارث بن الخزرج، ويذكر ذلك بكل مرارة:

لكن مواليّ قد بدا لهمُ رأيٌ سوى ما لديّ، أو ضعفوا

ويهيب ببني النجار أن يناصروه ويشدُّوا عضده في حربه ويكونوا دعماً له ويصدقوا ظنه فيهم، ثم يصرِّح بأن بني جحجبى، وبني زيد، ضالعان في قتل حليفه، وأنه لن يتسامح أو يتخلى عن حقه في أخذ ديته كاملة، ويفخر بشجاعة قومه في ميدان الحروب وصدق بلائهم فيها، ويندِّد بظلم سمير واعتدائه على حليفه. وما أروع قوله:

نحن بنو الحرب حين تشتجر الحرب إذا ما هابها الكُشُف

وقوله:

يمشون مشْي الأسود في رهَج المو ت إليه وكلُّهم لهف

ما قصَّر المجد دون محتِدنا بل لم يزل في بيوتنا يكِف

وقوله:

نحن بنو الحرب حين تشتجر الحربِ إذا ما يهابها الكُشُفُ

يمشون فيها إذا لقيتَهمُ خوادراً، والرماحُ تختلف

إنها حقاً صور رائعة مخيفة، تنقلك إلى جو حربي مرعب، لم يتوعد ولم يهدد، وإنما استعرض قوته وقوة قومه، في أسلوب محكم ونسق رائع، صح معه أن تعدّ هذه القصيدة من المذهبات في الشعر العربي القديم. أما قصيدة درهم بن

زيد فإنها اعتمدت على التهديد والتحذير من قتل أخيه سمير، ويحلف على تنفيذ وعيده، ويناقش مالكاً في موضوع دية حليفه، ليؤكد له أنه لن يَدوه بغير ما جرى عليه العُرف في يثرب، وهي نصف الدية:

يــا قــوم لا تقتلوا سمـيــراً   فإن القتل فيه البوارُ والأسف

ثم يعود للمحاجّة الهادئة:

يا مال، والحق إن قنعتَ به   فيـه وفيـنـا لأمــرنــا نَصَـف

ويعود مرة أخرى للوعيد:

لأصْبَحَنْ داركمْ بذي لَجَبٍ   جَـوْنٍ لـه مـن أمامـه عـزَف
والبِيضُ قـد ثُلِّمتْ مضاربُهـا   بهـا نفوس الكمـاة تُخْتَطَـف
كـأنها في الأكفِّ إذ لمعـت   وميضُ بـرق يبـدو وينكسف

وفي هذه الأبيات تعبير شعري جميل قائم على التصوير المثير المفزع للخصم، ليزرع في نفسه الرعب والخوف، ويثنيه عن عزمه في محاربتهم.

وعمرو بن امرىء القيس يعترف بادىء ذي بدء بالرئاسة والسيادة لمالك بن العجلان، ولكنه يوضح له أن الرئاسة لا تمنع من الوقوع في الخطأ، فمن الخير للانسان مع هذا الموقف أن يراجع رأيه ولا يخالف غيره:

يا مالِ . . . والسّيدُ المعمَّمُ قد   يطرأ في بعض رايه السَّـرَف

ويؤكد له العُرف السائد الذي بنى عليه حكمه على مالك عندما احتكم إليه مع قوم سمير، وهو أن دية الحَليف غير دية الصريح، ويدفع عن نفسه وعن قومه الجبن الذي رماهم به مالك بن العجلان، مشيراً إلى خلافه معهم في الرأي:

نحن بما عندنا، وأنت بمـــا   عندك راض، والرأي مختلف

نحن المكيثون حيث يُحْمَد المكـ ـث ونحن المصالِتُ الأنُف

ويقول:

إن سميـراً أبـتْ عشيـرتـه أن يعرفوا فوق ما به نطفـوا

ويختمها ببيت رائع في وصف قومه تدل على كثرة خوضهم للحروب وتعودهم عليها:

بيضٌ جعـادٌ، كـأنّ أعينَهمْ يُكحِلُها من الملاحم السَّدَف

وفي الأبيات الثلاثة التي استطعنا أن نحصل عليها لأبي قيس بن الأسلت في هذه الحرب صورة فنية للخيل وأخرى للسيف لا يقلّان قيمة عن أخواتهن اليثربيات:

بكـل سَلْهبةٍ كـالأَيْم مـاضيـةٍ وكل أبيضَ ماضي الحد مخشوب

وبالوقوف عند قصيدتي ابن الخطيم وحسان نجد ابن الخطيم قد جلى على حسان وفاقه في هذا الغزل الرقيق، فأي سحر في هذا الاستفهام الذي تضمنه المطلع:

ماذا عليهم لو انّهم وقفوا

ثم تكرار لو وقفوا في البيت الذي يليه، إنه تكرار لذيذ لا يشبهه غير تكرار المقاطع الموسيقية الفريدة. ثم قف معي وقفة مستأنية وأنت تقرأ البيت الخامس والسادس:

تغترق الـطرفَ وهي لاهيـةٌ كـأنَّمـا شفَّ وجهَهـا نُـزْف
قضى لهـا الله حين يخلُقهـا الخـالقُ ألاَّ يُكنَّهـا سَـدَف

إنها وهي غافلة في هيئة طبيعية لا تصنُّع فيها ولا زينة تستغرق عيون الناس وتجتذب الأبصار، فلا ينظرون إلى غيرها، لكمال حسنها وروعة جمالها، أية

لوحة فنية يرسمها الشاعر لصاحبته بهذه الكلمات، فكأنه رسام ملهم عريق أوتي أسرار الخطوط والألوان، واغترف من منابع الوحي والعبقرية والإلهام، وحتى كلمة النزف مع هذه الصورة لا تؤذي شعور القارىء ولا تذكره بمنظر الدماء! ثم انظر إليه كيف لا يكتفي بجذبها لاهتمام الناس واغتراق أنظارهم، بل إن خالقها أعطاها أهمية خاصة يوم خلقها فجعلها كوكباً درياً أو لؤلؤة لماعة لا يكنها سدف ولا يحجبها ظلام، ومن هنا[1] أخذ المتنبي قوله:

قلق المليحة وهي مسكٌ هتْكُها ومسيرُها في الليل وهي ذُكاء

ثم اقرأ البيت العاشر والحادي عشر، أي مستوى فني بلغه ابن الخطيم في تصوير جودة منطق صاحبته وحلاوة كلامها، وكان العرب يستطيبون من النساء حسنَ المنطق وكلَّ ما يدل على البراعة والذكاء وقولَ الشعر أو روايتَه:

ولا يَغثُّ الحديث ما نطقتْ وهـو بفيها ذو لـذَّةٍ طَـرِفُ
تخـزُنـه وهــو مشتهىً حسنٌ وهــو إذا مــا تكلمت أُنُـف

أية سميرة هذه وأية أنيسة؟ حديث مشتهى، ومنطق جيد، وكلام حلو ترسله من فيض طبيعتها دون تكلف ولا سابق إعداد أو تدبير، يأسر القلوب وتتعلق به النفوس وتشتهيه. وسواء كان هذا الغزل تقليدياً أم واقعياً فإن فيه تصويراً وتفنناً وذوقاً رفيعاً، وإن كنت أميل إلى أنه واقعي؛ لمبلغ رقته وحرارة عاطفته. ومما يؤيد هذا عدم حسن تخلصه إلى موضوع الحديث عن حرب سمير بقوله: (أبلغ بني جحجبى وقومهم.. الخ) دون توطئة صالحة لهذه النقلة، ثم إن القصيدة ثمانية وعشرون بيتاً، عدد أبيات الحرب فيها أقل من أبيات الغزل، فهي عشرة أبيات فقط، يروعك منها الجمع بين عاطفتين متناقضتين، هما عاطفة الحب الذي دفعته

(١) الديوان ص ١٠٦.

إلى الإشفاق على أعدائه وتذكيرهم بالقربى:

إنّا ولو قدَّموا التي علموا ... أكبادُنا من ورائهم تَجِفُ
لمَّا بدتْ غدوةً جباهُهُمُ ... حنَّتْ إلينا الأرحامُ والصُّحفُ

وعاطفة الكره التي دعته إلى الوعيد والتهديد:

قال لنا الناس: معشرٌ ظفِروا ... قلنا: فأنَّى بقومنا خَلَف؟
لنا مع آجامنا وحوزتِنا ... بين ذُراها مخاوفٌ دُلُف

فماذا عند حسان بن ثابت وهو من بيت شعر عريق قال عنه[1] دعبل والمبرد: أعرقُ الناس كانوا في الشعر آل حسان، فإنهم يعدون ستة في نسق كلهم شاعر: سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام، ولا أعرف لهذه العائلة نظيراً في هذا الصدد إلا عائلة زهير بن أبي سلمى، ومع ذلك لم يكتب لشعر أسرة حسان الشهرة والخلود، كما كتب لشعر أسرة زهير، ولعل ذلك جزء مما أصاب الأنصار. يبدأ حسان قصيدته بالغزل أيضاً، وهي رد متعمد على قيس بن الخطيم، فهي نقيضة حقيقية متكاملة، فيها ما في النقائض الأموية إلا الفحش والتعرض للعورات، فإن خلق الأوس والخزرج يترفع عنه ويأباه. رد حسان على ابن الخطيم ساخراً من وعيده، مفتخراً بقومه، مدعياً أن خصومه أقل منهم في الشرف، ثم ذكر من قتلوا منهم يوم (بعاث).

هلّا غضِبتُم لأعبُدٍ قتلوا ... يوم بعاثٍ أظلَّهم ظَلَفُ
نقتلهمْ والسيوفُ تأخذهمْ ... أخذاً عنيفاً وأنتمُ كُشُف

ونحن نعلم أن حرب بعاث انتهت بغلبة الأوس على الخزرج، وهذا يجعلنا

(١) معجم الشعراء ص ٦٦٩.

نؤكد أن هذين النصين قيلا في ظل حرب بعاث قبل أن يتقرر النصر وتتحقق الغلبة، وإلا لما أمكن لحسان بن ثابت الخزرجي أن يرفع رأسه أمام قيس بن الخطيم الأوسي بهذه العزة والشموخ والنصر في جانب الأوس، اللهم إلا إذا كان كلام حسان من باب التعويض الكلامي، أو من باب أشبعتهم سباً وراحوا بالإبل.

ويستمر حسان في الهجاء فيرمي سميرا وقومه بالسفاهة والطغيان والطيش، ويجعل خصومه خَوَلاً وخدَماً لقومه، وهو موقف قائم على الادعاء، صحيح أن الخزرج كانوا أكثر منهم عدداً وعدة ـ كما سبق أن أشرنا ـ غير مرة، لكن الأوس لم يقفوا مكتوفي الأيدي إزاء هذا الفارق الذي أحسوا به بينهم وبين أعدائهم، فعمدوا إلى الأحلاف يتخذونهم من قريظة والنضير ومن مزينة وغيرها، يقوّون بهم مركزهم ويدعمون صفوفهم، وكثيراً ما حالفهم الحظ، كما هو الحال في يوم بعاث، ولذا ترى حسان بن ثابت لا ينسى في بعض أشعاره هؤلاء الأحلاف فيخصهم بكثير من الهجاء، فيقول في مزينة مثلاً[1]:

جاءتْ مُزينةُ من عَمْقٍ لتنصرَهمْ ... فِرِّي مزينةُ في أستاهِك الفُتُلُ[2]

فكلُّ شيء سوى أن تَذكُروا شرفاً ... أو تبلُغوا حسباً من شأنكم جَلَل[3]

قوم مدانيسُ لا يمشي بعَقْوتهمْ ... جارٌ وليس لهم في موطن بَطَل[4]

ولحسان مع مزينة ثارات لا تنسى، فقد أسروا أباه ثابتاً[5] في يوم من أيام بعاث كما سيأتي، وآلى رئيسهم مقرّن أن لا يفديه إلا بتيس أجمّ أسود، تحقيراً له وتهويناً لشأنه، وإذا استحضرنا هذا في أذهاننا غفرنا لحسان ما جاء من فحش في مطلع الأبيات.

---

(١) الديوان ص ٢٠٢.
(٢) الفتل: جمع فتيل وهو الحبل الرقيق الذي يوجد في شق نواة البلح.
(٣) الجلل: من الأضداد أي العظيم والحقير.
(٤) عقوتهم: محلّتهم، وأصل العقوة الساحة حول الدار.
(٥) سمط اللآلي ٢: ٦٢٨.

حرب كعب بن عمرو[1]

كان ميزان النصر في حرب سمير في صالح الخزرج، وانتهت كما رأينا بالحكمة والحيلة. ولكن الجروح لم تندمل، والسخائم لم تنتزع، تلاقت الأيدي ولكن القلوب ظلت تتقد بالحقد والكراهية، وتتحين الظرف المناسب والفرصة الملائمة، لتطفو على السطح، وتكشف عن مكنونها، فقد تزوج كعب بن عمرو المازني الخزرجي امرأة من بني سالم، ومنازلهم ـ كما نعلم ـ تقع قريباً من بني جحجبى الأوسيين، وكان يذهب إلى زوجته في بني سالم، فكمن له جماعة من بني جحجبى وترصدوه، وفي غفلة منه طلعوا عليه وفاجأوه بالضرب، ولم يكتفوا بذلك بل تمادوا في ضربه حتى قتلوه، ولما سمع أخوه عاصم بن عمرو، غضب لذلك غضباً شديداً، وخرج لحرب بني جحجبى في بني النجار جميعاً، لأن بني النجار سبعة فروع، منهم بنو مازن الذين يرجع إليهم كعب بن عمرو، وكانوا ينزلون قبلي بئر البصّة، فتلاقوا بالرُّحابة[2] وحدث بينهم قتال شديد، ثم انهزم بنو جحجبى وولوا هاربين، وكان معهم رئيسهم أحيحة بن الجلاح، فجدّ في طلبه عاصم ليقتله بأخيه فلم يستطع إدراكه، لأن أحيحة كان قد سبقه إلى باب أطمه الضحيان، فرماه بسهم فأخطأه ووقع في باب الحصن، وكان أحيحة قد دخل، ورجع عاصم وأصحابه محنقين غاضبين. وبعد أيام قرر عاصم أن يتسلل إلى أحيحة ليلاً ويقتله في داره، وبلغ أحيحة ذلك فقال:

نُبئتُ أنـك جئت تسري بين داري والقبـابة[3]

فلقـد وجدتَّ بجـانب الضحيان شبَّـانـا مُهـابـة

---

(1) ابن الأثير ١: ٤٠٣ ـ ٤٠٥ والاستبصار ٣٠٧ ـ ٣١٥ وتاريخ النقائض ص ٨٠ وأيام العرب في الجاهلية ص ٦٩.

(2) الرحابة: أحد آطام المدينة، ويسمي بعض المؤرخين هذا اليوم: يوم الرحابة.

(3) القبابة: اسم أطم.

فتيانَ حرب في الحديد وشامرين كأُسْد غابة

هم نكَّبوكَ عن الطريق فبتَّ تركب كلَّ لَابَة[1]

أعصيمُ لا تجزع فإن الحرب ليست بالدُّعابة

فأنا الذي صبّحتُكمْ بالقوم إذ دخلوا الرُّحابة

وقتلتُ كعبا قبلها وعلوتُ بالسيف الذُؤابة

وكان من عادة أحيحة أنه إذا أمسى خرج من أطمه الضحيان، وجلس جلسة طويلة بجانبه في الهواء الطلق، ثم أرسل كلابه تحميه وتنبح دونه كل من يأتيه من الذين لا يعرفهم، حذراً من أن يفجأه عدو، ولما أقبل عاصم بن عمرو يريده ليقتله نبحته الكلاب، ولكنه رمى لها بما يلهيها فسكتت، وتنبه أحيحة لذلك وحدثه قلبه بحدوث شر فقام مسرعاً ودخل أطمه، ورماه عاصم بسهم فأخطأه ووقع مرة أخرى بالباب، فلما سمع أحيحة وقع السهم صرخ في قومه وأتباعه ليمسكوا بعاصم، ولكن عاصماً جرى وأعجزهم طلبه. وقال:

أبلغ أحيحَة إن عرضْتَ بداره عني جوابَهْ

وأنا الذي أعجلتُهُ عن مقعد ألهَى كلابَه

ورميتُه سهماً فأخطأه وأغلق ثَمَّ بابه

وجمع أحيحة قومه وقرر أن يباغت بني النجار ويأخذهم على غرة، وكان أحيحة متزوجاً من سلمى بنت عمرو إحدى نساء بني النجار، وكان له منها ولد هو ابنه عمرو بن أحيحة وهو يومئذ فطيم، فلما رأت عزم أحيحة على غزو قومها والغدر بهم عمدت إلى ابنها فربطته بخيط، فحز الخيط في جسم الطفل وأخذ يبكي بكاء متواصلاً وهي تحمله وتحاول إسكاته وهو لا يسكت، وبات أحيحة

---

(١) اللابة: الحرَّة من الأرض.

ساهراً معها يقول: ويحك ما للطفل يصيح ويبكي؟ وهي تقول: والله ما ادري لبكائه سبباً، وحين كاد الليل ينقشع أطلقت الخيط عن الطفل فهدأ ونام، ثم صاحت وقالت: وارأساه. . وما كان بها من وجع ولا ألم وإنما أرادت أن تشغل أحيحة عن قومها وتجهد قواه بالسهر، وبات يعصب لها رأسها ويمرّضها، ويقول: ليس بك بأس، حتى إذا لم يبق من الليل إلا أقله قالت له: قم فإن الألم زال عني وسكَن وجعي، وأنا شاكرة لك اهتمامك وحسن عنايتك. وثقل رأس أحيحة بالنوم فنام باستغراق، ولما تأكدت من نومه قامت وتناولت حبلاً وأوثقته برأس الأطم وتدلت منه، وانطلقت إلى قومها فأنذرتهم بما كان من نية أحيحة، وأخبرتهم بما بيّته مع قومه ضدهم، فأخذوا حذرهم واستعدوا لمواجهته، وبذلك أنقذتهم من موت محقق. وفوجىء أحيحة عند الفجر وهو يهاجم بقومه منازل بني النجار شمالي جسر بطحان: بالنبال تتساقط عليه وعلى قومه من كل جانب، فعلم أنه خُدع، وأن أحداً بلغ أسراره لأعدائه وتذكر موقف زوجته فرجع بقومه وهو يقول: هذا عمل سلمى، خدعتني حتى أصابت ما أرادت وفوتت الفرصة عليّ، فلما رجع ضربها وكسر يدها وطلقها فلحقت بأهلها، فسميت المتدلِّية، وتزوجها بعده هاشم بن عبد مناف فولدت له عبد المطلب جد الرسول ﷺ. وقال أحيحة في هذه الحرب شعراً عده صاحب الجمهرة[1] من مذهبات العرب:

صحوتُ عن الصبا، والدهرُ غُول[2] ... ونفسُ المـرء آونـةً قَتُـول
ولـو أنِّي أشاءُ نعمتُ حـالاً ... وبـاكرني صَبـوح أو نَشيل[3]
ولاعبني على الأنماط لُعْسٌ ... على أفـواهِهِنَّ الـزَّنجبيـل[4]
ولكني جعـلتُ إزايَ مـالـي ... فـأقْلِلُ بعـد ذلـك أو أُنيـل

(١) الجمهرة ص ٢٣١ والكامل ١: ٤٠٣ - ٤٠٥.
(٢) غول: مغتال.
(٣) النشيل: اللبن ساعة يُحلب.
(٤) الأنماط: ضرب من البسط. اللعس: اللواتي في شفاههن سواد. الزنجبيل: الخمر.

فهلْ من كاهن أو ذي إلــه ... إذا ما حان مـن ربٍّ أُفول[1]

يــراهنني فيَــرْهَـنُني بنيــه ... وأرهَـنُــه بـنـيَّ بـمـا أقــول

ومـا يدري الفقيـرُ متى غناه ... ومـا يدري الغنيُّ متى يَعيـل

وما تدري وإنْ ألقحتَ شوْلاً ... أتلقَحُ بعد ذلـك أم تَحيل[2]

ومـا تدري إذا ذَمَّـرْتَ سَقْبـاً ... لغيرك أم يكون لك الفصيل[3]

وما تدري وإن أجمعت أمراً ... بأيّ الأرضِ يدركك المقيل

لعمـرُ أبيكَ مـا يغني مُقامي ... من الفتيـان أَنْجيةٌ حُفـول[4]

يَـرُومُ ولا يُقلِّصُ مُشمـعِــلاًّ ... عن العوراء مَضْجَعُه ثقيل[5]

تَبــوعٌ للحليلةِ حيث كــانت ... كمـا يعتادُ لِقحتَـه الفصيل[6]

إذا مـا بتُّ أعصُبُهـا فبــاتت ... عليَّ مكانَها، الحمَّى النَّسُول[7]

لعـل عِصابَهـا يأتيـكَ حـربـاً ... ويـأتيهم بعـورتــك الـدليــل

وقد أعددتُّ للحَدَثان حِصنـاً ... لو انَّ المرءَ تنفعُه العُقول[8]

طويلَ الرأس أبيضَ مُشمخرًّا ... يلوح كـأنّـه سيف صقيـل[9]

جــلاه القَيْنُ ثمَّتَ لم تَشِنْه ... بـشــائـنــةٍ ولا فـيــه فُـلـول

---

(١) الكاهن العرّاف. الأفول الغروب، وأراد به هنا الموت. الرب: السيِّد.

(٢) الشول: النياق التي تشول بأذنابها للقاح. تحيل: لا تحمل.

(٣) ذمّر السقب: جس مذمره أي عنقه وما حوله، ليعلـم أذكر هو أم أنثى.

(٤) أنجية: جمع نجيّ وهو من تسارّه بالحديث. الحفول: المجتمعون بكثرة

(٥) المشمعل: المشرف المنتشر. العوراء: الكلمة القبيحة.

(٦) اللقحة: الناقة الحلوب.

(٧) النسول: السريعة.

(٨) العقول: الحصون.

(٩) مشمخر: شاهق.

هنالك لا يشاكلني لئيم | له حَسَبٌ أَلَفٌ، ولا دخيل
وقد علمتْ بنو عمرو بأنّي | من السَّروات أعدِل ما يَميل
وما من إخوة كثُروا وطابوا | بناشئة، لأمِّهمُ الهُبول[1]
سَتَشكُل أو يفارِقُها بنوها | سريعاً ، أو يهمُّ بهم قبيل[2]

ونلاحظ أن بني جحجبى في هذه الحرب يمثلون طرف الصراع ضد الخزرج أيضاً، والطرف الثاني من بني النجار، وهم الذين حكم رئيسهم المنذر ابن حرام في حرب سمير، وكأن الجحجبيين بقي في نفوسهم شيء من تلك الحكومة، أو أن العداء للخزرج عموماً استحكم فيهم، وهذا يؤكد مدى الأثر السيء الذي تركته حرب سمير في نفوس الحيين. ورئيس هذه الحرب من بني جحجبى هو أحيحة بن الجلاح، وهو نفسه كان رئيساً في حرب سمير كما قدمنا، وهو في أبياته الأولى يشنع على عاصم ويحاول اتهامه بالجبن والخوف، حيث أرهبته القوة الشابة المحيطة بالضحيان وأجبرته على الفرار، واضطرته إلى أن يركب الحرار، هروباً بنفسه وطلباً للنجاة، ثم يتهكم به، فينصحه بأن الحرب ليست مزاحاً ولا دعابة، وإنما هي ضرب وطعان، ويتطاول عليه بما فعله بأخيه ثم بقومه يوم الرحابة، وهو اليوم الأول من هذه الحرب الدائرة بينهم. وفي البيت الرابع تصوير للإلجاء والفرار حالفته فيه الحاسة الفنية، لكنه في البيت الخامس نجده يصغر عاصم على عصيم تصغير ترخيم مبالغة في تحقيره. وفي رد عاصم على أحيحة تعبير بالجبن أيضاً واتهام بالفرار والاحتماء بحصنه. ويبدو أن مقطوعة أحيحة وأبيات عاصم كلاهما ناقص، فلا يعقل أن يرد عاصم بثلاثة أبيات فقط، ولا أن يقتصر أحيحة بهذا القدر مع ما عُرف عليه من قدرة شاعرية، والموقف في حاجة إلى البسط والإطالة والتطاول وتنشير المفاخر. أما لامية أحيحة فهي تدل

---

(١) الناشئة: أراد بها القبيلة. الهبول من قولهم: هبلته أمه: ثكلته. يريد أنه ما من قوم كثروا وطاب منبتهم إلا هبلتهم أمهم.

(٢) القبيل: ما يقبل عليهم من عاديات الزمان كالموت ونحوه.

على أنه نظمها في سن متقدمة نفضَ فيها ثياب الشباب وتخلى عن غلواء الصبا، وأصبح يصدر عن رأي ثاقب وفكر ناضج، ولا غرو في ذلك فقد كان أحد المحنكين الذي يأتم بهم الهداة، وصاحب الكلمة المسموعة في نادي قومه، فهو قد ترك رغباته وأعرض عن شهواته، وأقبل يعالج الحياة بالحكمة والصبر والوقار، وفي يده فضل من المال يحققها لو شاء. فقد كان رجلاً ثرياً يعرف غناه أهل يثرب جميعاً. ومن مظاهر هذا الطابع من الحياة الذي اختاره لنفسه قيامه بأعباء الرئاسة والحرب، وها نحن نجد في هذا النص مجموعة من الحكم جعلت صاحب الجمهرة يعدها من مذهبات الشعر الجاهلي، وجعلت[1] الألوسي يعدها من غرر شعره ومن أبياته الحكمية:

وما يدري الفقير متى غناه ... وما يدري الغنيُّ متى يَعيل
وما تدري وإن ألقحْتَ شوْلا ... أتلقح بعد ذلك أم تحيل

وفي مثل هذا الشعر كثيراً ما يفقد النص وحدته العضوية، ويتحول إلى أفكار متناثرة وآراء في الكون والحياة مسرودة، ويضعف فيه جانب العاطفة والتأثير.

وقد سبق أن أشرنا إلى أن بعض منثوره ومنظومه ذهب في قومه مثلاً. ومن حكمه في غير هذا النص قوله:

استغن أو مُتْ،ولا يَغْرُرْكَ ذو نشب ... من ابن عمٍّ، ولا عمٍّ ولا خال[2]
يلوون ما عندهم عن حق أقربهمْ ... وعن صديقهمُ والمالُ بالوالي
إنِّي أقيم على الزَّوراء أعمُرُها ... إن الحبيبَ إلى الاخوان ذو المال[3]

---

(١) بلوغ الأرب ٣: ١٢٧.

(٢) عيون الأخبار ١: ٢٤٠، ومراصد الاطلاع ٢: ٦٧٤.

(٣) الزوراء: أرض كانت لأحيحة يفتخر بما فيها من نخل وثمار.

لهـا ثلاثُ بئـارٍ في جوانبهـا   فكلهـا عُقَبٌ تُسقى بـإقبـال

كلُّ النداء إذا ناديتُ يخذِلني   إلا ندائي إذا ناديتُ يا مالي

وقد كان أحيحة رجلاً عجيباً يجمع بين الحرص على المال وطرق تحصيله ويقيس به منازل الناس ويجعل من لا مال له في عداد الأموات، وبين الكرم والجود والأريحية، فقد كان سيد الأوس[1] وفارسهم وشاعرهم وجوادهم، فما وفد وافد عليه من العرب وعقر ناقته على باب أطمه إلا أعطاه خلفها وقضى حاجته.

ونعود إلى لاميته فنجده يشير إلى حيلة المتدلية وذلك في قوله:

لعمرُ أبيكَ مـا يُغني مُقامي   من الفتيـان أُنجيـةٌ حُفـول

إلى قوله:

لعـل عِصابَهـا يأتيـكَ حـرْبـاً   ويـأتيهمْ بعـورتـك الـدليـل

ثم تحدث عن الضحيان حديث المعتز، وصوَّره بالسيف الصقيل اللامع الذي جلاه القين، فجاء مبرّءاً من العيوب خالياً من الهنات، وافتخر بنفسه معرضاً بأعدائه ولؤمهم وهوانهم.

بقي أن نقول: إن أحيحة مات بعد هذه الحرب وقبل مولد النبي ﷺ بدهر كما ذكر صاحب الإصابة، أما أحيحة الصحابي فهو ابن الجلاح أيضاً ولكنه غير أحيحة الجاهلي الذي تحدثنا عنه، وإنما هو فيما رجحه البعض حفيد من أحفاده، اتفق معه في الاسم واسم الأب، وما أيسر أن يحصل مثل هذا التشابه في بعض الظروف.

يوم السَّرَّارة

هناك اختلاف بين المؤرخين في ضبط اسم هذا اليوم وفي تصنيفه بين

---

(١) الاستبصار ص ٣١٠.

أيامهم: فالبكري يضبطه بسين مهملة مشددة مفتوحة مع تخفيف الراء، ويجعله أحد أيامهم في حرب حاطب. بينما السمهودي[1] يشدد الراء أيضاً وقال: إن السَّرَّارة اسم لحديقة كانت بمنازل بني بياضة، وهي غير الحديقة التي كانت على عهده بقباء تحمل الاسم نفسه، ولم يتعرض لتصنيفه. لكن ابن الأثير[2] يعده يوماً مستقلاً سابقاً لحرب حاطب، وهو الترتيب الذي اعتمدناه في هذا الفصل، وإن كنت أميل إلى أنها التي كانت بقباء، وذلك لأنها منازل بني عمرو بن عوف من الأوس، وهم أحد الأطراف المعنية في هذه الحرب، كما أن بني الحارث الخزرجيين وهم الطرف الثاني فيها كانوا بالعوالي، وهي أقرب إلى قباء من الموضع الذي حدده البكري بين الشرعبي وراتج، فهذان الموضعان شمالي سلع إلى الشرق قليلاً، فالمعقول أن يتحاربا في موضع يأتي إليه كل واحد منهما من منازله، لا أن ينقلا الحرب إلى منازل غيرهم، وهو مجرد ترجيح وتخمين لا غير.

والسبب المباشر لهذه الحرب أن رجلاً من بني الحارث بن الخزرج لقي رجلاً من بني عمرو بن عوف خارجاً من بئر أرِّيس (وهي البئر التي كانت غربي مسجد قباء بنحو ثلاثين متراً) فرماه بنبل كان معه فقتله. فلم يتصرف بنو عمرو بالأسلوب الذي يحقن الدماء، وهم قوم اشتركوا في حربين سابقتين، بجانب بني عمومتهم بني جحجبى، وذاقوا مرارة المعارك وما فيها من شرور- بل عمدوا إلى الغدر بالقاتل فقتلوه بياتاً، وهو أسلوب لا تقبله النفوس اليثربية في الغالب، فقد كانوا رغم عداوتهم لا يقتلون رجلاً في داره ولا في نخله. ولما علم أهله بذلك عزموا على مقاتلة بني عمرو بن عوف، فأرسلوا إليهم. يؤذنونهم بالحرب، والتقوا بالسرارة التي رجحنا أن تكون بقباء، وقاد الأوس حضير بن سماك والد الصحابي الجليل أسيد بن حضير، وقاد الخزرج عبدالله بن أبيّ بن سلول أبو الحباب، الذي كان رأس المنافقين إبَّانَ الدعوة المحمدية في المدينة، فاقتتلوا قتالاً

---

(١) الوفاء ٢: ٤٢٢، ٣٢٢.

(٢) الكامل ١: ٤٠٥ - ٤٠٧.

شديداً أربعة أيام متوالية انهزمت فيها الأوس، ففخرت الخزرج عليهم، وقال حسان بن ثابت في ذلك[1]:

لعمر أبيكَ الخيرِ حقاً لَمَا نبا | عليَّ لساني في الخطوب ولا يدي[2]
لساني وسيفي صارمان كلاهما | ويبلغُ ما لا يبلغُ السيفُ مِذودي[3]
وإن نالني مالٌ كثير أَجُدْ بـه | وإن يُهتَصَرْ عُودي على الجُهد يَجْمُدِ
فلا المالُ ينسيني حيائي وعفَّتي | ولا واقعاتُ الدهر يَفلُلْنَ مِبْردي
أُكثِّرُ أهلي من عيالٍ سواهمُ | وأطوي على الماء القَراح المُبرَّد
وأُعمِلُ ذاتَ اللَّوْثِ حتى أردَّها | مُبـدَّدةً أحلاسُهـا لم تُشدَّد[4]
ترَى أثَرَ الأَنْساعِ فيها كـأنَّها | مواردُ ماءٍ، مُلتقاها بفَـدْفَد[5]
أكلِّفهـا أن تُدلِـجَ الليـلَ كلَّه | تروحُ إلى دار ابن سَلْمَى وتغتدي
فـألفيتُه فيضـاً كثيراً فُضـولُـه | جواداً متى يُذكَرْ له الحمدُ يَزدد[6]
وإني لَمزْجٍ لِلمطيِّ على الوَجَى | وإني لَتَراكٌ لِما لم أُعَـوَّدِ[7]
وإني لَقوّالٌ لدَى البيت: مرحباً | وأهلاً، إذا ما ريعَ من كل مَرْصد[8]
وإني لَيدعوني الندَى، فأجيبُه | وأضرِبُ بَيْضَ العارضِ المتوقِّد[9]

---

(١) الجمهرة ص ٢٢١. وابن الأثير ١: ٤٠٥. والديوان ص ٠٧٩ وتاريخ النقائض ص ٧١.

(٢) نبا: تجافى وتباعد.

(٣) المذود: اسم الآلة من الذود والمقصود هنا: اللسان. لأنه يذاد به.

(٤) أعمل: أجهد. ذات اللوث: ناقته، واللوث: القوة. حتى أردها: أي يردها من الغزو. الأحلاس: جمع حلس وهو ما يوضع تحت السرج.

(٥) الأنساع: جمع نسع، وهو سير طويل تشد به الرحال. الفدفد: الفلاة أو المكان المرتفع.

(٦) الفضول: الزائد عن الحاجة.

(٧) المزجي: السائق. الوجي: الحفا.

(٨) ريع: خيف. المرصد: ما يترقب.

(٩) يريد أنه يسبق المطر في البذل.

فلا تَعجَلنْ يا قيسُ . . واربَعْ ، فإنما قُصاراك أن تُلْقَى بكل مهنَّد[1]

حسامٌ وأرماحٌ بأيدي أعزةٍ متى ترَهُمْ يا ابن الخطيم تَبلَّد[2]

أسودٌ لها الأشبالُ تحمي عرينَها مداعيسُ بالخَطِّيِّ في كلِّ مشهد[3]

فقد ذاقت الأوسُ القتالَ وطُرِّدتْ وانت لدى الكُنَّاتِ في كل مَطْرَدِ

فغَنِّ لدى الأبياتِ حُوراً كواعباً وحجِّر مآقيك الحسانَ بأثمِد[4]

نفتكمْ عن العلياء أمٌّ ذميمةٌ وزَندٌ متى تُقْدَحْ به النارُ يَصْلِد[5]

فقال قيس بن الخطيم[6]:

تروَّح من الحسناءِ أم أنت مُغْتدِ وكيف انطلاقُ عاشقٍ لم يُزَوَّدِ

تراءت لنا يومَ الرحيلِ بمُقْلَتَيْ غريرٍ بملتفٍّ من السدر مُفرَد[7]

وجيدٍ كجيد الرئم صافٍ يَزينُه توقُّدُ ياقوتٍ وفَصْلِ زَبَرْجَدِ

كأن الثريا فوق ثُغرةِ نحرِها تـوقَّدُ في الظلماء أيَّ تَوقُّد

ألا إن بين الشَّرعبيِّ وراتجٍ ضِراباً كتَخْذيم السَّيال المُعضَّد[8]

لها حائطان : الموتُ أسفلَ منهما وجمعٌ متى يُصرخْ بيثربَ يُصعِدِ[9]

---

(١) قيس: هو قيس بن الخطيم الشاعر، أربع: قف واقتصر. قصاراك: غايتك.

(٢) تبلد: تدهش.

(٣) مداعيس: طعانون. المشهد: ميدان الحرب.

(٤) حَجِّر: كحِّل.

(٥) يصلد: لم يُورَ.

(٦) ديوان ابن الخطيم ص ١٢٤ وابن الأثير ١ : ٤٠٧ ، وتاريخ النقائض ص ٨١ وديوان حسان ص ٧٦.

(٧) تراءت لنا: أي تعرضت لنا لنراها. غرير: ظبي، وأصل الغرة قلة التجربة.

(٨) تخذيم: تقطيع. السيال: شجر له شوك أبيض، والمعضد: المقطع.

(٩) الإصعاد إلى نجد والحجاز واليمن، والانحدار إلى العراق والشام وعمان، أراد أن صوته يذهب إلى مكة.

تَرى اللابةَ السوداء يحمرُّ لونُها ... ويُسهِل منها كلُّ ريعٍ وفَدْفد[1]

لعمري لقد حالفتُ ذبيان كلَّها ... وعبساً على ما في الأديم الممدَّد[2]

وأقبلتُ من أرض الحجازِ بحَلْبةٍ ... تغُمُّ الفضاءَ كالقطا المتبدِّد[3]

تحملتُ ما كانت مزينةُ تشتكي ... من الظُّلْم في الاحلافِ حمل التغَمُّد[4]

أرَى كثرةَ المعروفِ يورثُ أهلَه ... وسوَّدَ عصرُ السوءِ غيرَ المسوَّد

إذا المرءُ لم يُفضِلْ، ولم يَلْقَ نَجدةً ... مع القومِ فَلْيقعُدْ بصُغْرٍ ويَبْعَدِ[5]

وإني لأغني الناسِ عن مُتكلِّفٍ ... يرَى الناسَ ضُلالاً وليس بمُهتد

كثير المنَى بالزاد، لا خيرَ عنده ... إذا جاع يوماً يشتكيه ضُحى الغد

نشا غُمُراً بوراً شقيًّا مُلعَّناً ... ألَدَّ كأنَّ رأسَه رأسُ أصْيَدِ[6]

وذي شيمةٍ عسراءَ تسْخَطُ شيمتي ... أقولُ له: دعْني ونفسَكَ أرشِد

فما المالُ والأخلاقُ إلا مُعارةٌ ... فما اسْطَعْتَ من معروفها فتزوَّد

متى ما تقُدْ بالباطل الحقَّ يأبَهُ ... وان قُدتَّ بالحق الرواسيَ تَنْقَدِ

متى ما أتيتَ الأمرَ من غير بابه ... ضَلِلْتَ، وإن تَدخلْ من الباب تَهْتَدِ

فمن مُبلغٌ عنّي شريدَ بنَ جابرٍ ... رسولاً إذا ما جاءه وابنَ مرْثَدِ

فأقسمتُ لا أُعطي يزيدَ رهينةً ... سوى السيفِ حتى لا تنوء له يدي

---

(١) يحمر لونها: من الدم. يسهل: يقول نزل الدم منها إلى كل ريع وفدفد أي إلى كل مرتفع وفلاة.

(٢) الأديم الممدد: الكتاب الذي قد مدّ، لأنهم كانوا كتبوا كتباً وتحالفوا على ما في الصحف.

(٣) الحلبة: الجماعة من الخيل، المتبدد: المتفرق جاء من ها هنا، وها هنا.

(٤) مزينة: بنو عمرو بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر. وأمهم مزينة بنت وبرة. التغمد من قولك: اللهم تغمدنا منك برحمة.

(٥) النجدة: الشدة أو القتال.

(٦) بَور: لا خير فيه، أو الهالك، الألد: الشديد الخصومة.

فلا يُبعِدْنك اللهُ عبدَ بن نافذ ... ومَن يَعلُه ركنٌ من التُّرْب يَبْعَد[1]

وبإلقاء نظرة سريعة على النصين تجد أن نص حسان كان رداً على نص ابن الخطيم:

فلا تعجلنْ يا قيس، واربعْ فإنما ... قصاراك أن تُلقَى بكل مهند
حسام وأرماح بأيدي أعزة ... متى ترهُمْ، يا ابن الخطيم تبلَّد

وبينما يبدأ ابن الخطيم قصيدته بأربعة أبيات غزلية نجد حسان يدخل رأساً في المفاخرة، ونلاحظ أن ابن الخطيم لم يحسن التخلص إلى غرضه في هذه المرة أيضاً. وافتخر كلاهما بنفسه ثم سردا عدداً من الحكم يبدو أنهما تعمداها ليتباريا في الفكر إلى جانب تباريهما في المجالات الأخرى، وأنهى قيس قصيدته بالوعيد:

فأقسمت لا أعطي يزيدَ رهينةً ... سوى السيفِ حتى لا تنوء له يدي

وحسان ختمها بتهديد قيس وهجائه وهجاء قومه الأوس:

فلا تعجلن يا قيس، واربعْ فإنما ... قصاراك أن تلقى بكل مهند

إلى أن يقول:

نفتكمْ عن العلياء أمٌّ ذميمةٌ ... وزَندٌ متى تُقدَحْ به النارُ يَصْلِد

فنزعة الهجاء والعنف واضحة عند حسان، وقد أجاد وصف لسانه حينما قال:

لساني وسيفي صارمان كلاهما ... ويبلغ ما لا يبلغُ السيفُ مِذودي

---

(١) يريد عبيد بن نافذ بن صهبة أحد بني جحجبى وهو والد فضالة بن عبيد الأنصاري قاضي معاوية بن أبي سفيان، وكان عبيد هذا شاعراً من العدّائين الذين يسبقون الخيل.

ولحسان في هذا اليوم شعر آخر منه:

فدى لبني النجار أمّي وخالتي غداةَ لقُوهمْ بـالمَثقَّفة السُّمْـرِ

وصرمٍ من الأحياء عمرو بن مالك إذا ما دعوا كانت لهم دعوةُ النصر

فوالله لا أنسى حياتي بلاءَهمْ غداة رمَوْا عمراً بقاصمة الظهر

ومما قاله عبيد بين نافذ في هذا اليوم مفاخراً بقومه الأوس ومعيراً الخزرج بفرار رئيسها ابن سلول:

لمن الـديار كـأنهن المذهب بلِيَتْ وغيَّـرها الـدهور تقلُّب

وقال:

لكن فرارُ أبي الحُباب بنفسه يوم السَّرارة سِيءَ منه الأقرَبُ

ولّى وألقَى يـوم ذلك دِرْعَـه إذ قيل: جاء الموتُ خلفَك يطلب

نجَّاكَ منا بعدما قـد أشرعتْ فيك الرماحُ، هناك شُدَّ المذهب

حرب الحُصين بن الأسلت[1]

سبب هذه الحرب أن رجلاً من بني مازن بن النجار نازع الحصين بن الأسلت أخا الشاعر الأوسي المعروف أبي قيس بن الأسلت، فقتله الحصين، وهما من بني وائل بن زيـد. ولكن بني مازن لما علموا بالأمر ترصدوا للحصين وقتلوه جزاء قتله صاحبهم، فبلغ الخبر أخاه أبا قيس فلم يرضه أن ينتصف بنو مازن من أخيه وأقسم ليثأرن له، ولم يكتف باستثارة بني وائل، بل جمع مِنْ حوله الأوس جميعاً، وكذلك فعل بنو مازن، حتى لم يكد يتخلف من الحيين أحد. ونشب القتال بينهم واستحرت ناره حتى كثرت القتلى بين الفريقين، واستطاع أبو قيس بن

(١) ابن الأثير ١: ٤٠٧.

الأسلت أن يقتل الذين قتلوا أخاه، ثم دارت الدائرة عليه وعلى قومه الأوس واشتفى منهم الخزرج، وأقبل الأوس على بعضهم يتلاومون، حتى أن وَحْوح بن الأسلت لام أخاه أبا قيس بن الأسلت على فشل قيادته وحمله وزر هزيمة الأوس وقال له: لا تزال منهزماً من الخزرج. فرد عليه أبو قيس شعراً فقال:

أبلغ أبـا حصن[1] وبعض القول عندي ذو كُبـارة

أن ابن أمِّ المرء ليس من الحديـد ولا الحجـارة

ماذا عليكم أن يكون لكـم بهـا رَحْـلاً عمارة[2]

يحمي ذماركمُ، وبعضُ القوم لا يحمي ذمـارة

يبني لكم خيراً، وبنيانُ الكـريـم له أثـارة[3]

ولعل من الغريب حقاً أن يشترك في هذه الحرب الحيان جميعاً ويكون قائد الأوس فيها شاعراً هو في الوقت نفسه أخ القتيل، ثم لا نظفر فيها من الشعر إلا بخمسة أبيات. إنه شيء يثير التساؤل ويبعث على الدهشة. ولا يخلو الحال في رأيي من أن يكون الأخباريون قد بالغوا في نقل الأحداث التاريخية، فأشركوا الحيين جميعاً في هذه الحرب، أو اختلطت عليهم بغيرها من الحروب. أو أن تكون الذاكرة الأدبية عجزت عن استيعاب ما ورد فيها من أشعار، وقصرت في ذلك تقصيراً بيناً، وهو ما أصاب تراث الأنصار بصفة عامة كما أشرنا غير مرة. وفي الأبيات المذكورة سهولة واضحة تكاد تكون ظاهرة ثابتة في شعر أبي قيس بن الأسلت رغم قلة ما وردنا من شعره، وقد جمع الدكتور حسن باجودة شعره في ديوان صغير مطبوع لم يتجاوز بضع عشرات من الأبيات، رغم تساهله أحياناً في ترجيح نسبة شعر غيره إليه، كبعض شعر أبي قيس بن صرمة.

---

(١) أبا حصن: كنية وحوح بن الأسلت.

(٢) العمارة: أصغر من القبيلة أو هي الحي العظيم.

(٣) الأثارة: البقية من العلم تؤثر.

يوم الربيع

اختلف الباحثون في ضبط اسم هذا اليوم فبعضهم يضبطه[1] بالتكبير ويقول: إنه بلفظ ربيع الازمنة، وزاد بعضهم :والربيع : الجدول الصغير. وضبطه آخرون[2] بالتصغير قالوا: وهو تصغير رَبْع.

واختلفوا أيضاً في سبب التسمية فقيل[3]: إنه اسم لموضع قرب المدينة حدثت فيه حرب بين الأوس والخزرج حملت اسمه، وقيل[4]: هو اسم حائط في ناحية السفح جرت فيه الحرب المعروفة بين الأوس والخزرج. ولعل المقصود بالسفح في هذا الرأي سفح سلع ونحوه فلا يمكن أن يكون خارج المدينة في رأيي، إذ ما الذي يحملهم أن ينقلوا حربهم إلى مكان خارج ديارهم؟.

وقيل إنه[5] اسم لرجل يدعى ربيع الظفري، ولعل هذا الرأي قريب من الواقع أيضاً، وبخاصة عندما نجد أن هذه الحرب قامت فعلاً بين بني ظفر من الأوس وبني مالك بن النجار من الخزرج. قالوا: كان ربيع الظفري يمر في مال لرجل من بني النجار إلى مال له، فمنعه النجاري، فتشابكا وقتله ربيع فعزم قومهما على القتال.

وكما اختلفوا في ضبط اسم هذا اليوم وفي تحديد مكانه وسبب تسميته اختلفوا أيضاً في تحديد مكانه بين أيام الأوس والخزرج، فبينما يذكره بعضهم يوماً[6] مستقلاً كابن الكلبي نجد ابن الأثير يجعل منه يومين: أولهما باسم يوم ربيع الظفري، وترتيبه بعد حرب الحصين بن الأسلت كما أوردناه هنا. وثانيهما باسم

---

(١) الوفاء ٢ : ٣١٠ وديوان ابن الخطيم ص ٢٦٤.

(٢) مراصد الإطلاع ٢: ٦٠٣.

(٣) المرجع السابق.

(٤) ابن الأثير ١: ٤١٢.

(٥) المرجع السابق: ١: ٤٠٨.

(٦) ديوان ابن الخطيم ص ٢٦٥.

يوم الربيع ضمن أيام حرب حاطب، ويحدد زمنه بعد يوم الجسر أيام حاطب أيضاً.

والنصوص الشعرية التي بين أيدينا تتحدث عن هذا اليوم بطريقة فيها شبه تناقض، فشعراء الأوس ينسبون فيه النصر إليهم، وشعراء الخزرج كذلك يفاخرون الأوس بانتصارهم في هذا اليوم، ولكن يمكن الجمع بينهما بافتراض أن كلا الحيين أثخن في الآخر، أو بأن الحرب فيه كانت على أيام، مرة لهم ومرة عليهم، ونحن نستطيع أن نقبل هذا إذا سقنا عبارة ابن الأثير (فاقتتلوا قتالاً شديداً كان أشد قتال بينهم)، فيوم الربيع كان إذن أشد من الحروب التي سبقته، وفي ذلك فرصة لأن ينال كل جانب من الآخر بغيته ويثخن فيه، ويجد منه بعد ذلك شعراء الحيين ما يفخر به، بالإضافة إلى أن طابع شعر الحرب عند الجاهليين عموماً كان قائماً على الدعاية والإعلام والتطاول والمبالغة، وإلا فكيف يقبل من عمرو بن كلثوم التغلبي - مثلاً - أن يقول:

إذا بلغ الفطام لنا صبيٌّ ... تخرُّ له الجبابرُ ساجدينا
ملأنا البرَّ حتى ضاق عنا ... وظهرُ البحر نملؤه سفينا

قالوا: وانتهت هذه الحرب بافتداء القتلى والصلح بين الحيين. وقال فيها أحد شعراء الخزرج - وهو صخر بن سليمان البياضي[1] -:

ألا أبلغا عني سويدَ بن صامت ... ورهط سويد بلِّغا وابن الاسلت[2]
بأنَّا قتلنا بالربيع سراتَكُمْ ... وأفلَتَ مجروحاً به كلُّ مفلت
فلولا حقوق في العشيرة إنها ... أدلَّت بحق واجب إن أدلت
لنالهُمُ منا كما كان نالهمْ ... مقانِبُ خيلٍ أهلكت حين حلّت

---

(١) ابن الأثير ١: ٤١٢.

(٢) سويد بن صامت شاعر أوسي مخضرم أدرك الاسلام وأسلم ولكنه مات قبل هجرة الرسول إلى المدينة، وقد تحدثنا عنه في الكلام عن ديانة الأوس والخزرج.

فأجابه سويد بن الصامت:

ألا أبلغا عني صخيراً رسالة | فقد ذقتَ حربَ الأوسَ فيها ابنُ الأسلت
قتلنا سراياكم بقتلى سراتنا | وليس الذي ينجو اليكم بمفلَت

وقال حسان يشبب بليلى بنت الخطيم ويفاخر بانتصار الخزرج في هذا اليوم[1]:

لقد هاج نفسَك أشجانها | وعاودها اليومَ أديانُها[2]
تذكّرتَ ليلى ‹و›أنَّى بها | إذا قُطِعت منك أقرانُها[3]
وحجَّل ‹في› الدار غربانُها | وخفَّ من الدار سكانُها[4]
وغيَّر‹ها› مُعصَراتُ الرياح | وسحُّ الجنوب وتَهتانُها
مَهاةٌ من العِينِ تمشي بها | وتتبعُها ثم غزلانُها
وقفتُ عليها فساءلتُها | وقد ظعَن الحيُّ ما شأنُها؟
فعيَّتْ وجاوبني دونَها | بما راعَ قلبيَ أعوانُها

إلى أن يقول:

ويثربُ تعلمُ أنا بها | إذا التبسَ الأمرُ ميزانُها
ويثربُ تعلم أنا بها | إذا قحطَ القَطرُ نُوءانُها
ويثرب تعلمُ أنّابها | إذا خافت الأوس جيرانها
ويثربُ تعلم أن النبيت | عند الهزاهِز ذلّانُها[5]

---

(١) الأغاني ٣: ١٣. والديوان ص ٢٥٢. وابن الأثير ١: ٤٠٩، وتاريخ النقائض ص ٨٥.
(٢) الأديان: جمع دين وهو الداء، يريد داء حبه القديم.
(٣) الأقران: جمع قَرَن وهو الحبل.
(٤) الحجل: أن يرفع رجلاً ويقفز على الأخرى، ويكون بالرجلين ـ جميعاً، إلا أنه قفز وليس بمشي.
(٥) النبيت: هو عمرو بن مالك بن الأوس.

متى ترنا الأوسُ في بَيْضِنا نهزُّ القنا تَخُبُّ نيرانُها
وتعطِ القيادَ على رغمها وينزل من الهام عصيانُها

فأجابه قيس بن الخطيم مشبباً بعمرة زوج حسان(1):

أجدَّ بعمرةَ غُنيانُها فتهجرَ، أم شأنُنا شانُها(2)
وإن تُمْسِ شطَّتْ بها دارُها وباح لك اليومَ هجرانُها(3)
فما روضةٌ من رياض القطا كأن المصابيحَ حوْذانُها(4)
بأحسنَ منها، ولا مُزنة دَلوحُ تكشَّفُ أدجانُها(5)
وعمرةُ من سَرَوات النساء تَنفحُ بالمسك أردانُها(6)
ونحن الفوارسُ يوم الربيع قد علموا كيف فُرسانُها(7)
جنبْنا الحرابَ وراء الصَّريخ حتى تقصَّفَ مُرَّانُها(8)
فلمَّا استقلَّ كلَيثِ الغريفِ زانَ الكتيبةَ أعرانُها(9)

---

(1) الديوان ص ٦٦. وتاريخ النقائض ص ٧٦.

(2) أجد: هل استمر؟ وغنيانها: استغناؤ ها. وعمرة هي زوج حسان بن ثابت، وهي عمرة بنت صامت بن خالد بن عطية. وقيل هي عمرة بنت رواحة أخت الصحابي الجليل عبدالله بن رواحة، وأم النعمان بن بشير الأنصاري. وقوله أم شأننا شانها: أي أم هي على ما نحب.

(3) باح: ظهر، وباح بسره: إذا أظهره.

(4) الروضة: البقعة يجتمع إليها الماء، فيكثر نبتها. الحوذان: نبت طيب الريح له زهرة حسنة.

(5) المزنة: السحابة البيضاء. وجمعها: مزن. والدلوح: التي تجيء مثقلة، يقال مر يدلح بحِمله، إذا مر به مثقلاً. وأدجان: جمع دجْن، وهو الغيمة السوداء.

(6) الأردان: جمع ردن، وهو ما يلي الذراعين جميعاً والإبطين من الكمين. سروات: أشراف.

(7) الربيع: الجدول الصغير في لغة أهل المدينة. والجدول لغة أهل اليمامة. وهو يشير هنا إلى يوم الربيع.

(8) جنبنا: قدنا، يريد: حملوا حرابهم بأيديهم إلى جنوبهم. الصريخ: المستغيث. المران: الرماح تعمل من خشب.

(9) استقل: قام ونهض وارتفع. الغريف: الأجمة وكل شجر ملتف.

تراهُنَّ يُخلَجْنَ خَلْجَ الدلاء   تختلج النَّزْع أشطانُها[1]

ولاقَى الشقاءَ لدى حربنا   دُحَيٌّ وعوف وإخوانُها

رددنا الكتيبةَ مفلولةً   بها أفنُها وبها ذانُها[2]

وقد علموا أنْ متى تنبعثْ   على مثلها تذك نيرانُها[3]

ولولا كراهةُ سفكِ الدماء   لعاد ليثربَ أديانُها[4]

ويثربُ تعلمُ أن النبيت   راسٍ بيثربَ ميزانُها[5]

وبالشَّوْط من يثربٍ أعبُدُ   ستهْلِكُ في الخمرِ أثمانُها[6]

يهونُ على الأوسِ أثمانُهمْ   إذا راح يخْطِر نَشْوانُها

أتتْهمْ عرانينُ من مالكٍ   سراعٌ إلى الرَّوْع فتيانُها[7]

وقد علموا أنّ ما فَلَّهمْ   حديدُ النبيتِ وأعيانُها[8]

وكلا الشاعرين بدأ قصيدته بالتشبيب الصناعي. أما حسان فليس له من ليلى إلا النظر اليسير، فقد رآها بمكة في جمع من نسوة الأوس حين خرج الأوس

---

(١) يُخلجن: يُجذبن. والأشطان: الحبال. وهو يصور في هذا البيت حركة الحراب والرماح في الطعن والنزع.

(٢) الأفن: نقص العقل أو العيب. ورجل مأفون أي ناقص العقل أو ضعيف المعرفة. والذّان: العيب.

(٣) بعثه على الشيء: حمله على فعله. والضمير في قوله (مثلها) (ونيرانها) يعود إلى الحرب.

(٤) أديانها: جمع دين، أي الأمور التي تعرفها وتعتادها. قال المثقف العبدي:

تقول إذا درأْتُ لها وَضِيني   أهذا دينُه أبداً وديني

أي دأبه ودأبي.

(٥) راس: ثابت. والنبيت: هم عمرو بن مالك بن الأوس. وظفر، وهم قوم ابن الخطيم: بطن منهم.

(٦) الشوط: اسم البستان الذي كان يملكه قيس بن الخطيم، وهو عند ملعب التعليم اليوم، كما أشرنا في مكان آخر.

(٧) عرانين الناس: وجوههم وسادتهم وأشرافهم.

(٨) رجل حديد: ماض شديد، ويكون ذلك في اللسْن والفهم والغضب.

إلى مكة يطلبون الحلف من قريش، فقال لها حسان اظعني فالحقي بالحي، فقد ظعنوا، وليت شعري ما خلّفك؟ وما شأنك؟ أقلَّ ناصرك أم راثَ رافدُك؟ فلم تكلمّه، وشتمه نساؤ ها، فشبب بها في شعره الذي قاله في يوم الربيع. وقد أشار إلى ذلك بقوله:

وقفتُ عليها فساءلتُها | وقد ظعنَ الحي ما شأنها؟
فعيَّتْ وجاوبني دونَها | بما راع قلبيَ أعوانُها

وأما ابن الخطيم فحظه أقل من ذلك، فهو يشبب بامرأة متزوجة، لم يرها ولم يجتمع بها، وإن كان تشبيبه أنكى وأشد للسبب نفسه، رغم مراعاته للحشمة والوقار في قوله:

وعمرة من سروات النساء | تنفح بالمسك أردانُها

وفخر كل منهما على الآخر بالظفر والحزم والشجاعة، ولعل من رائع قول حسان:

متى ترنَا الأوسُ في بَيْضِنا | نَهزُّ القنا تَخْبُ نيرانُها
وتُعْطِ القيادَ على رغمها | وينزل من الْهامِ عصيانُها

ومن أبيات ابن الخطيم:

جنَبْنَا الحرابَ وراء الصَّريخ | حتى تَقصَّفَ مُرَّانُها

وقوله:

تراهنَّ يُخلجْن خلْج الدِّلاء | تختلجُ النَّزْعَ أشطانها

ولعلنا بعد أن عرفنا ماذا قال ابن الخطيم عن عمرة بنت صامت نكون مدعوِّين إلى أن نقرأ ماذا قال زوجها حسان نفسه فيها، وهو شعر متين العلاقة

بالموضوع الذي نحن بصدده.

كانت عمرة هذه أوسية من بني عمرو بن عوف تحب حسان وهو يحبها، وحدث في أحد حروبهم أن أجار الأوس مخلَّد بن الصامت الساعدي فقال في ذلك أبو قيس بن الأسلت:

أجرتُ مخلَّداً ودفعتُ عنه | وعند الله صالحُ ما أتيتُ[1]
مُزينةُ عنده ويهودُ قُورى | وقومي كل ذلكمُ كَفَيْتُ

فتكلم فيه حسان بكلام أنكرته عمرة وغضبت منه، وعيّرت حسان بأخواله، وفخرت عليه بالأوس، فغضب لأخواله وطلقها، ثم ندم كلاهما على ما حدث، فقال حسان في ذلك[2]:

أزمعتْ عمرةُ صرماً فابتكِرْ | إنما يُدْهَن للقلبِ الحَصِرْ[3]
لا يكنْ حبُّكِ حبًّا ظاهراً | ليس هذا منكِ يا عمْرَ بسرّ
سألتْ حسّانَ مَنْ أخوالُه؟ | إنما يُسألُ بالشيء الغُمُرْ[4]
قلتُ: أخوالي بنو كعبٍ إذا | أسلم الأبطالُ عوراتِ الدُّبُر
رُبَّ خالٍ ليَ لوْ أبصرْتِهِ | سَبطَ المِشْيةِ في اليوم الخَصِر[5]
عند هذا الباب إذْ ساكَنَه | كلُّ وجهٍ حسنِ النُّقْبَةِ حُر[6]
يوقد النار إذا ما أطفئتْ | يُعمِل القدر بأثباجِ الجُزُرْ[7]

---

(١) الأغاني ٣: ١٦ ثقافة. وديوان أبي قيس بن الأسلت ص ٧١.
(٢) الأغاني ٣: ١٦ - ١٨ ثقافة والديوان ص ١٢١ - ١٢٣.
(٣) يدهن: ينافق ويصانع. الحصِر: الضيق.
(٤) الغمرُ: من لم يجرب الأمور. والجاهل الأبله.
(٥) الخصر: البارد. سبط الكفين: هو السمح الجواد.
(٦) النقبة بالضم: اللون وبالكسر: هيئة الانتقاب.
(٧) أثباج الجزر: أوساطها.

من يغُرُّ الدهرُ أو يأمنُه | من قَبيلٍ بعد عمرو وحُجُر. ؟[1]

مَلَكا من جبل الثَّلْج إلى | جانِبَيْ أيْلةَ، من عبد وحُر[2]

ثم كانا خيرَ مَنْ نال النَّدى | سبقا الناس بأقساط وبر

فارسَيْ خيل إذا ما أمْسكَتْ | ربَّةُ الخِدْر بأطراف السُّتُرْ

أتيا فارسَ في دارهِمْ | فتناهَوْا بعد إعصارٍ بقُرّ

ثم نادَوْا يا لَغسَّانَ اصبروا | إنه يومُ مصاليتٍ صُبُر[3]

اجعلوا معقِلها أيمانَكمْ | بالصفيحِ المصطفَى غيرِ الفُطُرْ[4]

بِضِرابٍ تأذَن الجِنّ له | وطعانٍ مثلِ أفواهِ الفُقُر[5]

ولقد يعلم مَنْ حاربَنا | أننا ننفع قِدْماً ونَضُرّ

صُبُرٌ للموت إنْ حَلَّ بنا | صادقُو البأسِ غطاريفٌ فُخُر

وأقام العزُّ فينا والغنَى | فلنا فيه على الناس الكُبُر[6]

منهمُ أصلي فمَنْ يَفخرْ به | يعرف الناسُ بفخرِ المفتخر

نحن أهلُ العزِّ والمجد معاً | غيرُ أنكاسٍ ولا مِيلٍ عُسُر

فاسألوا عنا وعن أفعالنا | كلَّ قوم عندهمْ علم الخبر

في البيت الأول نجده أدخل اللام الزائدة على كلمة القلب، فأصل التعبير إنما يدهن القلب الحصر، وذكر في البيت الثالث سبب فراقها وصرمها وانطلق منه

---

(١) عمرو وحجر: من ملوك غسان.

(٢) جبل الثلج بدمشق، وأيلة بلد معروف ما بين الحجاز والشام.

(٣) المصاليت: جمع مصلات وهو الشجاع.

(٤) الفطر: جمع فطير، والفطير من السيوف: المتثلِّم.

(٥) تأذن: تستمع. والفقر: جمع فقير وهو مخرج الماء من فم القناة.

(٦) الكبر: الشرف.

إلى المفاخرة بأخواله وبنفسه:

سألتْ حسانَ مَنْ أخوالُه؟ إنما يُسأل بالشيء الغُمُر

وكثيراً ما نرى حسان في شعره يفخر بالتصاق نسبه بالغساسنة، ولذلك نراه هنا يعدد كثيراً من مناقبهم ومعالم قوتهم ثم يقول:

منهمُ أصلي، فمنْ يفخَرْ به يعرف الناسُ بفخرِ المفتخِر
نحن أهلُ العز والمجدِ معا غيرُ أنكاسٍ ولا مِيلٍ عُسُر
فاسألوا عنا وعن أفعالنا كلَّ قوم عندهم علمُ الخبر

وهكذا نرى أن النص شديد الصلة بموضوع شعر الحرب عند الأوس والخزرج، فالنزاع بين الحيين هو الذي أطلق لسان حسان وطلّق زوج حسان.

حرب فارع

فارع هو أحد الآطام المشهورة في يثرب، كان لبني مغالة ابتناه ثابت بن المنذر بن حرام والد الشاعر حسان بن ثابت. وكان غربي الحرم ثم أدخل فيه، وفيه يقول حسان:

أرقتُ لِتوماض البروق اللوامع ونحن نشاوى بين سَلْعٍ وفارع

ولئن كانت هذه الحروب تمثل حلقة في سلسلة حروب الأوس والخزرج، التي تتالت منذ أشعل فتيلتها سمير بن زيد في سوق العصبة، فإن السبب المباشر لها هو أن رجلاً بلويّاً كان جاراً لمعاذ بن النعمان بن امرىء القيس الأوسي والد الصحابي الجليل سعد بن معاذ. أتاه ابن أخ له يزوره، فعنَّ لبعض بني النجار إهانته، ولم يكتف بذلك بل تجرأ عليه وقتله. ولما سمع بذلك معاذ استشاط غضباً وأرسل إلى بني النجار [illegible] ادفعوا إلَّي دية جاري أو أرسلوا إلي بقاتله أقتص منه، فرفضوا أن يدفعوا له

الدية، وفي الوقت نفسه لم يمكنوه من القاتل، وهو وضع أشبه شيء بالوضع الذي سبق حرب سمير. ولم يرض ذلك الأوس، وقال رجل من بني عبد الأشهل: والله إن لم تفعلوا لا نقتل به إلا عمرو بن الإطنابة، وعمرو بن الإطنابة كما نعلم من أشراف الخزرج، وممن تملك على الحيين وساد فيهما وحمل لقب ملك الحجاز، ولكن العصبية الجاهلية عمياء لا تعرف المكانات، ولا ترعى الحرمات، وإنما تؤمن بالثارات والتِّرات.

فبلغ ذلك عَمْراً فقال[1]:

ألا من مبلغُ الأكفاءَ عني ... وقد تُهدى النصيحةُ للنصيحِ
فإنكمُ وما ترجون شطري ... من القول المزجَّى والصَّريح
سيندم بعضكم عجلاً عليه ... وما أثر اللسان إلى الجروح
أبت لي عزَّتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمدَ بالثمن الربيح
وإعطائي على المكروه مالي ... وضربي هامَةَ البطلِ المُشيح
وقولي كلما جشأَتْ وجاشت: ... مكانَكِ تُحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحاتٍ ... وأحمي بعدُ عن عرضٍ صحيح
بذي شُطَبٍ كلون الملح صافٍ ... ونفسٍ لا تقرُّ على القبيح

فقال الربيع بن أبي الحقيق اليهودي يرد على قول ابن الإطنابة وهو من أحلاف الأوس:

ألا من مبلغُ الأكفاء عني ... فلا ظلمٌ لديَّ ولا افتراء
فلست بغائظِ الأكفاءَ ظلماً ... وعندي للملمَّاتِ اجتزاء
فلم أرَ مثلَ من يدنو لخسفٍ ... له في الأرض سيرٌ واستواء
وما بعضُ الإقامةِ في ديارٍ ... يُهانُ بها الفتى إلاَّ عناء
وبعض القول ليس له علاجٌ ... كمخض الماء ليس له إناء

---

(1) ابن الأثير ١: ٤٠٩.

وبعض خــلائق الأقـوام داءٌ — كـداء الشحِّ ليس لــه دواء
وبعض الـداء مُلْتَمَسٌ شفـاه — وداء النَّوْك ليس لـه شِفـاء
يحب المـرء أن يَلْقَى نعيماً — ويـأبى اللهُ إلا مـا يـشـاء
ومن يك عاقلاً لم يلق بؤساً — يُنِـخْ يومـاً بسـاحته القضـاء
تَعاوِره بنـاتُ الـدهـر حتى — تُـثـلِّمـه كـمـا ثُلِمَ الإنـاء
وكــلُّ شـدائـدٍ نـزلت بحيٍّ — سيأتي بعد شدتهـا رَخـاء
فقـلْ للمتقي عَرِضَ المنـايـا — تــوقَّ فليس ينفعُـك اتِّقـاء
فما يُعطَى الحريصُ غنىً بحرْصٍ — وقد يَنمَى لدى الجود الثراء
وليس بنـافع ذا البخـل مـالٌ — ولا مُـزرٍ بصاحبه الـحِبَـاء
غنيُّ النفس ما استغنَى بشيء — وفقرُ النفس ما عَمِرتْ شقاء
يـود المـرء مـا تفِـدُ الليـالي — وكــان فنــاؤهنَّ لـه فـنــاء

فلما رأى معاذ بن النعمان تصميم بني النجار على موقفهم تهيأ لحربهم وتجهز بقومه لقتالهم، والتحم الحيان عند فارع، ولم تنته الحرب بينهم إلا بعد أن تدخّل عمرو بن الإطنابة وحقن الدماء بحكمته، فتحمل دية القتيل، وأصلح بين الحيين، ولعل أيام رئاسته على الحيين واتخاذه التاج ومناداة الناس له بلقب ملك الحجاز كانت بعد موقفه هذا، وقال عمرو بن الإطنابة يفخر بنفسه وبقومه:

صرمتْ ظليمةُ خلّتي ومراسلي — وتبـاعدتْ ضنّاً بزاد الـراحل
جهلاً وما تدري ظليمةُ أنني — قد أستقـلُّ بصرمِ غيرِ الواصل
ذُلُلٌ ركابي حيث شئت مُشَيِّعي — إنّي أرُوعُ قَطا المكان العاقل
أظَليمَ ما يدريـكِ رُبَّتَ خلةٍ — حسَنٌ تَرغُّمُهَا كظَبْيٍ الحائل
قد بتُّ مالكَها وشاربَ قهـوة — دريـاقة، روَّيتُ منهـا واغلي
بيضاءَ صافيةٍ يُرَى مِن دونهـا — قعرُ الإناء يضيء وجهَ الناهل
وسرابَ هاجرةٍ قطعتُ إذا جرىَ — فوق الأكامِ بذاتِ لونٍ باذل

أجد مراحلهـا، كأنَّ عفـاءَها سقطان من كتفيْ ظليمٍ جافل

فلَنـأكلنَّ بنـاجـزٍ من مالِنـا ولنشـربَنَّ بـدَيْنٍ عـامٍ قـابـل

إني من القوم الذين إذا انتدَوْا بـدأوا بحق الله ثم النـائـل

المـانعين من الخنا جيـرانَهُمْ والحاشدين على طعامِ النازل

والخـالـطين غنيَّهمْ بفقيـرهمْ والبـاذلين عـطاءهمْ للسـائـل

والضاربين الكبش يبرق بيضُه ضرْبَ المهنَّد عن حياض الناهل

والعاطفين على المصاف خيولَهُمْ والملحِقـينَ رماحَهمْ بـالقـاتـل

والمدركين عدوَّهمْ بـذُحولِهمْ والنازلين لضَرْبِ كلِّ مُنـازِل

والقائلين معاً: خذوا أقرانكُمْ إنَّ المنيَّـةَ من وراء الـوائـل

خُـزْرٌ عيـونُهمُ إلى أعـدائهمْ يَمشون مشي الأُسْد تحت الوابل

ليسوا بأنكـاسٍ ولا مِيلٍ إذا ما الحرب شبت أشْعَلُوا بالشَّاعل

لا يَطْبَعُون وهم على أحسابِهمْ يَشفُون بالأحلام داءَ الجاهل

والقائلين فَلَا يُعـاب خَطِيبُهمْ يوم المقالة بالكلام الفاصـل

ولنلق نظرة سريعة على النصوص السابقة، وأولها حائية عمرو بن الإطنابة، وقد قلت في مناسبة سابقة إن هذا النص بلغت أبياته حد التواتر عند الأدباء، والذي يقرأ شعر ابن الإطنابة يجد فيه الفكر الثاقب والرأي الصائب والمعاني الشريفة، مما يؤكد أهليته للقيادة التي نالها بين قومه، فهو يلجأ إلى السيف ليدفع عن مآثر صالحات:

لأدفـع عن مـآثـر صـالحـاتٍ وأحمي بعدُ عن عرضٍ صحيح

بذي شُطَبٍ كلَونِ الملح صافٍ ونفسٍ لا تقـرُّ على القبيـح

أما شعر ابن أبي الحقيق فرغم كونه مجموعة من الحكم إلا أنني أكاد ألمس بينها خيطاً عاطفياً ونسقاً فنياً يربطها ببعضها، وهي في نظري ظاهرة غريبة في شعر

الحكم، فإن الغالب عليه انعدام الصلة بين أبياته. وهناك ملاحظة أخرى حول هذا النص، هي أن بعض أبياته ليست ثابتة النسبة إلى ابن أبي الحقيق، فهي منسوبة إلى غيره مثل ابن الخطيم، بل إن الدكتور ناصرالدين الأسد يوشك أن يؤكد ذلك بأدلة قوية، ومن المستحسن أن نورد هنا قصيدتي ابن الخطيم الهمزيتين لندرك مدى صدق ما قلنا.

يقول ابن الخطيم في القصيدة الأولى[1]:

بعضُ القـول ليس له عنـاجٌ	كمخضِ الماء ليس له إناء[2]
يصوغ لك اللسان على هـواه	ويفضَحُ أكثرَ القيلِ البلاء[3]
ومـا بعضُ الإقامـةِ في ديـارٍ	يكـونُ بهـا الفتى إلّا عنـاء
ولم أرَ كامرىء يدنو لخسفٍ	له في الأرض سيرٌ وانْتواء[4]
وبعضُ خـلائق الأقـوامِ داءٌ	كداء الكشْح ليس له شِفاء[5]
ألا مَن مبلغُ الشعـراءِ عني	فـلا ظلمٌ لـديَّ ولا ابتـداء
ولست بعـابطِ الأكفـاءِ ظلْمـاً	وعنـدي للملمَّـاتِ اجْتـزاء[6]
يحب المـرء أن يَلقى منـاه	ويـأبَى الله إلا مـا يشـاء

وقال أيضاً:

ومَنْ يكُ عاقلاً لم يَلقَ بؤساً	يُنِـخْ يومـاً بسـاحتـه القضـاء

---

(١) ديوان ابن الخطيم ص ١٥١ - ١٥٨.

(٢) بعض: هكذا وردت في الديوان، والأولى (وبعض). عناج: شيء يمسكه كعناج الدلو، وهو الحبل.

(٣) البلاء: الاختبار.

(٤) الانتواء: هو القصد لبلد غير البلد الذي فيه مقيم.

(٥) الكشح: هو داء يصيب الانسان في كشحه فيكوى منه. وقيل: هو ذات الجنب.

(٦) الاجتزاء: الغناء والكفاية.

تناوله بنـاتُ الـدهـر حـتى تُثلِّمُـهُ كـمـا انثـلَمَ الإنـاء
وكـلُّ شـديـدةٍ نـزلَتْ بحـيٍّ سيأتي بعـدَ شـدتهـا رخـاء
فقـل للمتَّقي عَرَضَ المنـايـا تـوقَّ، وليـس ينفعُـك اتِّقـاء
فلا يُعطَى الحريصُ غنىً لِحرْصٍ وقد يَنْمى لذي العجْزِ الثَّراء
غنيُّ النفسِ، ما استغنى غنيٌّ وفقْرُ النفس، ما عمَرَتْ شَقاء

وعلى كل حال فابن أبي الحُقيق شاعر يهودي كان بيثرب، واشترك بشعره بنصيب وافر، وقد ذكرنا في الحديث عن سوق الجسر لقاءه بالنابغة الذبياني والمساجلة التي جرت بينهما وشهادة النابغة له بالتفوق، فبلغة القوم كان اليهود يتكلمون وعلى أوزان شعرهم البليغ ينظمون.

حرب حاطب

إذا كان ابن الأثير جزم بكثير من الأمور حول هذه الحرب من حروب الأوس والخزرج، فإن ذلك الجزم فارقه في بعض الجوانب الأخرى.

جزم بأنها سميت باسم حاطب بن قيس[1] من بني أمية بن زيد بن مالك بن عوف الأوسي. أحد سادة الأوس في زمانه وأشرافهم المعدودين الذي حمى جاره الذبياني ووقف من دونه.

وجزم كذلك بأن الفاصل الزمني بين حرب حاطب وسمير مائة سنة، وأنها آخر حروبهم إلى يوم بعاث.

وجزم أيضاً بإسهام الشاعر يزيد بن فُسحُم الخزرجي فيها، وذلك بعُدْوانِهِ

---

(١) ابن الأثير ١: ٤١١ - ٤١٢.

على جار حاطب وقتله إياه، وأن الظفر كان للخزرج على الأوس.

لكننا مع جزمه في هذه الأمور نجد كلامه غير واضح بالنسبة لإدخال بعض أيامهم في هذه الحرب فقد اضطرب في ذلك كما اضطرب غيره، وهذه الأيام هي يوم: مضرِّس ومعبِّس، ويوم الجسر، ويوم الرَّعِل، ويوم الغرس، ويوم الحديقة، ويوم الربيع، ويوم الفجار الأول، ويوم الفجار الثاني، ويوم البقيع.

هل هذه الأيام حروب مستقلة.؟ أو أنها أيام من حرب حاطب؟ أو أن بعضها مستقل والآخر جزء منها؟..

ولأجل هذا سمحت لنفسي أن أتخذ رأياً أقلل فيه من هذا الاضطراب، وأؤكد فيه عبارة ابن الأثير [وحرب حاطب آخر وقعة كانت بينهم إلا يوم بعاث] لأنها أصرح في نظري من الاعتماد على الترتيب الذي التزمه في ذكر حروبهم حسب زمانهم، وإلاّ فهو قد ذكر مضرِّس ومعبِّس، والفجار الأول والثاني مثلاً بعد ذكره ليوم حاطب.

فأنا أرجح إذن أن كل ما ذكرناه قبل قليل من أيامٍ داخلٌ في حرب حاطب، وذلك على النحو التالي:

١ ـ يوم الغرس: ويسمى أيضاً يوم الحديقة[1] أو الحدائق، كما يسمى كذلك يوم الدُّرَيْك.

٢ ـ يوم البقيع.

٣ ـ يوم الفجار الأول.

٤ـ يوم مضرِّس ومعبِّس: ويسمى أيضاً يوم الجسر ويوم الرعل ويوم الفجار

---

(١) ديوان ابن الخطيم ص: ٢٨٠ ـ ٢٨٢.

الثاني وهو بعد يوم الفجار الأول.

أما يوم الربيع فقد رجحنا في موضع آخر أنه يوم مستقل سابق ليوم حاطب بزمن ليس بالقصير. ونعود لسياق الكلام عن حرب حاطب وسببها المباشر بعد اقتناعنا بالصورة التي تمت عليها فنقول: إن الرجل الذبياني الذي أجاره حاطب[1] ونزل عليه ضيفاً غدا يوماً إلى سوق بني قينقاع فرآه الشاعر يزيد بن فسحم وهو من بني الحارث بن الخزرج، وكان فيما يبدو رجلاً عابثاً أو شاباً طائشاً أو من الحاقدين على الأوس، فقال لرجل من اليهود: لك ردائي إن كسعت[2] هذا الذبياني، فأخذ منه الرداء، وكسع الذبيانيَّ كسعة سمعها من بالسوق، فنادى الذبياني: يا لحاطب. ! كُسِع ضيفك وفُضِح. ! فلم يلبث أن سمع حاطب بالخبر فأقبل مسرعاً إليه وسأله: من كسعك؟ فأشار إلى اليهودي، فاستل حاطب سيفه، وضرب به اليهودي ضربة فلق بها هامته، وبلغ نبأ ذلك يزيدَ بن فُسحُم، فأسرع خلف حاطب يريد قتله فلم يستطع إدراكه، لأنه كان قد دخل بيوت أهله، ووجد أمامه رجلاً من بني معاوية من الأوس فقتله بدلاً من حاطب وثأراً لصاحبه اليهودي، فثارت الحرب بين الأوس والخزرج، واحتشد الجمعان بالحدائق، وعلى الخزرج يومئذ عبدالله ابن أبي بن سلول، وعلى الأوس أبو قيس بن الأسلت. وعلم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، وخيار بن مالك الفزاريـان بالأمر، فقدِمَا يثرب يحاولان إنهاء هذه الحرب قبل استفحالها بين الحيين، فتحدثا مع الجانبين حديث الناصح المنبه إلى مخاطر الحروب وشرورها، وضمنا لتحقيق ما ندبا نفسيهما له: أن يتحملا كلَّ ما يدّعي بعضُهم على بعض، فأبَوْا. ووقعت الحرب في الحدائق (أو الحديقة) وهي من ضواحي المدينة وظواهرها، ولم يُعنَ القدماء بتحديد مكانها، إلا أنهم قالوا كلاماً أستبعد صحته كل الاستبعاد، فقد قال ياقوت: إنها قرية من أعراض المدينة

---

(١) سيرة ابن هشام ١: ٢٨٧ والمرجع السابق. وأيام العرب في الجاهلية ص ٧٢.

(٢) كسعه: ضربه برجليه في دبره.

في طريق مكة، كانت بها وقعة بين الأوس والخزرج قبل الاسلام، وإياها أراد قيس بن الخطيم بقوله:

أجالدهمْ يوم الحديقة حاسراً كأن يدي بالسيف مخراقُ لاعب

والذي يبدو لي أنها كانت غير بعيدة من الفضاء، وهو كما حددناه في كلام سابق بين بئر بني سالم وقباء وليست ببعيدة منها أيضاً بئر الدُّرَيْك التي وردت أيضاً في شعر ابن الخطيم حين قال:

كأنَّا وقد أُجْلُوا لنا عن نسائهم أسودٌ لها في غيل بيشةَ أشْبُل
ببئر الدُّريْكِ، فاستعدُّوا لمثلها وأصغُوا لها آذانَكمْ وتأمَّلُوا

ولهذا سمى بعضهم هذه الحرب حرب الدريك. كما أنها ليست بعيدة عن بئر الغُرس[١] (بضم الغين المعجمة وتفتح وسكون الراء) وهي بئر[٢] بقباء تقع شرقي مسجد قباء على نحو نصف ميل إلى جهة الشمال. ولهذا وسمت هذه الحرب بها أيضاً، حيث أطلقوا عليها يوم الغُرس. فالحديقة أو الحدائق إذن ما بين قباء والآبار التي ذكرنا وهو الذي يمكن قبوله عقلاً. أما أن يتواعدوا في قرية خارجة عن نطاق يثرب فهو ما لا يستسيغه التفكير أو المقاييس المعهودة منهم.

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه ما أورده السمهودي[٣] أن رسول الله ﷺ حين دخوله المدينة مهاجراً مر ببني سالم بن عوف من الخزرج فقام إليه عتبان بن مالك ونوفل ابن عبد الله بن مالك بن العجلان وهو آخذ بزمام راحلته يقول: يا رسول الله.. انزل فينا، فإن فينا العدد والعدة والحلقة، ونحن أصحاب الفضاء والحدائق

---

(١) الغُرس: الفسيل، والشجر الذي يغرس.
(٢) عمدة الأخبار ص ٢٦٨.
(٣) الوفاء ١: ١٨٣.

والدريك ،يا رسول الله قد كان الرجل من العرب يدخل هذه البَحرة[1] خائفاً، فيلجأ إلينا، فنقول له: قوقل[2] حيث شئت.

وقال قيس بن الخطيم في يوم الحديقة مذهبته الشهيرة[3]:

أتعرف رسماً كاطِّراد المذاهب ... لعمرةَ وحْشَا غيرَ موقف راكب[4]

ديارَ التي كادتْ ـ ونحن على مِنىً ... تحلُّ بنا لولا نَجاءُ الركائب[5]

تبدَّت لنا كالشمس تحت غمامةٍ ... بدا حاجبٌ منها وضنَّتْ بحاجب

ولم أرَهَا إلا ثلاثاً على مِنىً ... وعهدي بها عذراءَ ذاتَ ذوائب

ومثلِكِ قد أصْبَيْتُ ليْست بكَنَّةٍ ... ولا جارةٍ ولا حليلةِ صاحب[6]

دعوتُ بني عوف لحقن دمائهمْ ... فلما أبَوْا سامحتُ في حرب حاطب[7]

وكنتُ امرءاً لا أبعثُ الحربَ ظالماً ... فلما أبَوْا أشعلتها كلَّ جانب

أرِبْتُ بدفْعِ الحرب حتى رأيتُها ... عن الدَّفْع لا تزدادُ غير تقارُب[8]

فإنْ لم يكن عن غاية الموتِ مَدْفَعٌ ... فأهلاً بها إذْ لم تزَلْ في المراحِب[9]

فلما رأيتُ الحربَ حرباً تجرَّدَتْ ... لبِستُ مع البُرْدَيْنِ ثوبَ المُحارب[10]

---

(١) البحرة: الأرض، والقرية يشيرون إلى المدينة فمن أسمائها البحيرة.

(٢) قوقل: أي تنقل حيث شئت.

(٣) الجمهرة ص ٢٢٧ والخصائص ١: ٩٦ وأمالي المرتضى ١: ٣٣٠ والمنازل والديار ص ٨١ والديوان ص ٧٦.

(٤) اطراد: تتابع. والمذاهب: جلود كانت تذهب. واحدها مذهب، تجعل فيها خطوط مذهبة بعضها في إثر بعض، فيقول: يلوح رسمها كما يلوح هذا المذهب.

(٥) أي كادت تحل بنا ركابنا فنقيم عندها من حبنا لها.

(٦) يتذمم أن يفعل ذلك بمثل من ذكر

(٧) بني عوف: يقصد بني عمرو بن عوف من الأوس. وسامحت: تابعت.

(٨) أربتُ: كانت لي إرْبة في دفع الحرب أي حاجة: كالأرَب والإرْبة والمأرُبَة.

(٩) المراحب: جمع مرحب أي سعة، وأراد: لا يزال في الأمر سعة.

(١٠) أي إني لبست ثياب الحرب وهي الدرع فوق ثياب السلم.

مُضاعَفةً يغشى الأناملَ فضلُها ... كأنَّ قتيرَيْها عيونُ الجنادب [1]

أتتْ عُصَبُ م الكاهنَيْن ومالكٍ ... وثعلبةَ الأثْرينَ رَهْطِ ابنِ غالب [2]

رجالٌ متى يُدْعَوْا إلى الموت يرقلوا ... إليه كإرقالِ الجمالِ المصاعب[3]

إذا فزعوا مدُّوا إلى الليل صارخاً ... كموج الأتيِّ المُزْبِد المُتراكب[4]

ترى قِصَدَ المرَّان تهوي كأنَّها ... تَذرُّعُ خُرصانٍ بأيدي الشَّواطب[5]

صَبَحْنا بها الآطام حول مُزاحِمٍ ... قوانسُ أُولَى بَيْضِنا كالكواكب[6]

لو انَّك تُلقي حنظلاً فوقَ بَيْضنا ... تَدحْرجَ عن ذي سامِهِ مُتقارب[7]

إذا ما فررْنا كان أسْوَا فِرارِنا ... صدودَ الخدود وازورارَ المناكب

صدودَ الخدود والقنا متشاجرٌ ... ولا تبرح الأقدامُ عند التَّضارُب

إذا قَصُرتْ أسيافُنا كان وصلُها ... خُطانا إلى أعدائنا فنُضارِب

أجالدُهمْ يوم الحديقة حاسراً ... كأن يدي بالسيف مخراقُ لاعب

ويوم بُعاث أسلمتنا سيوفُنا ... إلى نسب في جِذْمِ غسّانَ ثاقب[8]

---

(١) مضاعفة: تُنسج حلقتين حلقتين، والقتير: رؤوس المسامير لحلق الدروع، وشبه القتير بعيون الجراد.

(٢) الكاهنين: قريظة والنضير. وثعلبة هم: بنو ثعلبة بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس. والأثرين جمع أثر وهو الرجل الذي يستأثر على أصحابه بأخلاق حسنة.

(٣) أرقل البعير: أي جرى. والمصعب: الذي لم يمسه حبل ولم يذلل.

(٤) الصارخ: المغيث. والأتيّ: السيل يأتيك ولم يصبك مطره.

(٥) قِصَد: كِسَر. والمُرّان: الرماح. والتذرع: انكسار القضيب ونحوه بقدر كل ذراع. والخُرص: كل قضيب أو غصن يابس أو رطب من رمح أو سعف. الشطْبة: السعفة الطويلة؛ والشاطبة من النساء: التي تشققها وتأخذ قشرها الأعلى تعمل منه الحصر.

(٦) مزاحم: هو أطم عبدالله بن أبيّ بن سلول. والقوانس: جمع قونس: الناتىء في أعلى البيضة وإنما قال: أولى، لأنهم إنما يرون أول من يطلع عليهم.

(٧) السام: عروق الذهب مفردها سامة، وأراد بها هنا خطوط ذهب على البيض تموّه بها.

(٨) ثاقب: أي مضيء غير خامل. والجِذم: الأصل.

يُعَرَّيْنَ بيضاً حين نَلْقَى عدوَّنا ويُغمَدْن حُمْراً ناحلات المضارب

أطاعتْ بنو عوف أميراً نهاهمُ عن السلم، حتى كان أوَّلَ واجب[1]

أويْتُ لعوف إذ تقولُ نساؤهمْ ويرمين دفعاً: ليتنا لم نحارب[2]

صبحناهمُ شهباءَ يَبرُقُ بَيْضُها تُبينُ خلاخيلَ النساء الهوارب[3]

أصابتْ سَراةً مِ الأغرِّ سيوفُنا وغودِرَ أولادُ الإماءِ الحواطب[4]

ومنّـا الذي آلَى ثـلاثينَ ليلةً عن الخمر حتى زاركمْ بالكتائب[5]

رضيتُ لهم إذ لا يَريمون قَعرَها إلى عازب الأموالِ إلا بصاحِب[6]

فلولا ذرى الآطام قد تعلَمونَه وترْكُ الفضا، شوركتُمُ في الكواعب

فلَمْ تَمنعوا منا مكانا نُريـده لكُمْ مُحرزا إلا ظهورَ المشارب[7]

فهلاّ لدى الحرْبِ العَوانِ صَبرتمُ لِوقْعتِنا، والبأسُ صعبُ المراكب[8]

ظأَرْناكمُ بـالبيضِ حتى لأَنْتُمُ أذلُّ من السُّقبانِ بين الحلائب[9]

ولما هبْطنا الحرثَ قال أميرُنا: حرامٌ علينا الخمرُ ما لم نُضارب[10]

فسـامحـه منـا رجـالٌ أعـزَّةٌ فما برِحوا حتى أُحِلَّتْ لِشارب[11]

---

(١) واجب: ميت. والمقصود بأميرهم هنا هو أمير الخزرج يوم بعاث وهو عمرو بن النعمان البياضي.

(٢) أي يرميننا من فوق الآطام دفعاً عن أنفسهن.

(٣) شهباء: المقصود كتيبة شهباء أي صافية الحديد تبين: أي يهربن يتحسرن عن سيقانهن.

(٤) الأغر هو مالك الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج، يريد أنهم قتلوا سراة القوم من الخزرج من بني مالك الأغر، لأنهم أقرانهم وعفوا عمن دون السادة فلا يليق بهم أن ينازلوهم ويقاتلوهم.

(٥) هو أبو قيس بن الأسلت وذلك في يوم بعاث.

(٦) عازب الأموال: هي الإبل والشاء التي تعزب عن أهلها في المرعى.

(٧) المشارب: الغرف.

(٨) العوان: الحرب التي قوتل فيها مرة بعد أخرى.

(٩) ظأرناكم: عطفناكم على ما نريد. والسّقبان: جمع سقب، وهو الذكر من أولاد الإبل.

(١٠) الحرث اسم موضع في ظاهر المدينة. وأميرهم هو: حضير الكتائب بن سماك.

(١١) سامحه: أي تابعه.

فليتَ سويداً راءَ مَنْ جرَّ منكمُ ومن فرَّ إذ يَحدونهمْ كالجلائب [1]

فَـأُبْنـا إلى أبنـائنـا ونسـائنـا وما مَنْ تركنا في بُعاثَ بآيب

وغُيِّبْتُ عن يوم كَفَتْني عشيرتي ويوم بعاثٍ كان يومَ التَّغالُب [2]

هذه القصيدة من عيون شعر ابن الخطيم وروائعه التي نالت إعجاب القدماء، والمحدثين، فقد كان [3] عبد الرحمن بن عوف في سفر له صحبه فيه رباح بن المعترف. وعلى عادة العرب يقطعون الطريق ويستعينون على وعثائه بالحداء والأراجيز، فتغنى رباح ببعض الأشعار، وأدركهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وللفاروق كما هو معروف ذوق عال في الحكم على الشعر والشعراء، فقال: ما هذا يا عبد الرحمن..؟ قال: نقطع به سفرنا. فقال عمر: إن كنت لا بد فاعلاً فخذ:

أتعرف رسماً كاطراد المذاهب لعمرةَ وحشاً غيرَ موقف راكب

تبدّتْ لنا كالشمس تحت غمامة بدا حاجب منها وضنّتْ بحاجب

والنابغة الذبياني يشهد لابن الخطيم بالشاعرية الفذة من خلال هذه القصيدة أيضاً، فقد ارتجل النابغة الذبياني في سوق بني قينقاع بيثرب قصيدته التي مطلعها:

عــرفت منــازلاً بِعُــريتِنــات فأعلى الجِزْع للحيِّ المُبِنِّ [4]

وكان حسان بن ثابت [5] حاضراً، قال: فقلت: هلك الشيخ ورأيته قد تبع قافية منكرة فما زال ينشد حتى أتى على آخرها، ثم قال: ألا رجل ينشد؟ فتقدم قيس بن

---

(١) راء: رأى. والجلائب: الجماعات من الخيل والإبل والغنم والناس، ومفردها جلوبة. وسويد هو سويد ابن الصامت الأوسي.

(٢) لم يحضر قيس يوم بعاث، ولكن قومه انتصروا فيه على الخزرج.

(٣) ديوان ابن الخطيم ص ٩.

(٤) عريتنات: اسم واد. والمبِنّ: المقيم.

(٥) الأغاني ٣: ١٠ ثقافة.

الخطيم وأنشد:

أتعرف رسمًا كاطراد المذاهب لعمرة وحشاً غير موقف راكب

حتى فرغ منها. فاهتز لها النابغة وقال: أنت أشعر الناس يا ابن أخي. وهكذا ظفر ابن الخطيم بشهادة شاعر من أصحاب المعلقات، وممن كان يحكم في الش بسوق عكاظ، ويعرض عليه الشعراء شعرهم ليقرر رأيه فيه؛ ومنهم كبار الشعراء كالأعشى والخنساء.

ولعل الشهادة الكبرى[1] لابن الخطيم وقصيدته هذه تأتيه من رسول الله ﷺ، فقد جلس رسول الله ﷺ في مجلس ليس فيه إلا خزرجي ثم استنشدهم قصيدة قيس بن الخطيم هذه: فأنشده بعضهم إياها، فلما بلغ الى قوله:

أجالدهم يوم الحديقة حاسراً كأن يدي بالسيف مخراقُ لاعب

التفت اليهم رسول الله ﷺ فقال: هل كان كما ذكر؟ فشهد له ثابت بن قيس ابن شمّاس وقال له: والذي بعثك بالحق يا رسول الله... لقد خرج الينا يوم سابع عرسه عليه غلالةٌ وملحفة مورّسة، فجالدنا كما ذكر.

ولئن قال ابن الخطيم هذه القصيدة بعد حرب بعاث وهو لم يحضرها، فإننا رأينا أن نوردها هنا لما ورد فيها من ذكر ليوم الحديقة أحد أيام حرب حاطب، لأنه اشترك فيها واصطلى بنارها فقد كان في هذا اليوم عائداً من حائط له، فوافق قومه قد برزوا لقتال الخزرج فلم يتردد في الاشتراك معهم، بل عجل في الانضمام لهم دون أن يأخذ الأهبة الكاملة، ومع ذلك فقد أبلى بلاء حسناً، وجرح جرحاً شديداً بقي يتداوى منه زمناً طويلاً، وأُمِر أن يحتمي عن الماء، وهو ما أشار اليه عبد الله بن رواحة في رده عليه:

---

(1) المرجع السابق ص ٣: ٩.

رميناك أيام الفجار فلم تزل حميًا، فمن يشربْ فلست بشارب

وقصيدة ابن رواحة هي :

أشاقتكَ ليلى في الخليط الُمجانب نعم فرشاشُ الدمع في الصدر غالبي

بكى إثْر من شطّتْ نواه ولم يقفْ لحاجة محزونٍ شكا الحب: ناصب

لدن غدْوة حتى إذا الشمس عارضتْ وراح له من همه كلُّ عازب

تبيّنْ فإنَّ الحب يعلق مدبراً قديماً إذا ما خلة لم تصاقب

كسوتُ قتودي عرمساً فنصأتُها تُخبُّ على مستهلكاتٍ لواحب

تُباري مطايا تتّقي بعيونها مخافةَ وقع السَّوطِ خوصَ الحواجب

اذا عُيِّرتْ أحسابُ قومٍ وجدتّنا ذوي نائلٍ فيها كرامَ المضارب

نُحامي على أحسابِنا بتلادنا لمفتقرٍ أو سائلٍ الحق راغب

وأعمى هدتْه للسبيلِ حلومُنا وخصْمٍ أقمْنا بعد ما لجَّ شاغب

ومعتركٍ ضنكٍ ترى الموت وسْطَهُ مَشَيْنَا له مشْيَ الجمالِ المصاعب

بِخُرْس ترى الماذيَّ فوق جلودهمْ وبيْضاً نقاءً مثلَ لون الكواكب

فهم جُسُرُ تحت الدروع كأنهمْ أسودُ متى تُنْضَ السيوفُ تُضارِب

معاقلهمْ في كلِّ يوم كريهةٍ مع الصبر منسوبُ السيوفِ القواضب

فخرتُمْ بجمع زاركمْ في ديارِكمْ تغلغلَ حتى دوفعوا بالرواجب

أباحَ حصوناً ثم صعَّد يبتغي مظنة حتى في قريظة هارب

رميناكَ أيام الفجار فلم تزَلْ حميّاً فمَنْ يشرب فلستَ بشارب

وهكذا نرى عدد أبيات قصيدة ابن رواحة ستة عشر بيتاً، بينما عدد أبيات قصيدة ابن الخطيم ثمانية وثلاثون بيتاً، وكلاهما تغزل بأخت صاحبه، وموقف ابن رواحة

ضعيف متأثر بالهزيمة التي أصابت قومه الخزرج في بعاث لأن كلا النصين - كما قلنا - تم وضعهما بعد حرب بعاث، ففخرُ ابن الخطيم كان أقوى وأكثر صخبا، وقد رجع كلاهما الى الحديث عن حروب سابقة، فابن الخطيم ذكر يوم الحديقة وابن رواحة ذكر يوم الفجار الأول وكلاهما من حرب حاطب.

يوم البقيع

وبعد يوم الحديقة (أو الدريك أو الحدائق أو الغُرُس) التقى الحيان ببقيع الغرقد، واقتتلوا قتالاً شديداً انتهى بظفر الأوس، فقال عبيد بن نافذ الأوسي:[١]

لمـا رأيتُ بني عـوف وجمعَهـمُ ... جاؤوا، وجمع بني النجار قد حفلوا
دعوتُ قومي، وسهّلت الطريق لهمْ ... الى المكان الذي أصحابُه حللوا
جاءت بأنفُسها من مالك عُصَبٌ ... يوم اللقاء فما خافـوا ولا فشلوا
وعاوروكُمْ كؤوسَ الموت إذْ برزوا ... شـطْرَ النهار وحتى أدبَـر الأصُل
حتى استقاموا وقد طال المراسُ بِهِمْ ... فكلُّهم من دماء القوم قد نَهَلوا
تكشَّفُ البيضُ عن قتلى أولي رحِمٍ ... لـولا المسالم والأرحـام مـا نُقلوا
تقـول كـلُّ فتـاةٍ غـاب قَيِّمُهـا ... أكَلُّ مَنْ خلفنَا مِن قـومنا قُتلوا
لقـد قتلتُمْ كـريمـاً ذا مُحافـظةٍ ... قد كان حـالفَهُ القَينـاتُ والحُلَل
جَــزْلٌ فـواضلُه، حُلْوٌ شمــائلُه ... ريَّانُ واغلهُ[٢]، تَشْقَى به الإبل

فأجابه عبد الله بن رواحة الحارثي الخزرجي:

لما رأيتُ بني عوف وإخوتَهمْ ... كعباً، وجمعَ بني النجار قد حفلوا
قوما أباحوا حماكمْ بالسيـوف ولم ... يَفعل بكمْ أحد مثلَ الذي فعلوا

---

(١) ابن الأثير ١: ٤١٣.

(٢) الواغل: الذي يدخل على القوم وهم يشربون.

نلاحظ في مقطوعة عبيد استعراضاً للمعركة وكيف استطاع قومه القضاء على الخزرج، حتى سحقوهم وغلبوهم على أمرهم، ولم يكد يبقى منهم أحد، فحتى جثث القتلى كانت ستبقى للسباع والطيور الجارحة لولا الرحم والقربى.

تكشَّفُ البيضُ عن قتلىَ أولي رحم لولا المسالم والأرحامُ ما نقلوا

ولم تذكر المراجع التي تحت أيدينا غير بيتين لابن رواحة، وهما لا يعطيان في هذه المناسبة أية دلالة معينة، غير أننا نستبعد أن يكون اقتصر على هذين البيتين فقط.

وكان رئيس الأوس في حرب حاطب كما سبق أن ذكرنا: ابو قيس بن الأسلت الوائلي، فقام بها أحسن قيام، وترك راحته وهجر لذاته، بل ترك الدار والأهل، فلم يعد يسمح لنفسه بالذهاب الى داره أو مقابلة زوجته، فهو ما بين إزجاء جمع وقيادة راية، وما بين حمحمة أجرد وصلصلة سيف أو تشابك رماح. ونذر ألا يشرب خمراً ولا يلمس ماء او طيباً حتى يحقق لقومه النصر، فشحب لونه وتغيرت سجنته، وجاء يوماً الى امرأته كبشة بنت ضمير بن مالك بن عدي فأنكرته، وكادت تقفل الباب في وجهه. ولم تعرفه الا بصوته، فقالت له: لقد أنكرتك حتى تكلمت[1] فقال عينيته الشهيرة:

قالت - ولم تقصد لقيل الخنا: مهلاً، فقد أبلغت أسماعي[2]

أنكرتهِ حين توسَّمتِه والحرب غولٌ ذاتُ أوجاع[3]

مَنْ يَذُقِ الحربَ يجدْ طعمَها مُرّاً وتحبسْه بجعْجاع[4]

قد حَصَّتِ البَيْضَةُ رأسي فما أطعَمُ نوماً غيرَ تهَجاع[5]

(١) ابن الأثير ١: ٤١٣ والتنبيه للبكري ص ٣٣ وديوان ابن الأسلت ص ٧٨

(٢) الخنا من الكلام: أفحشه. أبلغت: انتهيت فيه.

(٣) الغول: المنية والداهية، والغوائل: الدواهي.

(٤) الجعجاع: الموضع الضيق الخشن.

(٥) الحصّ: حلق البشرة، والتهجاع: النومة الخفيفة.

أسعى علـى جُلِّ بني مـالـكٍ كـلُّ امرىء في شأنـه سـاع[1]

أعـددتُ لـلأعـداء مـوضـونـةً فضفاضـةً كالنِّهْي بـالقـاع[2]

أحفـزُهـا عـني بـذي رونـقٍ مـهـنَّـد كـالملح قَـطَّاع[3]

صَـدْقٍ حـسـامٍ وادقٍ حـدُّه ومُجْـنـأ أسـمـرَ قَـرَّاع[4]

بَـزُّ امـرىء مُستبْسِـلٍ حـاذرٍ لـلدهـر جلدٍ غـير مجـزاع[5]

الحـزمُ والقوة خـيرٌ من الإد هـان والـفَـكَّـةِ والهْـاع[6]

ليس قُطاً مثـلَ قُـطَيٍّ ولا الـ ـمرْعيُّ في الأقوام كـالرَّاعي[7]

لا نـألُم القتـلَ ونجـزي بـه الأعداءَ كـيْـلَ الـصَّـاع بـالـصـاع

نـذودُهـمْ عـنـا بُمـسـتـنَّـةٍ ذاتِ عـرانـيَن ودُفَّـاع[8]

كـأنهمْ أسْـدُ لـدى أشْـبُـلٍ يَنْهْتَنَ في غِـيـلٍ وأجْزاعِ[9]

حـتى تجـلَّت ولـنـا غـايـةٌ من بـين جمع غـيرِ جُمَّاع[10]

هـلاّ سـألت الخيـلَ إذ قلَّصتْ مـا كـان إبـطائي وإسـراعي

هـل أبـذُلُ المـال عـلى حبـه فـيهـم، وآتي دعوةَ الـداعـي

---

(١) جل الشيء :معظمه.

(٢) الموضونة: الدرع التي نسجت حلقتين حلقتين. والنِّهي: الموضع الذي له حاجز ينهي الماء أن يفيض منه.

(٣) حفزه: دفعه من خلفه. وبالرمح طعنه، وعن الأمر: أعجله وأزعجه.

(٤) الصدق: الصلب المستوي من الرماح والرجال، والكامل من كل شيء، لوادق: الحديد من السيف وغيره. والمجنأ: الترس، وجعله أسمر لأنهم كانوا يتخذون الترس من جلود الإبل.

(٥) البز: السلاح. مستبسل: موطن نفسه على الموت.

(٦) الادهان: المصانعة واللين أو الغش. والفكّة: الحمق والاسترخاء في الرأي. والهاع: سوء الحرص مع الضعف.

(٧) ليس قطا مثل قطي: مَثَلٌ يضرب في خطأ القياس.

(٨) المستّنة: الكتيبة الماضية على سنن واحد لا تعرِّج على شيء. عرانين القوم: رؤساؤهم.

(٩) النّهيت: صوت الصدر، وأكثر ما توصف به الأُسْد. والغيل شجر ملتف. الجزع: الوادي المتسع الذي ينبت الشجر.

(١٠) لنا غاية: اي جماعة. والجُمَّاع: الفرق من ههنا وههنا.

وأضربُ القونَسَ يوم الوغَى ... بالسيف لم يقصُرْ به باعي

وأقطع الخَرْقَ يخافُ الرَّدى ... فيه، على أدماءَ هِلواع[1]

ذاتِ أساهيجَ جُماليَّةٍ ... حَشَنْتُها كوري وأنساع[2]

تُعطي على الأيْنِ وتنجو من الـ ... ـضَّرب أمونٍ غير مِظلاع

كأن أطرافَ وَليَّاتِها ... في شمْألٍ حصَّاءَ زَعزاع[3]

أُزيِّنُ الرَّحْلَ بمعقومةٍ ... حاريَّة، أو ذاتِ أقطاع[4]

أُقضِّي بها الحاجَاتِ إنّ الـ ... ـفتى رهنٌ بذي لونين خَدَّاع

أنشدت هذه القصيدة[5] عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو ساكت، فلما انتهى المنشد الى قول الشاعر:

الحزم والقوَّة خير من الإدْ ... هان والفكَّةِ والْهاع

استعاده عمر البيت وأبدى ارتياحه له، وهذا بلا شك حكم ضمني لهذا الشعر بالجودة، من رجل دقيق في معرفة الشعر وإدراك أسماره . ونلاحظ حرص ابن الأسلت على نفي قيل الخنا عن زوجته، وذلك تصوير رائع للمرأة اليثربية في تلك الأيام، فهي حريصة على إرضاء زوجها، ولا تخدش إحساسه حتى بالكلم الهين اللين. وهو في الوقت ذاته يصور من خلال ذلك نفسه وتغير لونه وهزال جسمه بسبب ما لقيه في الحرب، وبعد حديثه عن شجاعته ينتقل للحديث عن بسالة قومه، ثم وصف ناقته بأوصاف ترفعها في عين الخبيرين بالنوق.

---

(١) الخرق: الأرض البعيدة، والفلاة لواسعة. الهلواع من النوق: السريعة المذعان.

(٢) الأساهيج: ضروب مختلفة من السير. ناقة جمالية: أي وثيقة كالجمل. حشنتها: ضممتها. الكور: الرحل. الأنساع: السيور.

(٣) الوَليَّة: البرذعة او ما تحتها. والحصَّاء من الرياح: الصافية بلا غبار. زعزاع: تزعزع الأشياء: تحركها.

(٤) معقومة من العقم وهو الوشي يريد طنفسة موشاة.

(٥) مصادر الشعر الجاهلي ص ١٠٧.

ولم تنته حرب حاطب بانتهاء يوم البقيع لكن أباقيس هو الذي تنازل عن رئاسة قومه، فترأسهم بعده حضير الكتائب. وتصالح الحيان على أن يحسبوا القتلى، فمن كان عليه الفضل أعطي الدية، فأفضلت الأوس على الخزرج ثلاثة أنفار، فدفعت الخزرج ثلاثة غلمة رهناً بالديات، فغدرت الأوس فقتلت الغلمان.

يوم الفجار الأول

ليس هو بفجار كنانة وقيس، كما قد يتبادر الى الذهن، بل هو يوم من أيام الأوس والخزرج التي توالت في حرب حاطب، وسمِّي كذلك لغدر الأوس بالغلمان في أعقاب يوم بقيع الغرقد. وقد تكون هذه التسمية مجرد تلقيب ليوم البقيع وليست يوماً بعينه. وقد رأينا ذكر اسمه في شعر ابن رواحة في قوله:

رمينـاك أيـام الفجـار فلم تـزل　　حمِياً فمن يشربْ فلستَ بشارب

يوم مُضَرِّس ومُعَبِّس

والتقى الحيان بعد ذلك عند حائطي مضرّس ومعبِّس -بزنة محدِّث- وهما حائطان كانا لرجل يدعى دُحيْنة، قريبان من آطام بني عدي بن النجار، والمضرس هو الأسد الذي يمضغ لحم فريسته ولا يبتلعه. ونشبت بينهما حرب في هذا المكان حملت اسم الحائطين المذكورين استغرقت عدة أيام، ثم انهزمت الأوس حتى دخلت البيوت والآطام، وكانت هزيمة منكرة لم ينهزموا مثلها، فلجأ بعضهم الى المصالحة والموادعة، وهم بنو عمرو بن عوف وبنو أوس مناة وامتنع آخرون كبني عبد الأشهل وبني ظفر وغيرهم من الأوس، وقالوا: لا نصالح حتى ندرك ثأرنا من الخزرج - وكان على الأوس حضير بن سماك وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي - فركّز الخزرج غاراتهم عليهم وخصوهم بالهجومات العنيفة، وأغارت بنو سلمة على مال لبني عبد الأشهل يقال له الرَّعِل، وجرى بينهم قتال شديد جرح فيه سعد بن معاذ الأشهلي جراحاً عميقة، فاحتمله بنو سلمة الى عمرو بن الجموح الخزرجي فأجاره، وأجار الرعل من الحريق وقطع الأشجار، وقد رعى سعد بن معاذ هذا الموقف لابن الجموح يوم بعاث.

وبعد توالي الهزائم الشنيعة على الأوس قرر كثير منهم ممن لم يدخلوا في الصلح مع الخزرج أن ينتقلوا من يثرب الى أي مكان آخر يجدون في أرجائه الاستقرار والطمأنينة ويحفظ عليهم كرامتهم، وكان أول مكان توجهوا اليه: مكة، فأظهروا أنهم يريدون العمرة وهم إنما خرجوا لطلب الحلف من قريش على الخزرج، وكانت عادتهم إذا أراد أحدهم العمرة أو الحج أن لا يعترض خصمه طريقه او يناله بشر، كما لا ينال من ماله الذي تركه وراءه شيئاً، ويعلق المعتمر على بيته كرانيف النخل ففعل الأوس ذلك وساروا الى مكة، وأخذوا يفاوضون قريشاً في الحلف، وقبل القرشيون محالفتهم ـ وفرح الأوس بذلك فرحاً كبيراً، وراحوا يحلمون بالنصر على الخزرج والظفر بهم، وكان أبو جهل غائباً عن هذا الحلف، فلما قدم أنكره وقال لقريش: أما سمعتم قول القائل: ويل للآهل من النازل، إنهم لأهلُ عدد وجلد، ولقلما نزل قوم على قوم إلا أخرجوهم من بلادهم وغلبوهم عليها. قالوا: فما المخرج من حلفهم؟ قال: أنا اكفيكموهم، ثم خرج حتى جاء الأوس، فقال: إنكم حالفتم قومي وأنا غائب، فجئت لأحالفكم وأذكر لكم من أمرنا ما تكونون بعده على رأس أمركم، قالوا: هات لنرى.. قال: إنّا قوم تخرج إماؤنا الى أسواقنا، ولا يزال الرجل منا يدرك الأمة فيضرب عجيزتها، فإن طابت أنفسكم أن تفعل نساؤكم ما تفعل نساؤنا حالفناكم، وإن كرهتم ذلك فردوا إلينا حلفنا، فقالوا: لا نقر بهذا، وكان الأوس والخزرج معروفين بالغيرة الشديدة على النساء، فردوا الى قريش حلفها ورجعوا الى بلادهم ولسان حالهم يقول: ذل بني عمنا خير مما يقوله أبو جهل. وقال حسان بن ثابت[1] يفتخر بانتصار قومه في هذا اليوم:

ألا أبـلغْ أبـا قـيس رسـولا إذا ألـقى لـه سـمعـاً تـبـين
نسيتَ الجِسْرَ يـوم أبي عقيـل وعنـدكَ من وقـائعنـا يقـين
فلستُ لِحـاصنٍ إن لم تـزرْكُمْ خـلالَ الدُّور مُشعِلَةٌ طحـون[2]

---

(١) ابن الأثير ١: ١٤٥. والديوان ص ٢٥٣ ـ ٢٥٥.
(٢) مشعلة طحون: الكتيبة.

يَـدينُ لها العزيـزُ، إذا رآهـا وَيهـرَبُ من مخـافتهـا القـطين
تَشيبُ النـاهـدُ العـذراءُ فيهـا ويسقُطُ من مخـافتهـا الجنـين
بعينيـكَ القـواضب حـين تُعْلي . بهـا الأبـطالُ والهـامُ السُّكـونُ
تجود بأنفُسِ الأبـطالِ سُجْحاً وأنت بنفسـك الخِبُّ الضَّـنين
ولا وقـرٌ بسَمْعكَ حين تُـدْعى ضُحىً إذ لا تجيب ولا تُـعين
ألَمْ نـتـرُكْ مـآتـمَ مُـعْـوِلاتٍ لهـنَّ عـلى سراتِكُـمُ رنـين
تَـشينُهُمُ زعـمتَ بغـير شـيء ونفسَـك لـو علمتَ بهم تَشين
قـتلتُمْ واحـداً منـا بـألْفٍ هـلاَ لله ذا الـظفـرُ المُـبـين
وذلـك أنَّ ألـفَكُـمُ قـليـلٌ لـواحدنـا، أجلْ أيضـاً وَمِين[1]
فـلا زلتمْ كـما كنتمْ قـديمـاً ولا زلـنـا كـما كـنـا نـكـون
يـطيف بكم من النجَّار قـومٌ كـأُسْد الغـاب مَسْكنهـا العـرين
كـأنَّـا إذ نـساميكمْ رجـالاً جمـالٌ حـين يجتلدون جـون[2]
ولن تـرضى بهـذا فـاعلمـوه معـاشرُ أوسَ مـا سُمِعَ الحنين
وقـد أكـرمتُكم وسكنت عنكم سراةَ الأوسِ ، لو نفع السُّكون
حيـاءً أن أشـاتمكم وصـونـاً لعـرضي، إنَّـه حسَبٌ سمـين
وأكـرمتُ النسـاء وقلتُ رهْـطي وهـذا حـين أنـطِق او أُبـين

وقال ابن الخطيم[3]:

أَلَّم خيـالُ ليـلى أمَّ عـمـرو ولم يُـلْمِـمْ بـنـا إلاّ لأمـر

---

(١) المين: هو ما زاد عن الألف.
(٢) نساميكم: نغالبكم.
(٣) الديوان ص ١٨١ - وتاريخ النقائض ص ٨٨ وديوان ابن رواحة ص ٤٨.

تقـول ظعينـتي لمـا استـقلَّتْ: أتترُك ما جمعتَ صريمَ سَحْرِ[١]

فقلتُ لهـا: ذريـني إن مـا لي يـروح إذا غـلبتُـهُم ويسـري

فلست لحـاصن إن لم تَـرَوْنـا نجـالدكمْ كـأنَّـا شِـربُ خمـرِ[٢]

وتحمـل حـربهَمُ عنـا قـريشٌ كـأنَّ بنـانهمْ تغريكُ بُسْـرِ[٣]

وتُـدرِك في الخـزارج كـلَّ وِتْـرٍ بـذمِّ الكـاهنـينْ وذمِّ عمـرو[٤]

زجـرْنـا النخـل والآطـامَ حتى إذا هـي لم تشيِّعنـا لـزَجْـر

همنـا بـالإقـامـة ثم سِـرْنـا كسـير حذيفـة الخير بنِ بَـدْرِ[٥]

ورثنـا المجـد قـد علمت معدٌّ فـلم نُغـلَبْ ولم نُسبَقْ بـوتْـر

متى تَلْقَـوْا رجـالَ الأوس تلقَـوْا لـبـاسَ أسـاودٍ وجلودَ نمـرِ[٦]

ونَصـدُق في الصباح إذا التقَيْنـا ولـو كـان الصبـاحُ جحيمَ جَمْر

ألا أبْـلغْ بـني ظـفـر رسـولاً فلم نَذْلِـلْ بيثـربَ غيَر شهـرِ[٧]

خُـذِلـنـاه وأسـلَمـنـا المـوالي وفـارقنا الصـريـحُ لغـير فَقْـرِ[٨]

أبحنـا المُسبغـين كـما أبـاحت يمـانـونـا بني سعـد بـن بكـرِ[٩]

---

(١) يقال قد صرمت سَحْري منه: أي يئست منه. والسحر: هو الرئة فاذا انقطعت لم يعش الانسان

(٢) حاصن: حَصان. وهي المرأة العفيفة.

(٣) أي أنها حمرٌ من الدماء.

(٤) عمرو: يقصد بني عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس، لأنهم وادعوا الخزرج وصالحوهم في يوم مضرس ومعبس كما مرّ.

(٥) هو حذيفة بن بدر الفزاري، ويضرب به مثل في سرعة السير، وقد كان أغار على هجائن النعمان بن المنذر بن ماء السماء، وسار في ليلة مسيرة ثمانٍ.

(٦) الأساود: جمع أسود وهو العظيم من الحيات والنَّمر: جمع نمر.

(٧) بنو ظفر هم قوم ابن الخطيم يقول ناصر الدين الأسد: لعله يشير الى هزيمة قومه الأوس في يوم مضرس ومعبس.

(٨) يشير بالموالي إلى اليهود، وبالصريح إلى بني عمرو بن عوف من الأوس الذين سالموا الخزرج.

(٩) المسبغين: أي الذين عليهم دروع سابغه. بنو سعد بن بكر: هم بنو سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان.

فـإن نلحَقْ بـأبـرهـةَ اليمـاني ونعمـانٍ يـوجِّهنـا وعمـرو [1]

وإن ننـزلْ بذي النّجـدات كرْزٍ نـلاقِ لديـه شُرباً غـيَر نَـزْر[2]

له سَجْلانِ: سجْلٌ من صريـح وسَجْـلُ تـريكـةٍ بعتيقِ خَمْر [3]

ونمـنـع مـا أرادوا، لا يُعـاني مُـقيـمٌ في المحـلَّة وسْط قَـسْـر

وإن تغـدرْ بنا غـطفـانُ نُـردِفُ نسـاءهمُ ونقتُـلْ كـل صَـقْـر

فنحن النـازلـون عـلى المنايـا ونحن الآخــذون بـكــل ثَغْـر

فرد عليه عبد الله بن رواحة:

كـذبتَ لقـد أقمتَ بهـا ذليـلاً تقيم عـلى الهـوان بها وتَسْـرِي

وقد نبه جامع ديوان ابن رواحة كما نبه قبله غيره بأنه لم يجد من هذه القصيدة غير هذا البيت. وبالرجوع إلى نونية حسان نلمس روح النصر القوية التي تشع في ثنايا النص، فهو يذكر أبا قيس بن الأسلت وقومه بانتصار الخزرج عليهم، ويهددهم بالحرب الماحقة التي لا تبقي ولا تذر:

فلستُ لحـاصن إن لم تـزركمْ خـلال الـدور مُشعِلةٌ طَحـون

تشيب النـاهـد العـذراء فيهـا ويَسقُط من مخـافتهـا الجنـين

ثم يذكر مرة أخرى بوقائع الخزرج وما تركته فيهم من آثار وجراح:

ألم نـتـرك مـآتـم مُـعـوِلاتٍ لهـنّ عـلى سـراتكـمُ رنـين

ويبلغ الهجاء بحسان أوْجه في آخر النص فيقول في استهتار واضح بالأوس:

وقـد أكـرمتكمْ وسكنْتُ عنكمْ سراةَ الأوس، لو نفع السُّكونُ

---

(١) يوجِّهنا: يجعل لنا جاهاً، والنعمان هو ابن المنذر، وعمرو هو ابن الحارث الأعرج الغساني.

(٢) هو كرز بن عامر بن عبد الله، من قحطان.

(٣) السجل: الدلو الضخمة المملوءة. الصريح: اللّبن الخالص. التريكة: الماء الذي غادره السيل.

حيـاءً أن أشـاتِمَكُمْ، وصـونـاً لعـرضي، إنـه حسَبٌ سمـين

أما ابن الخطيم فإن نصه ينطف بالمرارة والهزيمة، ويعكس نفسية الأوس القلقة في يثرب بعد هذه الحرب، لقد بلغ بهم اليأس منتهاه وأفقدتهم الهزيمة كل سبيل للطمأنينة ولم يطيقوا تجرع غصصها فآثروا النزوح عن يثرب الى غير رجعة، وقد أشرنا إلى ذلك في كلام سابق.

ففي الأبيات الثلاثة الأولى نسيب الشاعر بحبيبته ليلى التي تركته واستقلت هودجها كما ترك النصر قومه، وهو يعدها باستعادة الغلبة على الخزرج.

فـقلت لهـا: ذريـني إنَّ مـالي يـروح إذا غـلبتُـهمُ ويَسـري

ثم يشير الى أمله في قريش أن تكون لهم عوناً، ويشبه أيدي القرشيين التي تسيل عليها دماء الخزرج بالبسر الأحمر المستوي:

وتحمـل حـربهم عنـا قـريشٌ كـأن بنـانَهمْ تَفـريـكُ بُسْـر

ثم ينبش الشاعر الماضي ليستل منه بعض المفاخر التي يدعم بها موقفه النفسي المنهار فيقول:

ورثنا المجدَ قد علمت معدٌّ فلم نـغـلبْ ولم نُـسـبَـقْ بِـوتْـر

متى تلقَـوْا رجـالَ الأوس تلْقَـوْا لـبـاسَ أسـاودٍ وجـلودَ نمـر

ثم يعود لتقوية الروح المعنوية في قومه، ويحمل بني عمرو بن عوف واليهود وزر الهـزيمة:

ألا، أبلغْ بـني ظـفـر رسـولاً فلم نَـذْلِـلْ بيثربَ غـيَر شهـر

خُـذِلْـنَـاه وأسـلمَـنَـا المـوالي وفـارقنـا الصـريـحُ لغـيرِ فَقْرٍ

ويلوح أخيراً بالثأر في جو من التمني والتطلع لنصرة تأتي عن طريق الأحلاف، ثم يختم القصيدة بشيء كبير من الثقة والاعتداد:

فنحن النازلون على المنايا ونحنُ الآخذون بكل ثغر

يوم بعاث

هو بالعين المهملة، ولا نظر لمن ضبطه بالغين المعجمة، لأنه مجرد تصحيف وفي اللسان: أنه اسم حصن من حصون الأوس. ويذكر يا قوت أن بعضهم يرى: أنه كان مالاً من أموال بني قريظة فيه مزرعة تسمى قَوْرَى (بألف مقصورة). والشريف العياشي[1] يقول: إنه اليوم مزرعة معروفة باسم المبعوث، واقعة جنوب منطقة العريض، على أكثر من ثلاثة أكيال عن المسجد النبوي في خط المسجد الشرقي، ثم يذكر أنه وجد حصناً في قاع فسيح يرجح أنه هو تقع منازل بني حارثة من الأوس في شماله، ومنازل بني عبد الأشهل من الأوس أيضاً في غربيه، وبنو قريظة في جنوبه الغربي. ورأي العياشي هذا يفسر موقف اضطراب الرواة في نسبته مرة الى الأوس ومرة لبني قريظة. وتحديد العياشي أضبط تحديد رأيته لهذا المكان، ومن الغريب أن يجعل [2] بعضهم بعاث على ليلتين من المدينة كالبكري.

ولم تكن حرب بعاث إلا الحلقة الأخيرة في سلسلة الحروب التي قامت بين الأوس و الخزرج وأفسدت عليهم استقرارهم، وحرمتهم من فرصة التفرغ للبناء والتعمير والأخذ بأسباب الحضارة.

رجع الأوس من عمرتهم خائبين، لأنهم لم يفلحوا في إقناع قريش بمحالفتهم ومناصرتهم على الخزرج، وكادوا يسلمون بالأمر الواقع، ويلقوا السلاح ويعطوا السيادة للخزرج، ولكن اليهود لم يحل لهم انتهاء الصراع على هذه الصورة، فعملوا خلال الخمس عشرة سنة من الهدنة على إشعال نار الحرب بين الحيين مرة أخرى، وعرضت قريظة والنضير الحلف على الأوس، لكي تقوي عزمهم على محاربة الخزرج، وصادف ذلك العرض هوى في نفوس الأوس، فقبلوا به وعقدوا عليه

---

(١) المدينة بين الماضي والحاضر ص ٣٩٩.

(٢) معجم ما استعجم ١: ٢٥٩.

الآمال في استرجاع هيبتهم ومكانتهم بيثرب.

يوم الفجار الثاني

كان تصفية لحساب يوم حاطب وإرهاصاً أو فتيلة لإشعال حرب بعاث، فلما سمع الخزرج بتحالف اليهود مع الأوس ضدهم أرسلوا الى اليهود يؤذنونهم بالحرب إن لم يتخلوا عن هذا الحلف، وأن مصيرهم لن يكون أفضل من مصير إخوتهم الأوس، فانخلعت قلوب اليهود لهذا التهديد وأسرعوا الى الخزرج يؤكدون لهم تخليهم عن الحلف، فلم يقبل الخزرج منهم ذلك الكلام إلا برهائن تبقى لديهم، يقتلونهم إن ثبت تعاونهم مع الأوس، فبعثوا اليهم بأربعين غلاماً منهم، ففرقهم الخزرج في دورهم، ثم إن أحد الخزارج سكر يوماً ثم جلس يتغنى بشعر ذكر فيه ذلة الأوس واليهود وهو:

هلمَّ إلى الأحلاف إذْ رقَّ عظمُهمْ	وإذ أصلَحوا مالاً بجذْمان ضائعا
إذا ما امرؤ منهم أساء عمارة	بعثنا عليهم من ذوي العير جادعا
فأما الصريح منهمُ فتحمَّلوا	وأما اليهود فاتخذْنا بضائعا
تخذنا من الأولى اليهود عصابة	لغدرِهمُ كانوا لدينا ودائعا
فذلُّوا لرهن عندنا في حبالنا	مصانَعَةً يخشَونْ منا القوارعا
وذاك بأنا حين نَلقَى عدوّنا	نصول بضرب يترك العزَّ خاشعا

فبلغ غناؤه اليهود فغضبوا، وقال كعب بن أسد القرظي: نحن كما قال إن لم نُغِرْ، وحمل كعب قومه على مخالفة الأوس، فلما سمعت الخزرج بذلك قتلوا كل من عندهم من الرُّهن من أولاد قريظة والنضير، ونشبت الحرب بين الأحلاف والخزرج، واشتد القتال بينهم، وسميت تلك الحرب بالفجار الثاني، وذلك لقتل الغلمان من اليهود.

مواصلة الحرب في بعاث

ثم إن عمرو بن النعمان البياضي قال لقومه بني بياضة: إن أباكم أنزلكم منزل سوء بين سبخة ومفازة، وأقسم ألا يمس رأسه غسل حتى ينزلهم منازل بني قريظة والنضير على عذب الماء وكريم النخل. ثم راسل اليهود ينذرهم بتخلية ديارهم لينزل فيها قومه وإلا فليس بينهم سوى الحرب، وقيل: إن تهديده لهم كان بقتل الرهن من الغلمان التي سبق أن ذكرناها فرفض اليهود ذلك، فقتلت الخزرج رهنها من اليهود وأبي عبد الله بن أبيّ، وقال: هذا عقوق ومأثم وبغي لا أُعين عليه. واستعرت الأحقاد وامتلأت النفوس غيظاً وكمداً، فاجتمع الأوس وبنو قريظة والنضير على حرب الخزرج حتى لم يتخلف منهم أحد، لقد بالغ الخزرج في إهانتهم وغطرستهم وطغيانهم، فليس من بد من محاربتهم.

واجتمع الخزرج عند عبد الله بن أبيّ يقررون شأن الحرب ويتوعدون الأوس وحلفاءهم اليهود بالفناء التام، فلم يوافقهم عبد الله وقال لهم: إن هذا بغي منكم على قومكم وعقوق، فإن كان لا بد من الحرب فقاتلوا قومكم كما كانوا يقاتلونكم، فإذا ولّوا فخلوا عنهم. وحذرهم مغبة الانسياق وراء عواطفهم، فقال له عمرو بن النعمان البياضي: انتفخ والله سَحْرك يا أبا الحارث حين بلغك حلف الأوس وقريظة والنضير. فقال عبد الله: والله لاحضرتكم أبداً. ولكأني أنظر إليك قتيلاً يحملك أربعة في عباءة الى مثواك الأخير.

ولم يتابع عبد الله في رأيه سوى نفر قليل من الخزرج، وتولى عمرو بن النعمان أمر الخزرج، واستغرق الاستعداد لهذه الحرب من الطرفين أربعين ليلة، وجمع كل واحد منهم حلفاءه من العرب، فأرسلت الخزرج الى جهينة وأشجع، وأرسلت الأوس إلى مزينة. وجمع حضير الكتائب قومه من الأوس وخطب فيهم يحرضهم على الاستماتة في الحرب، ويذكرهم ما فعلت بهم الخزرج، حتى قال قائلهم: والله لئن ظفرنا بالخزرج لم نبق منهم أحداً فقال حضير: يا معشر الأوس.. إنكم ما سُمّيتم الأوس إلا لأنكم تَؤُوسُون الأمور الواسعة وتعالجونها.

يا قوم قد أصبحتم دوارا لمعشر قد قَتَلُوا الخيارا

يوشك أن يستأصلوا الديارا.

ثم أشار عليهم بأن يعقدوا اللواء لأبي قيس بن الأسلت، ولكن أبا قيس اعتذر ولم يقبل القيادة، فأعطيت القيادة لحضير الكتائب، واتفقوا ألا يكفوا عن قتل الخزرج إن هم ظفروا حتى يقول الخزرج: بزابز، وهي كلمة كانوا يقولونها إذا غُلبوا. وكان اللقاء ببعاث. فلما رأت الأوسُ الخزرج وقع في نفوسهم شيء من الرعب وأعظموهم، وقالوا لحضير: يا أبا أُسَيْد... لو حاجزت القوم وأرسلت الى من تخلف من حلفائنا من مزينة. فطرح قوساً كانت في يده، ثم قال غاضباً: أتريدون مني أن أنتظر مزينة بعد أن نظر الَيّ القوم ونظرت اليهم.. والله إن الموت أحب الَيّ من ذلك. والتحم الحيان بشدة وعنف، وسرعان ما انهزمت الأوس وولوا مصعدين في حرة قَوْرى[1] فصاحت بهم الخزرج: أين الفِرار..؟ فلما سمع حضير ذلك نزل وطعن فخذه بسنان رمحه وصاح: وَاعقراه... والله لا أبرح مكاني حتى أقتل، فإن شئتم يا معشر الأوس أن تُسلموا رئيسكم فافعلوا، فتعطفت عليه الأوس وعادوا للحرب من جديد، وقام على رأسه غلامان من بني عبد الأشهل جعلا يرتجزان

أيُّ غلامَيْ ملكٍ ترانا في الحرب إذ دارت بنا رحانا

وعدَّدَ الناس لنا مكانا

وكان الغلامان ذَوْي بطش ومصاولة، فقاتلا حتى قُتلا. وأصاب سهم طائش لا يُعرف مأتاه عمرَو بن النعمان البياضي رئيس الخزرج فأرداه قتيلاً، فتخلخلت صفوف الخزرج وانهزمت دون نظام، ووضعت الأوس فيها السلاح. وصاح صائح: يا معشر الأوس، أسْجحوا، ولا تهْلكوا إخوتكم. فأصغى الأوس الى الصوت وكفوا، ولكن قريظة والنضير انطلقوا بدافع حقدهم اليهودي في الخزرج سلباً ونهباً.

---

(١) قورى موضع قرب بعاث قال قيس بن الخطيم:

تركنا بعاثا يوم ذلك منهمُ وقَوْرَى على رغمٍ شباعا سِباعُها

وحملت الأوس حضيراً من الجراح التي به وهم يرتجزون:

كتيبةٌ زيَّنها مولاها لا كهلُها هُدَّ ولا فتاها

وأجار سعد بن مُعاذ الأشهلي بني سلمة وحمى أموالهم من الإحراق، جزاء موقف سيد بني سلمة عمرو بن الجموح منه يوم الرَّعِل.

وخرج حضير الكتائب وأبو عمرو الراهب الى أبي قيس بن الأسلت فقال له حضير: يا أبا قيس إن رأيت أن نأتي الخزرج قصراً قصراً وداراً داراً نقتل ونهدم حتى لا نُبقي منهم أحداً. فقال أبو قيس ـ وكان رجلاً عاقلاً حليماً ـ والله لا نفعل ذلك. ومات حضير بعد ذلك متأثراً بجراحه فقال خفاف بن نُدبة يرثيه:

أتاني حديثٌ فكذَّبتُه وقيل: خليلُكَ في المَرْمَس

فيا عينُ بكِّي حضيرَ النَّدى حضيرَ الكتائب والمجلس

ويومٌ شديدٌ أوارُ الحديد تَقطَّع منه عُرَى الانفُس

صَليتَ به وعليكَ الحديدُ ما بين سَلْعٍ الى الأعْرَس[1]

فأودَى بنفسك يومِ الوغى ونقَّى ثيابَك لم تَدْنَس

واستعاد اليهود بعد هذا اليوم مكانتهم بيثرب، ورأى المنتصر والمهزوم من الحيين سوء ما صنعوا، وتطلعوا إلى إقامة ملك عليهم واختاروا لذلك عبد الله بن أبيّ من الخزرج المهزومة، لمكانته وحسن رأيه، لكن تطور الأحوال تُطوراً سريعاً حال دون ما أرادوا، وذلك لبدء الاسلام بيثرب.

وعن عائشة قالت:[2] كان يومُ بعاث يوماً قدَّمه الله لرسوله ﷺ. فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم وقُتلت سرواتهم، وجرحوا، فقدمه الله لرسوله ﷺ

---

(١) الأعرس: اسم موضع بالمدينة.

(٢) معجم ما استعجم ١: ٢٥٩.

لتسهيل دخولهم إلى الاسلام. وقد كان بعاث قبل مقدمه ﷺ يثرب بخمس سنوات، بل إن بعض أهل يثرب تسلل الايمان الى قلوبهم قبل يوم بعاث، مثل إياس بن معاذ الأشهلي الذي كان مع أبي الحَيْسر أنس بن رافع حين جاء الى مكة قبل بعاث يطلب الحلف من قريش، وسمع بهم الرسول ﷺ فأتاهم وجلس معهم ودعاهم الى الاسلام وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ - وكان غلاماً حَدثاً -: أيْ قومي، هذا والله خير مما جئتم فيه. وخالط الاسلام نفسه فأسلم، وبذلك كانت له أسبقية لم يظفر بها أحد من قومه، أكرمه الله بها وخصه رضي الله عنه وأرضاه. وكان بعاث آخر الحروب بين الأوس والخزرج، ثم جاء الاسلام واتفقت الكلمة واجتمعوا على نصر الاسلام وأهله فسُمُّوا لذلك الأنصار.

أما الأشعار التي قيلت في يوم بعاث فكثيرة، أوردنا بعضها في الكلام عن الأيام السابقة لورود اسم تلك الأيام فيها بجانب ذكر بعاث، كبائية قيس بن الخطيم التي مطلعها:

أتعرف رسمًا كاطِّراد المذاهب ... لعمرةَ وَحْشا غيرَ موقف راكب

ومما ورد أيضاً قول ابن الخطيم:(١)

ألا أبلغا ذا الخزرجيَّ رسالةً ... رسالةَ حقٍّ لستُ فيها مُفنَّدا

فإنّا تركناكمْ لدَى الرَّدْمِ غدْوةً ... فريقين مقتولاً به ومُطرَّدا(٢)

صَبحناكُم منا به كلَّ فارسٍ ... كريم النَّثا يحمي الذِّمار ليُحْمَدا(٣)

أتذكر أمراً لم تَنلْه وإنّما ... تناول سجْلَ الحرب مَنْ كان أنجدا

فذقْ غِبَّ ما قدّمتَ إنيَّ أنا الذي ... صَبحتُكُمْ فيه السِّمام بِبُرجُدا(٤)

(١) الديوان ص ٢١٦ وتاريخ النقائض ص ٨٨.

(٢) الرَّدم: اسم مكان حدثت فيه إحدى وقائعهم.

(٣) النثا: ما أخبرت به عن الرجل من حسن أو سيء. الذمار: الأهل والحوزة.

(٤) غب الأمر: مغبته وعاقبته. السِّمام: جمع السم القاتل. وبرجد اسم مكان لا بد أنه قريب من مواقعهم

ونحن حماةُ الحرب ليستْ تَضيرُنا   نَسوقُ خميساً كالقَطا مُتبدِّدا

فأجابه أنسُ بن العلاء من بني الحارث بن الخزرج فقال:

أَلَمَّ خيالٌ من أميمة مَوْهِنا   فلم أغتمضْ ليل التّمام تهجُّدا (1)

وكان يراها القلبُ جَيْداءَ تَرْتَعي   سوائلَ يمنٍ، فالحساءَ فأرثَدا (2)

وماءٍ على حافاته أُبَّدُ القَطا   تخال به دِمْن المعاطِن إثمِدا (3)

أقمتُ به ليلاً طويلاً فلم أجدْ   لذي أرَبٍ يبغي الرغائبَ مَقْعَدا

ونحن حماةٌ للعشيرة أينما   نكنْ لا يبالُوا أن يغيبوا ونَشْهدا

نُحامي على جِذْم الأغرِّ بمالِنا   وَنبذُل حزْراتِ النفوسِ لِنُحمدا (4)

صبحناهُم عند القتال بغارةٍ   فأصبحَ قيسٌ بعدَها متلدِّدا (5)

يَعضُّ على أطرافه كلّما بدا   لنا فارسٌ يبغي القتال تنجّدا

واضح أن كلّاً من الشاعرين حاول الفخر على الآخر بقوة قومه الحربية، غير أن أنساً ابتدأ بالنسيب، كما أشار الى محاولة الأوس الهروب يوم بعاث في الجولات الأولى من وجه الخزرج، حيث توجهوا في هروبهم تلقاء نجد، وصاح بهم الخزرج الى أين؟ إن نجداً مُسْنِتة، أي إنها مجدبة هذا العام.

صبحناهُم عند القتال بغارةٍ   فأصبح قيس بعدها مُتلدِّدا

يَعضُّ على أطرافه كلّما بدا   لنا فارس يبغي القتالَ تنجَّدا

---

(1) الموهن: نحو منتصف الليل، والتهجد هنا بمعنى السهر.

(2) يمن: ماء لغطفان على الطريق بين تيماء وفيد. والحساء مكان ذكر مع ما قبله في شعر زهير

عفا من آل فاطمة الجواء   فيُمن فالقوادم فالحساء.

وأرثد اسم واد بين مكة والمدينة في وادي الأبواء.

(3) أبد: جمع آبده وهي المقيمة بمكانها لا تبرحه صيفاً ولا شتاء.

(4) الأغر: هو مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج، حزرات النفوس: خيارها.

(5) التلدد: التلفت يميناً وشمالاً من الحيرة.

وقال ابن الخطيم أيضا في يوم بعاث:[1]

سل المرء عبدَ الله إذْ فرَّ هل رأى ... كتائبَنا في الحرب كيف مِصاعُها؟[2]

ولو قام لم يلقَ الأحبَّة بعدَها ... ولاقى أسوداً هَصْرُها ودفاعُها[3]

ونحن هـزمْنـا جمعَكُمْ بكتيبـةٍ ... تضاءل منها حزن قوْرَى وقاعُها[4]

إذا همَّ جمعٌ بانصرافٍ تعطَّفوا ... تعطُّفَ وردِ الخِمْسِ أطَّتْ رِباعُها[5]

تـركنا بعـاثاً يـومَ ذلـك منهمُ ... وقَوْرَى على رغمٍ شباعاً ضباعُها

إنّه لشعر يفيض بالتشفي لما وقع للخزرج من هزيمة نكراء في يوم بعاث، كما يعبر عن مدى الانتقام الذي اتبعه الأوس معهم:

تـركنا بعـاثاً يـوم ذلـك منهمُ ... وقَوْرَى على رغمٍ شباعاً ضباعُها

ومن شعره في إحدى حروبهم:[6]

أتت عصبة للأوسِ تخطُر بالقنا ... كمشْي الأسود في رشاش الأهاضب

فإن غبتُ لم أُغفَلْ وإن كنتُ شاهداً ... تجِدْني شديداً في الكريهة جانبي

بسيف كأن الماءَ في صفحـاته ... طحاريرُ غيْم أو قرونُ جنادب[7]

ومن قوله أيضاً:

---

(١) الديوان ص ١٤٢.

(٢) عبد الله: هو ابن أبي بن سلول وقد تخلّى عن قومه فلم يشترك في حرب بعاث. والمصاع: القتال والمجادلة.

(٣) الهصر: الغمز والجذب. يقال: هصر الغصن اذا جذبه، ويقال رجل هَصِر اذا كان شديد الغمز للأقران.

(٤) تضاءل: تصاغر. وقورى سبق الاشارة اليه.

(٥) أطّت: حنّت، وأطيط الإبل زفيرها من البطنة، والورد: الإبل الواردة. والخمس: أن تشرب الإبل الماء يوماً وتدعه ثلاثة أيام ثم ترد الماء اليوم الرابع.

(٦) الديوان ص ٢٢٧.

(٧) الطحارير: قطع السحاب المتفرقة جمع طحرورة.

أصبحتْ من حلول قومي وحشاً رَحبُ الجَدْرِ جلسُها فالبطاح [1]

أعلىَ العهدِ أصبَحتْ أم عمرو ليت شعري، أم غالَها الزُمَّاح [2]

إن تـرينا قُلَيِّلين كـما ذِيـ ـد عن المُجْرِبين ذَوْدٌ صِحاح [3]

وقوله :

لـو كنتُم منا قـريبـا لخفتم سبابي اذا أنشأت في شُرْب الخَمْر

وإني لِمسمـاحُ العشيِّ مؤزَّرٌ أسامحُ في أمثالكمْ عُصَبَ التَّجرِ

كـأنهم إذ واقفـوني عـلى مِنىً سيولُ الحجاز ناطحَتْ عُرُضَ البحر

فما الأُسدُ باللاتي الغريفُ مَقِيلُها ولكنَّ أُسْدَ الغاب حافةُ ذي الجَدْر [4]

بنو خَطْمـةَ الأبطالُ إنهّم بهـا غُذُوا، وعليها ينشأون يدَ الدهر [5]

وقال أيضاً [6] :

لِعَمْـرة إذ قـلبُـه مُعجَـبُ فأنىَّ بعمـرةَ أنىَّ بهـا . . ؟ [7]

ليـالٍ لنـا وُدُّهـا مُنْصِـبُ إذا الشَّوْلُ لَطَّتْ بـأذنابها [8]

وراحت حدابيرَ حدبَ الظُّهورِ مُجْتَـلَمًا لحـمُ أصـلابهـا [9]

---

(١) الديـوان ص ٢٢٨ وذو الجدر: مسرحٌ على ستة أميال من المدينة ناحية قباء، وسيل بطحان يأخذ منه.

(٢) قال ابن دريد: الزماح: طائر كان يقف بيثرب في الجاهلية على أطم بني واقف فيصيح حرب حرب، فرموه فقتلوه. وقيل: إنه كان طائراً قوياً يختطف الصبي من مهده.

(٣) أي إذا قل عددنا فلا يشوبنا لئيم، فنحن كالإبل الصحاح ليس فيها بعير أجرب. والمجرب الذي جربت إبله. وذيد: طرد.

(٤) الغريف: الأجمة، والشجر الملتف.

(٥) يد الدهر: مدَّ زمانه.

(٦) الديوان: ص ١٣٤.

(٧) لعمرة: أراد لعمرة ليال.

(٨) مُنْصِب: متعب. لطت: سترت بأذنابها أفخاذها. الشَّول: التي أتى عليها من نتاجها سبعة أشهر فجفت ضروعها، مفردها شائلة.

(٩) حدابير: جمع حدبار وهي المهزولة. حُدب الظهور: ذهبت أسنمتها، مُجتلَم: أي أُخِذ ما كان على =

كأن القرنفُلَ والزنجبيلَ — وذاكي العبيرِ بجلبابها

نمتها اليهودُ الى قبَّةٍ — دُوَيْنَ السماءِ بمحرابها[1]

ونارٍ يُقصِّر عنها الدنيُّ — آخرَ ليلٍ صَلينا بها

وملمومةٍ كصفاة المسيلِ دارتْ — رحاها وُدرنا بها[2]

مَشيْنا إليها كجُرْبِ الجمال — باقي الهناءِ بأقرابها[3]

وقال أيضاً:

تقول ابنةُ العَمريِّ آخرَ ليلها: — علامَ مُنِعتَ النوم؟ ليلُك ساهر

فقلتُ لها: قَوْمي أخافُ عليهمُ — تباغِيَهُمْ، لا يُبْهِكُمْ ما أحاذرُ[4]

فلا أعرِفَنْكمْ بعد عِزٍّ وثروةٍ — يقالُ: ألا تلك النبيتُ عساكر[5]

فلا تجعلوا حَرْباتِكمْ في نحوركمْ — كما شَدَّ ألواحَ الرِّتاجِ المسامِر

وقال أيضاً لما أصابته السهام في صدره ومات منها بعد أيام، وكان بينه وبين بعض قومه شر فحضره وهو مجهود:

كم قائمٍ يحُزنُه مَقتلي — وقاعدٍ يرقبني شامتُ

أبلِغْ خِداشاً أنني ميتٌ — كلُّ امرىء ذي حسب مائتُ

أما قصة موته فإنه لما هدأت الحرب بين الأوس والخزرج بعد حرب بعاث، تذاكرت الخزرج قيس بن الخطيم ونكايته فيهم فتواعدوا على قتله، وفي أمسية من

= ظهورها من اللحم.

(١) نمتها: رفعتها. والمحراب: الغرفة.

(٢) الملمومة: الكتيبة المجتمعة. الصفاة: الصخرة الملساء وهي الصفواء.

(٣) الأقراب: جمع قُرْب، وهي الخاصرة.
واهناء: القطران.

(٤) تباغيَهم: أي بغى بعضهم على بعض. لا يُبْهكم: لا يفسدْ أمركم.

(٥) عساكر: أي جموع متفرقة كما رجح ناصر الدين الأسد.

أماسيه خرج إلى بستانه بالشوط وعليه ملاءتان مورَّستان، وعند مروره بأطم بني حارثة رموه بثلاثة سهام فأصابه أحدها في صدره، فصاح صيحة سمعها قومه من الأوس، فجاؤوه فحملوه الى منزله، فلم يروا له كفؤاً إلا أبا صعصعة بن زيد بن عوف بن مبذول النّجاري، فاندَّس اليه رجل منهم فضرب عنقه غيلة، وأتى برأسه الى قيس وهو في النزع الأخير. فألقاه بين يديه وقال: يا قيس. لقد أدركت ثأرك. فقال قيس أبغير أبي صعصعة . . ؟ فقال له: بل إنه هو، فابتسم قيس ارتياحاً ولم يلبث أن مات.

ومن شعره الحربي أيضاً[1]:

فما ظَبْيَةٌ من ظباء الحِسا ... ءِ عَيْطاءُ تَسمعُ منها بُغاما[2]

ترشِّحُ طِفلا وتحنو له ... بِحِقفٍ قَدَ انْبَتَ بقلا تُوءَاما[3]

بأحسنَ منها غداةَ الرَّحيل ... قامت تُريك أثيثاً رُكاما[4]

فما كان حبُّ ابنةِ الخزرجيِّ ... إلا عناءً وإلا غراما

فهل ينسينْ حُبَّها جَسْرةٌ ... من الناعجات تُباري الزماما[5]

كأنَّ قتودي على نِقْنِقٍ ... أزجَّ يباري بجوٍّ نَعاما[6]

وفي الأرض يَسبِقُ طرْفَ البصير ... فبينا يَعوج تراه استقاما

---

(١) الديوان: ص ٢١٢.

(٢) الحساء: جمع حِسْي ويجمع أيضاً على أحساء، وهو الرمل المتراكم أسفله حجر صلد يمسك الماء البغام: صوت الظبيه. عيطاء: طويلة العنق في اعتدال.

(٣) رشحت الناقة ولدها: أن تحك أصل ذنبه وتدفعه برأسها وتقدمه وتقف عليه حتى يلحقها والترشيح كذلك: لحس الأم ما على طفلها من الندوة. والحقف: الرمل المعوج.

التُّوءام: جمع توأم وهو النبات المزدوج المضاعف.

(٤) الأثيث: الشعر الغزير الطويل.

(٥) حسرة: ناقة طويلة ضخمة. الناعجات: جمع ناعجة وهي الناقة الكريمة البيضاء الحسنة اللون.

(٦) القتود: الرحل. النقنق. الظليم وهو ذكر النعام. أزج: طويل الرجلين.

وَمَـأقِطِ خَسْفٍ أقَمْنـا بـه   على ضَنْكِه خَشْيةً أن نُلاما[1]

وقـومـاً أبَحْنـا حمى مَجْدِهِمْ   وكانوا لمن يعتـريهِمْ سنامـا[2]

أذاعت بهم كـلُّ خيفـانـةٍ   طروحٍ طموحٍ تلوك اللجاما[3]

ومن شعر أبي قيس بن الأسلت الحربي غير ما تقدم قوله[4]:

من يَصْلَ ناري بلا ذنبٍ ولا تِرَةٍ   يَصْل بنارِ كـريم غير غـدَّار

أنـا النذيـرُ لكم مِنِّي مجاهـرةً   كيْ لا أُلامَ على نهيٍ وإنذار

فإن عصيتم مقالي اليوم فاعترفوا   أَنْ سوفَ تَلقَوْن خزياً ظاهر العار

لتـرجعُنَّ أحـاديثـاً مُـلعَّنـةً   لَهو المقيمُ ولهو المدلجُ السَّاري

من كان في نفسه حَوْجاءُ يطلبها   عندي فإني له رهنٌ بأصحار[5]

أقيمُ عَوجتَهُ إن كان ذا عِوَجٍ   كما يُقوِّمُ قِدْحَ النَّبعةِ البـاري

وصاحبُ الوترِ ليس الدهرَ مُدرِكَهُ   عنـدي وإنيِّ لـدرَّاكٌ بـأوتـار

ومما قاله قيس بن الخطيم في حرب بعاث ولم يكن حضرها:[6]

ردَّ الخليطُ الجمـالَ فـانقضبـا   وقطَّعوا من وصالِكَ السببا[7]

قـادتهـمُ للفـراق شـاطِنـةٌ   فشط وليُّ الحبيب فاغتربا[8]

---

(١) المأقط: المضيق في الحرب أو موضع القتال.

(٢) السنام: المقصود به سيد قومه.

(٣) أذاعت بهم: أذهبتهم وقضت عليهم. الخيفانة: الجرادة والمقصود هنا الفرس. الطروح: الفرس البعيدة العدو. طموح: الفرس العالية المرتفعة.

(٤) ديوان ابن الأسلت والأكثرون ينسبونها لغيره ص ٧٥.

(٥) حوجاء: حاجة. رهن بأصحار: أي إني لاأستتر عنه، بل أصحَر إليه في الفضاء السهل.

(٦) الديوان ص ١٧١.

(٧) الخليط: المجاور لهم في الدار. انقضب: انقطع.
السبب: الحبل.

(٨) شاطنة: أي سفر بعيد. الولـيُّ: المداناة والمقاربة، ومنها: كل ممّا يليك.

لم أدر قبـل النَّـوَى بِـبَيْنِهِمُ ... حتى استطارتْ عصاهمُ شُعَبَا[1]

هنـدُ تَجَنيَّ الـذُّنـوبَ عـاتبـةً ... يا حَبَّ بالعـاتب الذي عَتَبـا

أقسمت لولا الذي زعمتُ وما ... خَبَرتُ قوماً عن مجدِهِمْ كذبا

وقد أضعت الذي حفظتُ من ... الـوُدِّ لقـدّمتُ مِـدحـةً عَجَبـا

أفنيتُ دهري وطولَ دهركِ لا ... ننفـكُّ نُـزجي مقـالـةً لَعِبـا

يَسلُك منها الصَّعودَ مَنْ طَلَبَ ... القَصْدَ وَتعوي سِبـاعُها كَلَبـا

هـلّا إذِ الخُـورُ في أصِـرَّتهـا ... والحَفْلُ في الدَّرِّ تقطعُ العَصبا[2]

لاقيتِ أمـري والرأيُ مُؤتَنِف ... أتبـعُ رأسـاً وأتــرك الـذَّنبـا

في غـيرِ ما كنهه سَفِهْتِ وما ... أحدثْتِ حالا فَتُحدثي الخُطَبا[3]

الحـمـد لله ذي البـنيَّـةِ إذ ... أمستْ دُحَيٌّ قد أُثخِنَتْ غلبا

يـركبُ حَزْنَ الـطريق أوَّلُهُمْ ... يـدعو بني عمِّـه، وقد كُـربا

غــودر عنـد المَكـرِّ سيِّـدُهمْ ... فيـه سنانٌ تخـالُـه لَهَبـا[4]

وابنـا حـرامٍ وثـابتٌ كُشِفَتْ ... خيْلاهُمـا عنهُـما وقـد عَـطِبـا

زرنـاهُم بـالخميس ضـاحيـةً ... نُزْجي الى الموت جحفلاً لجبا[5]

جاءت بنو الأوس عارضاً بَرِداً ... تحلِبُـهُ الريـحُ مُقبـلا حَلبـا[6]

أرْعَـنَ مـثـلَ الأتِيِّ أعْـقَـبَـهُ ... صَـوْبُ مُلِثٍّ يُسيِّـلُ الحـدَبـا[7]

---

(١) استطارت: تفرقت وانتشرت. وشعباً: قطعاً وأجزاءً متفرقة.

(٢) الخور: جمع خوارة وهي الناقة الغزيرة اللبن. أصِرَّة: جمع صرار وهي الأكياس الصغيرة التي تغطى بها الضروع خشية أن يرضعها حوارها. الحفل: اجتماع اللبن في الضروع. الدر: اللبن.

(٣) في غير ما كنهه: في غير وقته وقدره.

(٤) يشير الى عمرو بن النعمان البياضي.

(٥) ضاحية: علانية جهاراً.

(٦) برد: أي فيه بَرَد، أي إنهم جاؤوا لهم حفيف كسحاب فيه بَرَد.

(٧) الأرعن: الجيش يشبّه برعْن الجبل، وهو أنْف منه متقدِّم. صوبُ مُلِثٍّ: أي مطر ٍ

إن بني الأوس حين تستعر الحربُ لَكالنَّارِ تأكلُ الحطبا

إن بني الأوس معشرٌ صدقوا الضَّرْبَ وَسَنّوا الإساء والنَّدَبَا [1]

فَصَحدوا رأسَ كبشِ إخوتهمْ حتى تولَّوْا واستنفرُوا هَرَبا [2]

بكلِّ لينٍ ماضٍ ضَريبتُهُ عَضْبٍ اذا ما هززتَهُ رسبا [3]

قالت بنو الأوس مِنْ عفافِهمُ مُرُّوا ولا تأخذُوا لهم سَلَبا

تسوق أخراهمُ أوائلَهُمُ كما يسوقُ الْمعارضُ الجَلَبا

لَما دعاهمْ للموتِ سيِّدُهمْ ثابتْ اليهمْ جموعُهُمْ عُصَبَا

فرد عليه ابن رواحة فقال:

يا قيسُ أنتمْ شرارُ قومِكمُ قِدْما وأنتُمْ أغثُّهمْ نسبا

حالفتُمُ الفُحْشَ والخيانةَ والبخل جميعاً واللُّؤمَ والكَذِبا

يا قيسُ إنَّ الأسلابَ أحرزَها مَنْ كان يُغشِي الذوائبَ القُضُبا

وأنتَ في الدار غيْرُ مُحْتضِر حرباً وتدعو قتالَنا لعِبا

لو كنتَ فيهمْ والحربُ لاقحةٌ لكنتَ فيهمْ مُغلَّباً ذَنَبا

نحن استبحْنا في ديارِكمُ يوم صَبحناكمُ بها عُصَبَا

هذا هو شأن تلك الحروب، سارت بين اللين والشدة، والعنف والمهادنة وكثيراً ما نراهم يذكرون بالقربى والرحم، ويحاول عقلاؤ هم أن يذكروهم بالحرب وشرورها. ثم قد يفلحون في إخمادها كما فعل ابن الإطنابة في حقن الدماء بتحمل الديات، وقد لا يفلحون. ورغم هذا فإن ذلك العداء بقيت آثاره حتى بعد

---

(١) الإساء: الدواء والندب: آثار الجراح.

(٢) صحدوا: ضربوا.

(٣) ضريبة السيف: حده. سيف رسَب ورَسُوب: أي ماض يغيب في المضروب.

الاسلام، ولم يزُلْ إلا بعد أن قـوي الايمان في قلوبهم وتغلغلت عقيدته في نفوسهم.
ومن أمثلة ذلك ما سبق أن ذكرناه من استجابتهم لاستثارة شاس اليهودي لهم.
وللسبب نفسه لم يرضوا أن يؤمهم رجل من الحيين في بداية عهدهم بالاسلام، فأرسل لهم الرسول ﷺ مصعب بن عُمير رضي الله عنه يؤمهم ويعلمهم أمر دينهم.
وخير ما نقوله في هذا المضمار: هو أن النزاع الذي كان بين الحيين في الجاهلية، انقلب في الاسلام الى تنافس شريف مثمر، فكان الحيان يتصاولان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تصاول الفحلين[1]، لا تَصنـع الأوس شيئاً فيـه لرسول الله ﷺ غَناء إلا قالت الخزرج: والله لا يذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله ﷺ في الاسلام، فلا ينتهون حتى يفعلوا مثلها، وكذلك الخزرج، فلما أصابت الأوس كعب ابن الأشرف في عداوته للرسول ﷺ، قالت الخزرج لا يذهبون بها فضلاً علينا أبداً.
ثم تذاكروا رجلاً تكون عداوته مقاربة لابن الأشرف، فذكروا ابن أبي الحقيق- وهو آنذاك بخيبر- فاستأذنوا رسول الله ﷺ في قتله، فأذن لهم، فخرج اليه منهم خمسة نفر فقتلوه بها، ورجعوا سالمين، وكان حصنه بخيبر فوق جبل يسمى القموص.

لقد أعاد الاسلام لهذه القلوب المتباغضة المتنافرة طمأنينتها، وآخى بينها وملأها محبة وألفة ووفاء، فاجتمعوا حول الرسول ﷺ في وحدة متراصة لا تعرف إلا الإخلاص لله ولرسوله. وأكرمْ بدين يحوِّل الله به الخوف الى أمن والعداوة الى محبة، والظلم الى عدالة: (لو أنفقت ما في الأرضِ جميعاً ما ألفتَ بين قلوبهم ولكنَّ الله ألَّف بينهم).

***

---

(١) الطبري: ٢: ٤٩٥.

الفصل السابع

الموازنة بين شعر الحرب عند الأوس والخزرج وعند غيرهم

إن ما أوردناه في الفصل السابق من أشعار الأوس والخزرج وما سبقه من فصول، كلها كانت تدور حول الحرب وتصف ضروب الشجاعة والبأس والضرب والطعان لديهم، وتؤرخ لأيامهم وعلاقاتهم الحربية، وتظهر مدى حسن البلاء والنكاية في الأعداء بالنسبة للقبيلة والقادة والأفراد، وهذه هي جل المعاني الأساسية التي يدور عليها شعر الحرب في مفهومه الاصطلاحي كما حاول تحديده الدكتور زكي المحاسني في كتابه (شعر الحرب في أدب العرب) الذي تناول فيه العصرين الأموي والعباسي الى عهد سيف الدولة، وقد نبه الى الفرق بين الشعر الحماسي والشعر الحربي من جهة، ثم بين الشعر السياسي والحماسي من جهة أخرى، وذلك في مقدمة الكتاب وخاتمته، وقد أفدت من كتابه المذكور كثيراً في كتابة هذا الفصل واستعنت به الى حد كبير.

عمم أصحاب كتب الحماسة كأبي تمام والبحتري والخالديين وغيرهم معنى كلمة الحماسة فذكروا في كتبهم تحتها كل ما استجادوه من روائع الشعر العربي منذ العصر الجاهلي الى أزمانهم، فأوردُوا الغزل والوصف والمديح وذم النساء والشيب والنقائض وغير ذلك من فنون الشعر، مع أن الحماسة أساساً يقترن اسمها بالحرب وشعر الحرب. ولكن ما سلكوه كان ضرباً من التساهل والتوسع.

ومن جهة الشعر السياسي فليس كل شعر سياسي حماسياً، فكثير من أشعار عبد الله بن قيس الرقيات وأشعار الكميت، من الشعر السياسي، لأنها تدعو لحزب

وتدافع عن مبدأ وتنادي بفكرة مذهبية أو سياسية، ومع ذلك لا نستطيع أن نعدها من الشعر الحماسي أو الحربي، لأنها تفتقر الى الخصائص التي ذكرنا.

وإذا جاز لبعضهم أن يعتبر شعر الرثاء هو أخلد الفنون الشعرية عند العرب وأصدقها عاطفة لأنهم كانوا يقولونه وقلوبهم موجعة، فإن من المؤكد أن شعر الحرب هو أقوى ما نظم الشعراء العرب وألصقُه بنفسية العربي، وأوشجه بوجدانه، لأن العرب أمة فطرت على الحرب وجبلت على حب البطولة والأبطال، حتى ليصح أن نقول: إن الأمة العربية أمة حرب. وفي الواقع إننا لو ألقينا نظرة شاملة لما وجدنا العرب وحدهم في هذا المضمار، بل إن لدى الانسان أنىَّ كان ميلاً إلى البأس والقوة والحرب، فحب الحرب غريزة فيه، متغلغلة في كيانه مغروسة في طبائعه، ومنظر الدماء مسكن لسوراته مهدىء لغضبه، معبر عن قهره وغلبته، هكذا كان منذ أن قتل قابيل هابيل الى اليوم، وسيظل كذلك الى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فهو إما هاجم أو مهجوم عليه، فإذا أباد القوي الضعيف أو تصالح الخصمان استسرَّ الشر في الضلوع الى حين، وانطوى في الحنايا الى أمد قريب أو بعيد، ولكنه لا ينتهي ولا يزول. ولم يعرف التاريخ أمة من الأمم لم تنشب بينها وبين جيرانها حرب يخوضها الأبطال ببأسهم، ويكتبون وقائعها بسلاحهم وقطرات دمائهم، وإذا لم تكن الحرب مع الجيران كانت بين أبناء الأمة نفسها، وبين مدنها وقراها وقبائلها وأحيائها، تلك سنة الطبيعة الانسانية وشرعة الحياة، والتاريخ مليء بالشواهد والأمثال، ففي اليونان نجد الحرب سجالاً بين الاثينيين والاسبارطيين، وهم من قبيل واحد وأمة واحدة، واحتدمت الحرب الأهلية في أمريكا وفرنسا وإسبانيا والصين، فالعرب إذن ليسوا بدعاً في الأمم حينما نجد الحرب قديما تدور رحاها بينهم، رغم صلة النسب والقرابة، وتشتد وتستمر، فلا ينهنهها إلاّ سلطان الدين بظهور الرسالة المحمدية وانتشار نور الاسلام.

كانت حروب العرب جميعاً من النوع الداخلي إلا ما كان من حرب ذي قار: فداحس والغبراء بين عبس وذبيان، ومن شعراء هذه الحرب الطويلة عنترة، وقيس

ابن زهير صاحب الجواد: (داحس) والربيع بن زياد العبسي، وعقيل بن غلفة المريّ، والربيع بن قعنب، وعمر بن الأسلع وغيرهم.

وحرب البسوس بين بكر وتغلب، وهم أخوان وأبناء عمومة، وبقيت ذكراها الى أواخر العصر الأموي، ومن شعرائها: المهلهل، وعمرو بن الأهتم وعمرو بن كلثوم وغيرهم. وأيام الفجار بين قريش وخزاعة، وقد حضرها الرسول ﷺ وسنه إذاك أربع عشرة سنة، وكان لها شعراؤ ها الذين تغنوا بها ووصفوا أيامها ووقائعها.

وحرب الأوس والخزرج كانت أيضاً أحد الأمثلة لتلك الحروب الداخلية، وهي أشبه بأخواتها من حيث المنازع والدوافع والغايات، مع بعض الفروق والاختلافات. فلم تكن حربهم عن ماء أو عشب أو كلأٍ، كما هو الحال في المجتمع الرعوي، ولم تكن عن قحط في الغيث او جدب في الأرض وضيق في اليد وجوع في البطون، فالخيرات لديهم في يثرب وافرة، والزروعات عديدة، والنخيل وارف الظلال وقور الأعذاق.

واذا قلنا: إن العرب أمة حرب فليس معنى هذا أنهم يفتقدون الأناة والتبصر في الأمور، واستعمال الحكمة والرأي فيما يعرض لهم من مشاكل وأحداث، صحيح أن أيديهم كانت قريبة من سيوفهم وبخاصة في المجتمع الرعوي، إلا أننا نجد صوت الحكمة يصرخ قوياً من بين ركامات البغضاء والأحقاد، ويعلو مدوياً من خلال مثار النقع وظلام الأقتار، فهذا زهير بن أبي سلمى يقول:

وما الحربُ إلا ما علمتم وذقتمُ ... وما هو عنها بالحديث المرجَّمِ
متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً ... وتَضْرَى إذا ضرَّيتموها فتُضرَمِ
وتعرككم عَرْكَ الرَّحا بثفالِها ... وتَلقَحْ كِشافا ثم تَنْتُجْ فتُتْئِم
وتُغْلِلْ لكم ما لا تُغِلُّ لأهلِها ... قُرىً بالعراق من قفيز ودرهم

وعمرو بن امرىء القيس الخزرجي ينبه ابن عمه مالك بن العجلان الى

أضرار الحرب ويحذره مغبتها فيقول:

يا مال والسيد المعمَّمُ قد   يطرأ في بعض رأيه السَّرَفُ

وكذلك يقول درهم بن زيد الخزرجي:

يا مال لا تبغين ظُلامَتَنا   يا مال إنا لَمعشرٌ أُنُف

يا مال والحقُّ إن قنعتَ به   فيه وفينا لأمرِنا نَصَف

ولعل مما يميز شعر الحرب في الجاهلية أن أكثر قائليه من الأبطال الكماة المناجيد، الذين جمعوا بين الفروسية والبطولة وقول الشعر وسحر البيان، كعنترة، والمهلهل وقيس بن الخطيم وأبي قيس بن الأسلت.

الخصائص العامة لشعر الحرب عند الأوس والخزرج

لم يكن شعر الأوس والخزرج منفصلاً في إطاره العام عن البيئة الشعرية التي كان يحياها الشعر الجاهلي، وإن ترك المجتمع الزراعي بصماته عليه، وميزه ببعض السمات، ويمكن إيجاز تلك الخصائص والسمات فيما يلي:

١ ـ إن أصحاب النصوص الحربية كانوا من الفرسان المحاربين، فلم يكونوا يصفون الحرب من بعيد، وإنما هم أناس اصطلوا نارها وشربوا من كأسها، إلا ما عرف من حسّان بن ثابت، ومن هنا كانت التجربة التي حملتها أشعارهم أكثر عمقاً وأكمل صدقاً.

٢ ـ إن خواطر أصحابها متقاربة متحاذية متشابهة، وقد يضؤل الاختلاف أحياناً حتى لتبدو صورهم الفنية متماثلة كل التماثل، ولعل ذلك راجع الى التشابه في طبيعة الأرض وأساليب المعايش والتقارب في التركيب وتكوين المزاج ووحدة الجنس.

٣ ـ الميل الى الإيجاز والغلو في اختصار الكلم وقياس البلاغة بالجمل القصيرة

التي تنطوي تحتها المعاني الغزيرة. وهو الطابع الغالب على التعبير العربي شعراً ونثراً، وبخاصة في العصر الجاهلي، ولذلك لا نجد بين قصائدهم ما يصور المعركة من أولها الى آخرها، وإنما هي لمحات ومواقف وإشارات لا تدخل في التفاصيل، ولا تتعرض للجزئيات، ولا تعطي الملامح الدقيقة.

٤ ـ خلت أشعار الأوس والخزرج من المبالغات غير المقبولة كما عند عمرو بن كلثوم ـ مثلاً ـ كقوله:

إذا بلغ الفطام لنا صبيٌّ تخرُّ له الجبابر ساجدينا
ملأنا البرَّ حتى ضاق عنا وظهرُ البحر نملؤه سفينا

إلا ما كان عند حسان من المبالغات القليلة.

٥ ـ لم تقم حرب في يثرب من أجل المراعي أو الأرض أو مساقط المياه كما كان الأمر عند غيرهم من معاصريهم، إلا ما ورد من كلام عمرو بن النعمان البياضي في حرب الفجار الثاني، حيث وعد قومه بأن يحلهم منازل قريظة لأنها أغزر مياهاً وأطيب ثماراً وألطف هواء.

٦ ـ لم تقم أيضاً من أجل ناقة أو فرس كحرب داحس والغبراء وحرب البسوس، وإنما هي في الغالب دفاع عن جوار مخدوش، أو ذب عن كرامة مهدورة، أو رفض للذل وعدم رضاً بالضيم. فأنت إذا استعرضت ما ذكرناه في الفصل السابق عن حروبهم وأيامهم لن تجد سبباً يعدو ما أشرنا إليه من أسباب. والإباء وحفظ الجوار من أبرز الخلال العربية على مر العصور، ولعلها في الأوس والخز [illegible] ع أخلاقهم ومدار تحركاتهم.

٧ ـ كان غيرهم من أحياء المجتمع الرعوي قلما يقبل الديات في قتلاه، وإن قبلها عيرته الأحياء العربية الأخرى وعدتها من مثالبه، ولذلك قال أحدهم وقد سمع بانتشار الحمى في دمشق فأخذ اليها زوجته التي كان يكرهها على أمل أن تصيبها الحمى وتموت، قال:

دمشقُ خذيها واعلمي أن ليلةً تمرُّ بعودَيْ نعشهـا ليلةُ القدر
أكلتُ دماً إن لم أرُعْكِ بضرَّةٍ بعيدةِ مهوى القُرْطِ طيبةِ النَّشْر

فهو يدعو على نفسه أن يأكل الدم، أي الدية، ويقبل بها إن لم ينفذ وعيده، وهذا يبين مدى كراهيتهم لقبول الديات. وتلك مواقف ناتجة من تأجج العواطف الجاهلية في المجتمع الرعوي، بينما المجتمعات الزراعية أكثر استجابة لدعوات العقل والتريث، وهكذا كانت الديات لديهم من الوسائل التي تنتهي بها حروبهم.

٨ ـ ليس للمرأة دور يذكر في حروبهم، ولا مشاركات شعرية ينقلها الرواة كما فعلت جليلة ـ مثلاً ـ في حرب البسوس، حين تحدثت عن عواطفها الموزعة بين أخيها القاتل وزوجها القتيل، ودختنوس زوج عمرو بن عدي التميمي الذي قتل يوم الرَّحرحان، والتي رثته بشعر ينطف بروح الحرب الكامنة في نفسها للنقمة والثأر، فقالت:

ألا يا لها الويلاتُ ويلةُ مَنْ بَكَى لضرب بني عبس لقيطاً وقد قضى[١]
لقد ضربوا وجهاً عليه مهابةٌ ولا تحفل الصمُّ الجنادل من ثوى
فإن تعقب الأيام من فارس تكنْ عليكم حريقاً لا يُرامُ إذا سما
لنجزيكمُ بالقتل قتلاً مضعَّفـا وما في دماءِ الخِمْس يا مال ِ مِن بُوا[٢]

٩ـ لارتباط العرب بالحرب ـ ومنهم الأوس والخزرج ـ ظهر في تراث العربية ما يمكن أن يسمى بلغة الحرب، فقد حذقوا الكلام عن الحرب وأجالوا البيان في وصف آلاتها وجولاتها والحديث عن خيلها وهزائمها وانتصاراتها، ولم يقتصر ذلك على أيام الحروب وحدها، بل إنهم حتى في السلم جعلوا السيوف نظرات الغيد وجروحاً في قلوب العشاق، وشبهوا بها انبلاج الصبح واشتداد العزائم ولمعان البروق، وجعلوا

---

(١) هو لقيط بن زرارة والدها الذي قتل أسيراً في هذا اليوم.
(٢) الخمس: عدد رجال قتلوا. ومال: هو مالك الفزاري حليف قومها. والبوا: الكفؤ.

الرماح مثالاً لقَوام الحسان وقرنوا النبال بلحظ العيون الفواتن:

ويلاه إن نظَرت وإن هِي أعْرضت وقْعُ السهام ونزعهُنَّ أليم

وكذلك كان اليثربيون يفعلون.

١٠ - فرض الشعر الحربي ميسمه على فصاحة الشعراء، فكان من ضرورة فنه أن تجيء أشعارهم فيه قوية رصينة، ذات جرس وجزالة، لتكون كلماتها ظروفا لقعقعة السلاح وحمحمات الخيل، وأوعية لصراع الأبطال واحتدام المعارك.

١١ - اقترنت كثير من قصائدهم بالبدايات الغزلية، وقد كانت المرأة رفيقة الشعر الحماسي الحربي في جميع الأمم منذ هوميروس اليوناني الى سيرانو دوبر جراك الفرنسي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت المطالع الغزلية من عمود الشعر الجاهلي، لكن هذه البداية الغزلية لم تكن ضرورية جداً في شعر الحرب اليثربي، بل إننا نجد بعضهم يعمد الى غرضه مباشرة دون تقديم.

١٢ - كان شعر الحرب في يثرب مهداً لقيام فن من فنون الأدب عرف بعد ذلك بالنقائض، وهي أن يضع شاعر ما قصيدة في بحر وقافية معينين يفخر فيها بنفسه وقبيلته، فيأتي شاعر آخر وينظم قصيدة على البحر نفسه والقافية نفسها، ويقلب تلك المفاخر هجاء ويفخر هو بنفسه وقومه؛ كما رأينا عند ابن رواحة وقيس بن الخطيم. وقد امتازت عند الأوس والخزرج بالهدوء النسبي، إلا ما كان يبدو أحياناً عند حسان ابن ثابت.

١٣ - نلاحظ أن الشعر الذي أوردناه قلما كان الشاعر يتحدث فيه عن نفسه أو يتغنى بعواطفه، بل كان يتغنى بمجد جماعته، ويشيد بانتصارات حيه وقبيلته، وينافح عن وجودها ويدعم حقوقها، فهو لسانها المدافع وصوتها المدوِّي، ففنه كسلاحه ملك لجماعته، وهكذا كان الشعر الجاهلي في عمومه ملتصقاً بالجماعة ملتحماً بحياة القبيلة،لم يعش في يوم من الأيام بعيداً عن الأحداث، منعزلاً في برجه العاجي، يقدس ذات قائله ويدور حولها في حيرة وانشداه، كما يفعل بعض شعراء عصرنا الحاضر.

١٤ ـ بعض هذا الشعر وصلنا في أسلوب مقطعات، إما للظروف الحربية التي كانت تحمل أحياناً على الإيجاز، وإما لتقصير الرواة.

١٥ ـ إن الشعر اليثربي ـ الحربي منه وغير الحربي ـ قلّ من حيث الكم عن مثيله في المجتمع الرعوي، وزاد عن المجتمع التجاري في مكة، ويترجح عندي أن أكثره ضاع وأصابه ما أصاب الأوس والخزرج بتفرقهم في البلاد بعد الفتوح الاسلامية، من تفرق وخفوت صوت، فلم يبق منه ما هو مجموع في الكتب أو متناثر إلا النزر اليسير، ولكنه على قلته فيه الدلالة على بلاغة قائليه، معبِّرٌ عن حياتهم، مصور لحروبهم وأيامهم، وحسبُ القول ـ قل أو كثر ـ في مجال التقويم أن تكون له هذه المكانة وهذا الوزن وهذا التقدير. والدارس لهذا الشعر يجد فيه كثيراً من الأوليات المعنوية والتصويرية التي وجد فيه بعض الشعراء من البيئات الأخرى مجالاً للاحتذاء كما وجد فيها علماء البلاغة بعد ذلك مادة للدرس والتنظير.





خاتمة

وبعد:

فلعلني استطعت في الصفحات السابقة أن ألقي الضوء على بعض الجوانب المعتمة من تاريخ المدينة الأدبي، وألم بالأحداث التي أثرت الحياة الشعرية فيها، واذا كان الغرض الأساسي من هذا البحث هو الحديث عن شعر الحرب في الجاهلية عند الأوس والخزرج فإنني - في الواقع- لم أستطع أن أغفل الإشارة الى بعض الأغراض الأخرى للشعر اليثربي، لشيوع ظاهرة اختلاط الأغراض لديهم في القصيدة الواحدة، كغيرهم من شعراء عصرهم.

وقد كان تناولي لبعض نقاط البحث - في الحقيقة - تناولاً مختصراً، فلم أمسسها غير مسٍّ خفيف رفيق، ولكنني رغم هذه الخفة وذلك الاختصار استطعت - بحمد الله - أنِ أحقق كثيراً من أهدافه وغاياته، بحيث تمكنت من أن أعيد الى وجه المدينة الجاهلية بعض أصالته وروائه، وأبرزت دور الأوس والخزرج في بناء الكيان الشعري العام وفي بلدهم المدينة بالذات، كما أن هذا البحث يعتبر الأول من نوعه في تقديم تاريخ تلك الفترة في كيان متكامل وإطار مترابط الحلقات.

ولم أشأ أن أثقله بالاستقصاءات العديدة والاستنتاجات المختلفة، لأنه في حقيقته لا يعدو أن يكون بحثاً عادياً في دبلوم الماجستير، وسأعود - بحول الله - الى مناقشة أكثر قضايا هذا البحث وموضوعاته ضمن دراسة أكثر عمقاً وأوسع شمولاً.

ومع ذلك فقد حرصت على إبراز أهم معالم الشعر الحربي عند الأوس والخزرج، ونمو

شعر النقائض تحت ظلال سيوفهم وعلى صدى أرماحهم وحمحمات خيولهم، كما أبنت عن شجاعتهم وصدق بلائهم في تلك الحروب التي بدأت بحرب سمير وانتهت بحرب بعاث التي أكرمهم الله بعدها بالاسلام ونصرهم به على أنفهسم وعلى غيرهم ونصره بهم، فحملوا بذلك أكرم لقب وأشرفه على الإطلاق، وهو لقب الأنصار . !



فهرس الموضوعات

صدر للمؤلف

١ ـ الرائد في علم الفرائض (الطبعة الثانية)

٢ ـ الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ، للحافظ ابن كثير (تحقيق وتعليق) بالاشتراك مع الأستاذ محيي الدين مستو.

٣ ـ شعراء من أرض عبقر ـ الجزء الأول.

٤ـ شعراء من أرض عبقر ـ الجزء الثاني

٥ ـ أمجاد الرياض (ديوان شعر)

٦ ـ غناء الجرح (ديوان شعر)

٧ ـ همسات في أذن الليل (ديوان شعر)

٨ ـ شعر الحرب في الجاهلية عند الأوس والخزرج